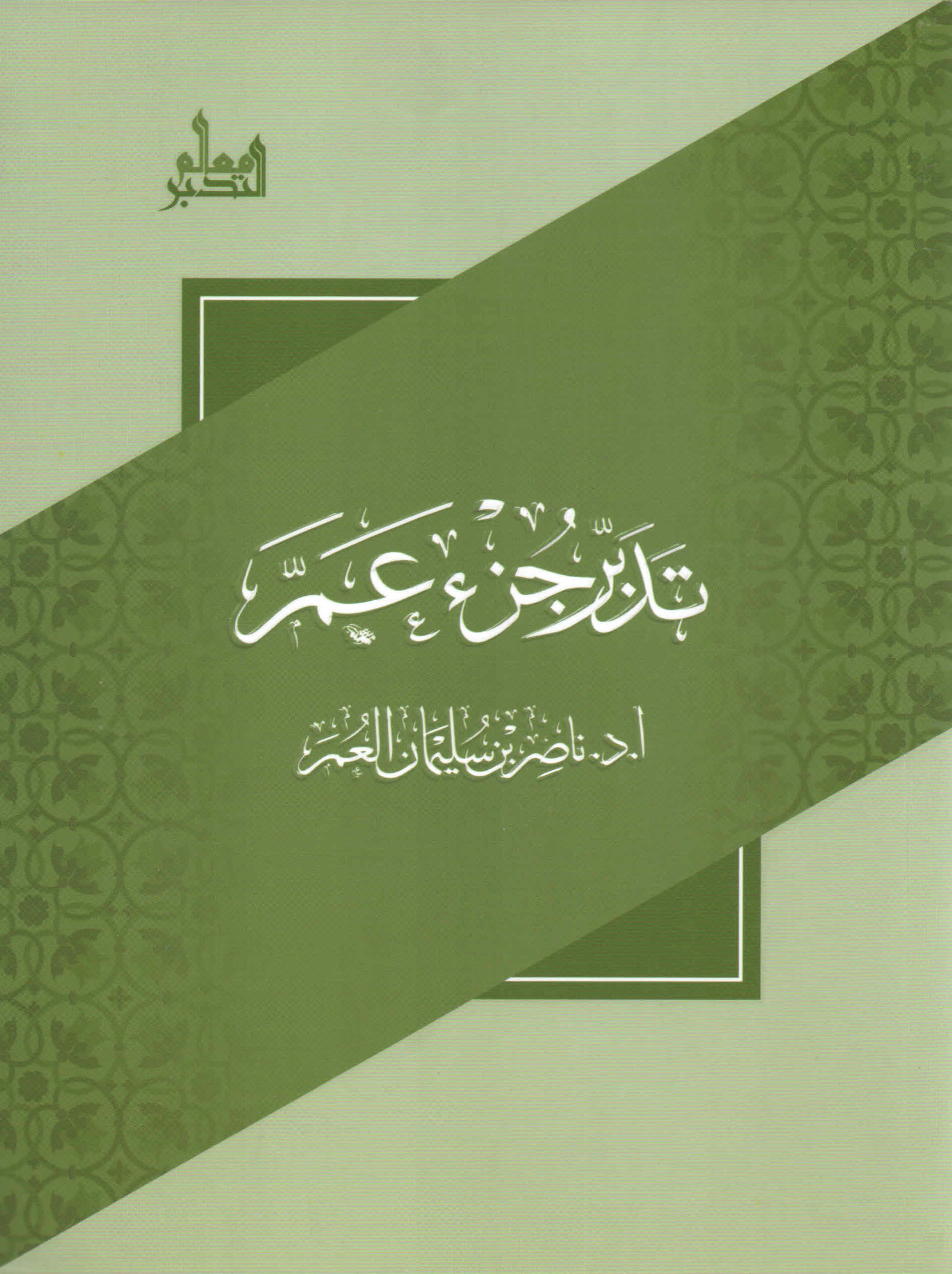


معالم التدبر
تدبر جزء عم
أ.د. ناصر بن سليمان العمر


تدبر جزء عم



تدبر جزء عم

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

الرياض - طريق الملك عبد الله بن عبد العزيز - حي المغرَّزات

مبنى رقم ٣٧٧٦ - هاتف ٠١١ ٤٥٤٤٧٦٣

الرمز البريدي ١٢٤٨٢ - الرمز الإضافي ٦٥٤٠

البريد الحاسوبي: malem@tdabbor.com

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمر، ناصر سليمان محمد

تدبر جزء عم / ناصر سليمان محمد العمر الرياض - ١٤٣٩هـ

٤٠٠ ص؛ ١٧ × ٢٢ سم

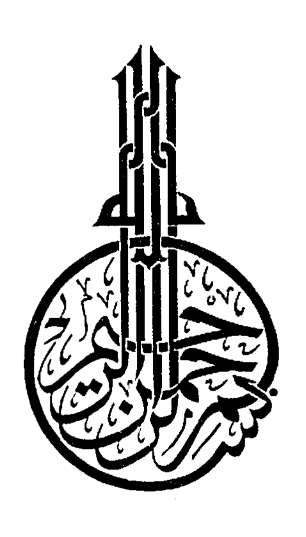
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٢-٦٣٠٠-٤

١- القرآن - جزء عم - تفسير أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٦   ٤٠٢٠ / ١٤٣٩

رقم الإيداع: ٤٠٢٠ / ١٤٣٩

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٢-٦٣٠٠-٤


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين.

وبعد، فإن الجزء الثلاثين جزء عظيم، اشتمل على كثير من قضايا الاعتقاد. وجُلُّ سوره مكيُّ النزول، ومما يميّز المكيَّ عن المدني: عناية المكي بأمور العقيدة؛ كأسماء الله وصفاته، والبعث والنشور، ويتميز المدني عن المكي بالحديث عن الأحكام والتشريعات[١]. وهذه الميزات عرَفها العلماء بالاستقراء والتتبع، ولا يعني ذلك أن السور المدنية خِلوٌ من مسائل الاعتقاد! إنما المراد الغالب على كلا النوعين، فالمحور الرئيس لهذا الجزء هو الإخبار عن الله ﷻ، وعن البعث والنشور.

والحديث عن اليوم الآخر يكثر في المكي، ولا ينبغي أن نتصور أن هذا الموضوع قد انتهى! بل لا زال هؤلاء المشككون في أمر اليوم الآخر موجودين في عصرنا هذا، يثيرون الشُّبَه في عقول أبنائنا عن طريق ما يعرف بالإعلام الجديد! وأذكر أنه بعد درس قدمتُه جاءني شاب في المرحلة الثانوية -أصلحه الله- يقول: لدينا بعض الطلاب يُشكّكون في صدق القرآن وفي صدق النبي ﷺ! ويشككون في اليوم الآخر! ويجدون من يؤثرون في عقله من أبنائنا الذين انكب كثير منهم على الإعلام الجديد، وأخذوا من الشبهات التي يبثها أعداء الله ﷻ، وضعفت علاقتهم بالقرآن الكريم؛ فتعجبت كثيرًا! وذكر لي نماذج من هذه الشُّبَه، وليست شُبَهًا، ولكنها كذلك لهؤلاء المفتونين.

---

(١) انظر: المدخل لدراسة علوم القرآن، ص(٧٥)، د.محمد أبو شهبة.

إذن هذه الموضوعات نحتاج إليها اليوم كثيرًا؛ لكونها تتعلق بتقرير أصول العقيدة، التي يشن عليها العالم المادي اليوم غارات بقصد زعزعتها في نفوس الناس.

وقد أُقيم درس أسبوعي في التدبُّر، بدأنا فيه من سورة الناس، ووصلنا في نهاية العام ١٤٣٨هـ إلى سورة ق، وللحاجة إلى خروج هذه الدروس مطبوعة؛ فقد قام المكتب العلمي في (مؤسسة ديوان المسلم) بإعادة صياغتها ومراجعتها، فستخرج تباعًا بإذن الله، بدءًا بـ (تدبر جزء عم)، الذي هو بين أيدينا الآن. وتتلوه إن شاء الله بقية الأجزاء مع ما يُلقى في الأعوام القادمة؛ إذ إننا سنبدأ في مطلع العام ١٤٣٩هـ إن شاء الله بسورة الحجرات.

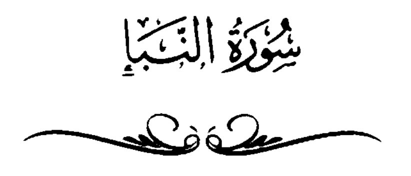
نسأل الله أن يبارك في الجهود، ويكتب لهذا العمل القبول.

والشكر موصول لكل من ساهم في إخراج هذا المشروع المبارك، ولكل من يبدي نصيحةً تفيد في هذا العمل مستقبلًا.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

ناصر بن سليمان العمر

١٤٣٨/١٢/٦هـ



بين يدي سورة النبأ

هي سورة «مكية بالاتفاق»(١).

أسماؤها:

تُعرَف هذه السورة المباركة بسورة النبأ؛ وذلك لوقوع كلمة النبأ في أولها مجملة، وبقيتها كالبيان لذلك النبأ، وسُمِّيت بـ «سورة ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾»؛ وهذه الآية الثانية فيها، ومن العلماء من أطلق عليها اسم: ﴿عَمَّ﴾؛ تسميةً لها بأول كلماتها، وسميت بسورة «التساؤل»؛ لكونها بدأت به، وسُمِّيت بسورة ﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾؛ لقول ربنا فيها: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾(٢).

والذي ثبت في السنة من هذه الأسماء: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، كما سيأتي في الحديث عن فضائلها.

عدد آياتها، وكلماتها، وحروفها:

«كَلِمُها مئة وَثَلاث وَسَبعُونَ كلمة، وحروفها سبع مئة وَسَبعُونَ حرفًا، وَهِي إحدَى وَأَربَعُونَ آية فِي البَصرِيُّ وَأَربَعُونَ فِي عدد الباقِينَ، اختلافها آية: ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾، عدها البَصرِيَ وَلم يعدها الباقون»(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٥).
(٢) يُنظر: الدر المنثور (٣٠/٥).
(٣) البيان في عدّ آي القرآن، ص (٢٦٢).

فضلها وما ورد فيها:

عن ابن عباس ﷺ، قال: قال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله قد شبتَ! فقال: «**شيَّبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعمَّ يتساءلون، وإذا الشمسُ كوِّرت**»[١].

موضوعاتها:

(١) إقامة الحُجَّة على إمكان البعث بخلق المخلوقات التي هي أعظم من خلق الإنسان بعد موته، وبالخلق الأول للإنسان وأحواله.

(٢) وصف الأهوال الحاصلة عند البعث من عذاب الطاغين، مع مقابلة ذلك بوصف نعيم المؤمنين.

(٣) صفة يوم الحشر؛ إنذارًا للجاحدين[٢].

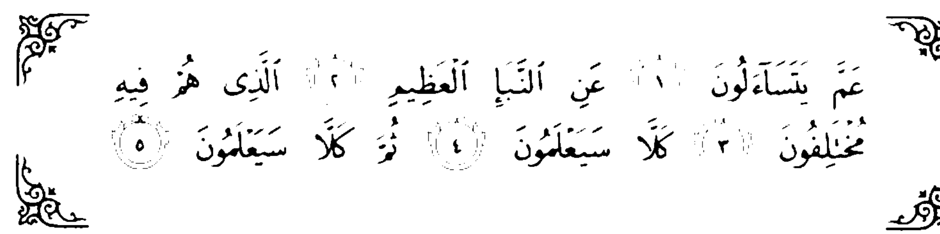
مقصد السورة:

تقرير البعث، ووصف أهواله وبيان مآل الناس فيه إلى فريقين بموجَب أعمالهم.

(١) الترمذي (٣٢٩٧)، وهو في السلسلة الصحيحة، برقم (٩٥٥).
(٢) يُراجع: التحرير والتنوير (٣٠/٦).

سورة النبأ: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٥)



﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾﴾، تأملوا هذا المطلع البديع! هؤلاء المتسائلون هل هم صادقون في تساؤلهم أم أرادوا السخرية به؟! أيسألون عما لا يقبل شكًّا، ولا يتطرق إليه ريب؟!

والآية: ﴿عَمَّ﴾ أصلها: عن ما، فهو «مركب من كلمتين هما: حرف (عن) الجار و(ما) التي هي اسم استفهام بمعنى: أي»[١].

والنبأ هو الخبر، قال الراغب الأصفهاني ﷺ: «النَّبَأُ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غَلَبَة ظنٍّ، ولا يقال للخبر في الأصل نَبأٌ حتى يتضمَّن هذه الأشياء الثَّلاثة»[٢].

والنبأ هنا: البعث، وقيل: القرآن، وقيل: النبي ﷺ، وكل هذا مما تحدثت عنه هذه السورة المباركة. والأقرب أن السؤال عن اليوم الآخر[٣].

وقد قال بعض أهل العلم: إنه بقدر انشغال الإنسان في الدنيا عن النبأ العظيم يضعف إيمانه به، وكثير من الناس شُغل بدنياه، فلا همَّ له سوى العبث واللهو، وغفل عن اليوم الآخر بسبب ذلك، وإذا غفل عنه ضعُف عمله، ومما مدح الله به أنبياءه في القرآن الكريم: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص]، ومعنى ذلك: إنا خصصناهم بعظيم، حيث جعلنا ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم. وقد سمعت

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٧).
(٢) المفردات في غريب القرآن، ص(٧٨٨ ـ ٧٨٩).
(٣) يُنظر: تفسير القرآن العظيم (١٩٥/٨).

طالب علم يقول كلمة عظيمة! يقول: أجتهد في كل موقف أن أتصور وقوفي أمام الله؛ حتى أتجرد للإخلاص والصدق والحرص على الثواب. وهذا عين العقل، فالغفلة خطرها كبير.

ولكثرة الاهتمام بالدنيا كثرت النقاشات فيها، وقل النقاش فيما يعود على الإنسان بالنفع؛ مما يدل على قلة ذكر الآخرة. فنقاشات كثير من الناس في قضايا لا تستحق الاهتمام، والأخذ فيها مما يُقسِّي القلب، ومثل هذا النوع من النقاش يُورث العداوة والبغضاء بيننا، وليس يخفى علينا قول نبينا ﷺ: **«أَنا زَعِيمٌ بِبَيتٍ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ لِمَن تَرَكَ المِراءَ وَإِن كانَ مُحِقًّا»**[1]. قال ابن الأثير رحمه الله: «(ربض الجنة)، هو بفتح الباء: ما حولها خارجًا عنها، تشبيهًا بالأبنية التي تكون حول المدن وتحت القِلاع»[2]. وإنما حُرِّم علينا الجدال في الحج لما يترتب عليه من قسوة القلب، والحج عبادة يجد فيها العبد قلبه، ويأنس بربِّه، فلا يليق أن يقطع طريقَ سيره إلى ربه جدلُه، قال ربنا: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة: ١٩٧]. فلا يكون نقاشنا سليمًا من الإثم إلا إذا خُلِّص من ذلك، فما لم يكن كذلك فدعه، فإنه لا خير فيه.

والإيمان باليوم الآخر من الإيمان بالغيب، والإيمان بما يغيب عنك يحتاج إلى بصيرة وتوفيق، وشأنه عظيم، ولذا مدح النبي ﷺ من جاء بعده وآمن به، وسماهم «إخوانه»؛ لإيمانهم به بعد أن غاب عن دنياهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة، فقال: **«السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون. وددت أنا قد رأينا إخواننا»**، قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: **«أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعدُ»**، فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعدُ من أمتك يا رسول الله؟ فقال: **«أرأيت لو أن رجلًا له خيل غُرٌّ محجلة بين ظهري خيل دُهمٍ بُهمٍ ألا**

(١) أبو داود (٤٨٠٠)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٣٩).
(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/١٨٥).

يعرف خيله؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «فإنهم يأتون غُرًّا مُحَجَّلينَ من الوضوء، وأنا فَرَطهم على الحوض. ألا لَيُذادَنَّ رجالٌ عن حوضي كما يُذادُ البعير الضال، أناديهم ألا هَلُمَّ! فيقال: إنهم قد بَدَّلوا بعدك؛ فأقول: سُحقًا سُحقًا»[1].

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾، «عن الضحاك: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾: الكفار، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾: المؤمنون، وكذلك كان يقرأها»[2].

وقال بعض العلماء: هذا تكرار غرضه التأكيد، فالجملة الثانية تؤكد الأولى من حيث المعنى، وهناك قول آخر قوي حاصله أنّ معناها: كلا سيعلمون في الدنيا، ثم كلا سيعلمون في يوم القيامة، فالعطف بـ «ثم» يدل على التراخي. فسيعلم في الدنيا أولًا قبل الآخرة هؤلاء المكذبون الذين يحاجون وينكرون البعث، وينكرون نبوة النبي ﷺ، وينكرون القرآن، ويقولون عنه: أساطير الأولين! سيعلمون عندما ينتصر النبي ﷺ ويُكتب له الظهور على أعدائه ـ كما حدث في بدر وفي فتح مكة ـ سيعلمون عندها أن أمرهم مبني على ضلال، وأنهم موغلون في طريق الباطل، ثم كلا سيعلمون في قبورهم إذا عُرضوا على النار غدوًّا وعشيًّا وامتلأت بها قبورهم، وكذلك إذا رأوها في الآخرة سيعلمون صدق ما جاءهم في القرآن، وما أُرسل به إليهم نبيهم ﷺ، ولكن لن ينتفعوا بهذا العلم، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝١٥٨﴾[الأنعام].

---

(١) مسلم، برقم (٣٩).
(٢) جامع البيان (١٥١/٢٤).

الآيات (٦ ـ ١٦)

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾

ذكَّر ربنا في هذه الآيات بكثير من نِعَمه التي يحمل التأمل فيها على الإيمان، وعدم التكذيب بالنبأ العظيم، لئلا يكون للمشركين عذر، فقد دعاهم ربهم إلى أن يتأملوا فيما بين أيديهم، وتقع عليه أبصارهم، وتدركه عقولهم؛ سماء، وأرض، وجبال، وليل، ونهار، وحَب ونبات، ألا تكفي هذه الآيات للإيقان بقدرة الله تعالى؟!

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ   تدلُّ على أنَّه واحدُ

إن الذي أخرج النبات من أرض ميتة، لا حراك فيها، فأنبت زرعًا وشجرًا مختلفًا من حبٍّ لا حياة فيه، قادرٌ على أن يخرج منها مَن أُودع فيها من الأموات.

ومن الآيات التي ذكرها: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨﴾، أي: أصنافًا. وابتداء الخلق دليل على القدرة على الإعادة.

ومن الأزواج: الذكر والأنثى، تجد كل واحد منهما من قبيلة مغايرة، فإذا تزوجا كان الوفاق والراحة والسكن، والله ﷻ قد جعل الحياة الزوجية سببًا لامتداد الحياة البشرية بالتناسل، وهذه آية عظيمة أعمى عنها إلفُ الناس واعتيادُهم! وإلّا فالذي جعل ماء مهينًا بشرًا تنبعث فيه الحياة، لا يعجزه أن يُعيد ما تفرق من أجزائه! فهذه من آيات الله

التي تدعو إلى الإيمان به، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

ومن هذه الآيات: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾. أي: «قطعًا للحركة»[1]، ترتفع فيه الروح ويبقى لها تعلُّقٌ بالجسد، ثم تعاد إذا شاء الله أن يُعيدها، قال ربنا: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢]، وهذه آية أخرى شاهدة على البعث، فهذا النوم له سلطان عجيب!

وبه يرتاح المرء من العناء والتعب، وتسكن به النفس، ويستجمع البدن قُواه بعده، ولهذا كان مما أيَّد الله تعالى به الصحابة في حروبهم، ليجددوا به نشاطهم، ويستعيدوا قوتهم، قال ربنا: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. فالخلود للنوم ولو يسيرًا يحصل به السكن والانقطاع عن مشاغل الدنيا، فيكون ذلك سببًا لتجدد النشاط. ولذا ندب النبيُّ ﷺ إلى القيلولة، فقال: «**قيلوا؛ فإن الشياطين لا تقيل**»[2]، والقيلولة تكون قبل الظهر وقد تكون بعده، وتعيين وقتها يرجع إلى عادات الناس، ومن قصد بها الاقتداء والتأسي، أو التقوي على الطاعة، حصل له أجر بذلك.

ومن الملاحظ في هذه الآيات أن الله تعالى يُعظِّم نفسه، فيجيء الخبر فيها عنه سبحانه بصيغة الجمع، وهو سبحانه أهل الثناء والمجد.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٣٠٢).
(٢) قال الألباني ﷺ: «أخرجه أبو نعيم في الطب (١٢/١ نسخة السفرجلاني)، وهو حسن» يُنظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٤/٢٠٢)، حديث رقم (١٦٤٧).

الآيات (١٧ ـ ٢٠)

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾

إنَّ يوم القيامة آتٍ لا محالة، وقد دل على ذلك الشرع والعقل، فإنه قد أحسن كثير من الناس في هذه الدنيا، فلا بد من أن يلقوا جزاء إحسانهم، ووقع فيها ظلم وعدوان، فلا بد من عقوبة الباغي.

ولماذا سمِّي بيوم الفصل؟ قال العلماء: إما لأن الله تعالى يفصل فيه بين الخلائق، وإما لأنه أمر لا مِرية فيه(١). وهذا المعنى جار في خطاب الناس اليوم، فإذا جاء أحد بخبر، ثم أكد الخبر من لا يكذب، أو بما لا يدع مجالًا للشك يقال: جاء بالقول الفصل.

وقد جعل ربنا ليوم الفصل وقتًا معينًا، ولكثير من العبادات في الإسلام أوقات معينة، وفي هذا إشارة إلى أهمية العناية بالوقت، فالصلاة قال الله فيها: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء]. أي: إن الصلاة تجب في أوقات معلومة في الشرع، فإذا أوقع أحدنا صلاته قبل الوقت لبطلت، ولو فعلها بعد الوقت على أكمل الوجوه أَثِمَ بتأخيره! وكذلك الركن الذي بعدها وهو الزكاة، جعل الله له وقتًا؛ فمن شروط أكثر ما تجب فيه الزكاة:

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٣٠/٢٩).

أن يحول الحول على المال الذي بلغ النصاب، وكذلك الحج إنما يكون في وقت معين، ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]. وأيضًا للصوم وقت معين، ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وقال نبينا ﷺ: «**إذا أذن بلال فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم**»[1].

فهذا كله يَحمِل على الاهتمام بالوقت؛ فإنه الحياة! وينبغي أن تذكرنا هذه الوقوت ذلك الميقات العظيم: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾!

ثم أخبر سبحانه أن الناس يأتون في الآخرة أفواجًا، أممًا وجماعات، وذلك بعد النفخ في الصور، وهو قرن عظيم ينفخ فيه إسرافيل ﷺ.

وأنبِّه هنا إلى مسألةٍ ذكرها أهل العلم ﷺ: وهي أن بعض المفسرين ﷺ يذكرون عن طول الصُّور، وشكله وهيئته، وكيف ينفخ فيه، يذكرون أمورًا لم تَرِد في كتاب أو سنة صحيحة. وهذا الذي سكت الله عنه ورسوله ﷺ مما لا يليق بنا أن نثير مسائله! فلا داعي للخوض فيه. ولو ترتَّب على العلم بها فائدة لما أُغفل ذكرُها في الوحيين.

فالصُّور قرن عظيم حقيقةً، ينفخ فيه، قال نبينا ﷺ: «**كَيفَ أَنعَمُ وَصاحِبُ القَرنِ قَدِ التَقَمَ القَرنَ، واستَمَعَ الإِذنَ، مَتَى يُؤمَرُ بِالنَّفخِ فَيَنفُخُ**». فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصحابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقالَ لَهُم: «**قُولُوا: حَسبُنا اللهُ وَنِعمَ الوَكِيلُ عَلَى اللهِ تَوَكَّلنا**»[2]، فهذا هو المهم أما كيفيته فنفوض علمها إلى الله تعالى.

---

(١) رواه النسائي (٦٣٩)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٣٦/١).
(٢) رواه الترمذي (٢٤٣١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٠٧٩).

الآيات (٢١ ـ ٣٠)

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾

بعد أن ذكر ربنا سبحانه يوم الفصل وحقَّق وقوعه، وبيَّن ما يدل عليه من الآيات الكونية، توعَّد المشركين، فقال: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾. فجهنم أيها المكذبون قد أُعِدَّت لكم، و﴿مِرْصَادًا﴾، أي: تترصَّدكم، وتنتظركم[1]. وهذا من أشد الوعيد والتهديد.

وإن في قول ربنا: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾ لزاجرًا، فالطغيان صفة أهلها، وصور الطغيان كثيرة؛ زوجٌ يطغى على زوجه، ووالدٌ على ولده، وجارٌ على جاره، وكلُّ طاغية مُتوعَّد بجهنم. و﴿مَـَٔابًا﴾: مرجعًا.

وهل يُقال: إن قول الله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ يدل على فناء النار؟ قال القرطبي ﷺ: «﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾، أي ماكِثِينَ فِي النَّارِ ما دامَتِ الأَحقابُ، وَهِيَ لا تَنقَطِعُ، فَكُلَّما مَضَى حُقُبٌ جاءَ حُقُبٌ. والحُقُبُ بِضَمَّتَينِ: الدَّهرُ والأَحقابُ الدُّهُورُ»[2]. فالنار باقية، وهذا هو القول الصحيح المستند إلى أدلة الكتاب والسنة، التي نصت على خلود من حق عليهم العذاب في النار.

---

(١) راجع: تفسير الطبري (١٥٨/٢٤).
(٢) تفسير القرطبي (١٧٧/١٩).

ثم بيَّن ربُّنا أنَّ أهلَ النار في النار لا يجدون فيها ما يُبرِد جلودهم أو قلوبهم، ولا شرابًا ينفعهم أو يُخفِّف عنهم، فقال: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾. والحميم: الذي بلغ درجة من الحرارة، لا شيء يمكن أن يكون بعدها من الحر، فبلغ في الحرارة منتهاها وغايتها، والغساق: صديد أهل النار ونَتَنُهم[1]. وهذا ما أكَّده الله في مواضع، قال ربنا: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد]، وقال: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف].

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾﴾، هذا وعيدٌ لهؤلاء الجاحدين، وتذكيرٌ بمحاسبة الله لهم في الآخرة، فكفرهم في كتابٍ ينشر في يوم القيامة، ثم يحاسبون على ما فيه.

وهذه الآية تذكر بأهمية الكتابة، وأطول آية في القرآن الكريم أمر فيها ربنا بكتابة الدين، وفي السنة أمر بكتابة الوصية؛ لئلا يُفرِّط في حق، أو يُضيِّع ما للغير، فعن عَبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**ما حَقُّ امرِئٍ مُسلِمٍ لَهُ شَيءٌ يُوصِي فِيهِ، يَبِيتُ لَيلَتَينِ، إلّا وَوَصِيَّتُهُ مَكتُوبَةٌ عِندَهُ**»[2]. فمن السنة أن تكتب الوصية، ولا يظُنَّنَّ أحدٌ أن الوصية لا يُراد بها سوى الأمور المالية؛ ما لك، وما عليك! يراد بها هذا وغيره، فيوصي بتحري السنة في تجهيزه وتشييعه ودفنه، وترك ما اعتاد الناس من البدع، ويوصي زوجه وولده من بعده بتقوى الله والثبات على دينه، ونحو ذلك مما يحتاجون إليه؛ إعمالًا لقول ربنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، وتأسِّيًا

---

(١) يُنظر: تفسير القرآ العظيم (٣٠٧/٨).
(٢) البخاري (٢٧٣٨)، ومسلم (١٦٢٧).

بنـي الله يعقـوب ﷺ الذي قـال الله عنـه: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة]. ولا ينـال العلـم إلا بالكتابـة، فـلا بُدَّ مـن تقييـد مسـائله؛ لتثبت.

العِلمُ صَيدٌ والكِتابةُ قَيــدُهُ قَيِّد صيودكَ بالحِبالِ الواثِقَه

فَمِنَ الحَماقَةِ أَن تَصيــدَ غَزالَةً وتفكَّها بَينَ الخَلائقِ طالِقـه

وقد أثبتت الدراسات أنَّ من تعلم شيئًا دون أن يحفظه، أو يعمل به، أو يقيده، فإنه ينسى منه ما يقارب السبعين إلى الثمانين بالمئة.

﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾، وهذه أشدُّ آية على أهل النار، فهم في مزيدٍ من العذاب أبدًا[١]. فإنك تجد في الدنيا من يكون في ضيق شديد، لكن مما يخفف عنه ألمه: أملُه في زوال ما به، فإذا انقطع الأمل استحكم الألم.

أعلِّلُ النفس بالآمال أرقبُها ما أضيقَ العيشَ لولا فسحةُ الأملِ!

أما أهل النار فلا يزيدهم الله سبحانه إلا عذابًا، فعذابهم لا ينقطع، ولا يقف عند درجة واحدة، بل يزداد عليهم كل يوم، فما أسوأ حالهم!

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٣٠٧).

الآيات (٣١ ـ ٤٠)

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾، والتقوى أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بأمرين: بفعل ما أمر، واجتناب ما نهى.

«وَقد قِيلَ: إِنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ ﷺ، سَأَلَ أُبَيَّ بنَ كَعبٍ عَنِ التَّقوى، فَقالَ لَهُ: أَما سَلَكتَ طَرِيقًا ذا شَوكٍ؟ قالَ: بَلَى قالَ: فما عَمِلتَ؟ قالَ: شَمَّرتُ واجتَهَدتُ، قالَ: فَذَلِكَ التَّقوَى.

وَقد أَخَذَ هَذا المَعنَى ابنُ المُعتَزِّ فَقالَ:

خَـلِّ الذُّنُـوب صَغِيرَهـا وكبيرهـا ذاكَ التُّـقَى
واصنَـع كَمـاشٍ فَـوقَ أَرضِ الشَّـوكِ يَحذَرُ مـا يَـرَى
لا تحقِـرنَّ صَغِـيرَةً إِنَّ الجِبـالَ مِنَ الحَصَـى

والمفاز هنا: المتنزه؛ بدليل ما بعدها: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾»[١].

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٣٠٨).

﴿عَطَاءً حِسَابًا ٣٦﴾، كافيًا كثيرًا، فما كان من الله فلا بُدَّ أن يكون كذلك؛ فإن الله واسع شكور، لا يتعاظمه ما أعطاه، وهو الكريم سبحانه.

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ٣٧﴾، لا يقدر أحد في ذلك اليوم العصيب أن يتكلم إلا بإذن ربه سبحانه.

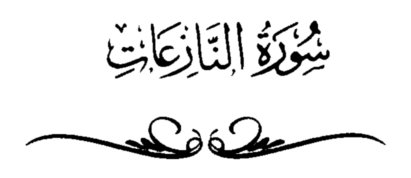
ويُكرِم الله أهل الجنة بألا يسمعوا فيها لغوًا، وهو الباطل، قال ربنا: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ٢٣﴾ [الطور]، وقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢]، وقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ٢٥﴾ [الواقعة].

وبيَّن الله تعالى في هذه السورة أن العذاب قريب؛ لأن كلَّ آتٍ قريبٌ، قال ربنا: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ١﴾ [القمر].

﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، وهذه كقول ربنا: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وَكَقَولِهِ: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣﴾ [القيامة].

وقيل: إن الكافر يتمنى أن يكون ترابًا إذا فُصِل بين الحيوانات وأُمرت بأن تكون ترابًا، فيتمنى أن يصير كذلك، وأنى له ذلك[1]؟

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٨/٣١١).



بين يدي سورة النازعات

هذه السورة مكية بلا خلاف[١]، وسياقها يؤكد ذلك؛ لأنها تتحدث عن البعث واليوم الآخر وهذا ما كان يُنكره الكفار من أهل مكة ونحوهم.

أسماؤها:

تسمى سورة «النازعات»، وتسمى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾، بإثبات الواو على حكاية أول ألفاظها، وسميت بـ «الساهرة»؛ لوقوع هذا الحرف فيها، وتُسمى بسورة «الطامة»؛ للعلة نفسها[٢].

قال ابن عاشور : «ورأيت في مصحف مكتوب بخط تونسي عُنوِنَ اسمها: «سورة فالمدبرات»، وهو غريب، لوقوع لفظ المدبرات فيها ولم يقع في غيرها»[٣].

وأشهر أسمائها: «النازعات»، وهو الذي درج عليه المفسرون، وهو الموجود في المصاحف.

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«وكَلِمُها مئة وتسع وَسَبعُونَ كلمة، وحروفها سبع مئة وَثَلاثَة وَخَمسُونَ حرفًا، وَهِي أَربَعُونَ وست آيات فِي الكُوفِي، وَخمس فِي عدد الباقِينَ، واختلافها آيتان: ﴿وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾،

---

(١) يُنظر: المحرر الوجيز (٥/٤٣٠).

(٢) يُنظر: التحرير والتنوير (٣٠/٥٩).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/٥٩).

لم يعدها البَصرِيُّ والشامي وعدها الباقُونَ، ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾، لم يعدها المدنيان والمكي وعدها الباقُونَ، وَلَيسَ فِيها مِمّا يشبه الفواصل شَيء»[١].

موضوعاتها:

هذه السورة تتحدث عن اليوم الآخر، وما يكونُ فيه من الأهوال، وشيءٌ من الأدلة العقليَّة على إثباته، وحال الناس فيه، وعن الطغيان، وعاقبته، وأحد أئمته، وما حل به من العقاب.

ولقوةِ ما تناولته كان البدءُ فيها بمقطع يهزُّ القلوب ويأسِر الأفئدة؛ ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤﴾.

ويتبينُ لنا من هذه السورة العظيمة أن الإنسان إذا أراد أن يتحدث عن موضوع فينبغي أن يقدِّمَ بمقدمة تناسبُه، فالحديث عن اليوم الآخر يختلف عن الحديث عن الدنيا وزينتها، والحديث عن الكفار يختلف عن الحديث عن حال أهل الإيمان بالله ورسوله، وهذا منهج مُطَّرِد في القرآن، فالداعية، وطالب العلم، والمعلِّم، والمربي، يجب أن يتناسق كلامهم من أوله إلى آخره.

مقصدها:

إثبات اليوم الآخر بذكر أدلته، والتذكير بحال من يكذِّب به.

---

(١) البيان في عدِّ آي القرآن، ص (٢٦٣).

سورة النازعات: تأملات، ووقفات

الآيات (١ ـ ٥)

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴿٥﴾

افتتحت السورة المباركة بهذه الأقسام العظيمة: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴿١﴾﴾، وهي الملائكة تنزع أرواح الكافرين، وهي تُغرق في نزع أرواحهم من جميع أطراف أبدانهم؛ لأن الروح متفرقة في البدن، وعند الموت تزداد تفرقًا، وتزداد روح الكافر بجسده تعلقًا، فتأتي الملائكة وتنزعها نزعًا شديدًا، فكل عضو من أعضاء الكافر يتعذب بنزع الروح منه؛ قلبه، وبدنه، وقدمه، ورأسه، كما في حديث البراء بن عازب ﷺ في الحديث عن فتنة القبر ونعيمه وعذابه، قال نبينا ﷺ: «**وَإِنَّ العَبدَ الكافِرَ إذا كانَ فِي انقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا وَإِقبالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيهِ مِنَ السَّماءِ مَلائِكَةٌ سُودُ الوُجُوهِ، مَعَهُمُ المُسُوحُ، فَيَجلِسُونَ مِنهُ مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوتِ، حَتَّى يَجلِسَ عِندَ رَأسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُها النَّفسُ الخَبِيثَةُ، اخرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ، فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنتَزِعُها كَما يُنتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ المَبلُولِ، فَيَأخُذُها، فَإِذا أَخَذَها لَم يَدَعُوها فِي يَدِهِ طَرفَةَ عين**»[١].

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند برقم (١٨٥٣٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٦٧٦).

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢﴾، هذه الملائكة التي تنشط في قبض أرواح المؤمنين برفق، وانظروا الفرق بين ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١﴾، وبين ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢﴾، أما الكفار فتنزع أرواحهم نزعًا شديدًا، بينما أرواح المؤمنين تقبضها بيسر وسرعة، وما أكثر المقارنات التي عُقدت بين الطائفتين؛ ترغيبًا في سلوك سبيل الإيمان، وترهيبًا من غيره! وقد أكد النبي ﷺ هذا المعنى بقوله في حديث البراء السابق: «**فَتَخرُجُ (أي: روح المؤمن) تَسِيلُ كَما تَسِيلُ القَطرَةُ مِن فِي السِّقاءِ**».

وقد حدثنا أناسٌ ممن حضروا وفاة بعض المؤمنين من آبائهم أو إخوانهم أو غير أولئك، يقولون: إن أرواحهم خرجت بكل يسر وسهولة، وإذا ماتوا كانوا كالنيام، فروح المؤمن تخرج كما تُسَلُّ الشعرة من العجين برفق، وهذه أمارة على حسن الخاتمة، جعلنا الله من أهلها.

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣﴾؛ أي تسبح بين السماء والأرض، وقيل: تسبح حاملة الأرواح، فأرواح الكفار تُرَدُّ إلى أسفل سافلين، وأرواح المؤمنين يُصعَد بها إلى السماء في جنات النعيم، كما في حديث البراء الذي سبق ذكره. وقد قيل بغير ذلك في تأويلها، فقيل في معنى السابحات: السفن، والنجوم، والموت، والخيل[1].

ومما يدل على أنها الملائكة: أن ما ذكر في الأقسام كلِّها يصدق عليها، فلا يكون هذا خارجًا عن نسقها.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤﴾، هي الملائكة السابقة إلى تنفيذ أمر الله، فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهذا ما ينبغي أن نتحلَّى به؛ فإن الله تعالى مدح الملائكة بذلك، وهم عباد مكرمون، فدل على أن المسارعة في إجابة

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٣١٢/٨).

الأمـر صفة مدح يحبهـا الله من عباده، قـال ربنا: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران] وقـال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١] وقـال: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٤٨] وقـال: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٤٨] وقـال الله تعـالى على لسـان الكليـم ﷺ: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه].

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾، الملائكـة الـتي تسـعى في تدبـير أوامـر الله في الخلـق، فملـكٌ مُكلَّـفٌ بالمطـر، وآخـرُ مُكلَّـفٌ بالجبـال، وثالـثٌ مُكلَّـفٌ بـالأرزاق، ورابـعٌ بالـوحي، وخامـسٌ بقبـض الأرواح، إلى غـير أولئـك ممـن لا يعلـم عددهـم إلا الله سـبحانه.

الآيات (٦ ـ ١٤)

يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾



﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾﴾، قيل: إن هذه الآية تضمَّنت جوابَ القسم، أي: إن وعد الله حق، والقيامة يوم يقع هذا الذي تنخلع به القلوب، فاشتمل جواب القسم على تحذير شديد لهم[1]. وهذه الصيحة الأولى.

﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾، أي: الصيحة الثانية، فهما صيحتان أو نفختان.

وقد ثبت عن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ ﷺ، قالَ: كانَ رَسُولُ الله ﷺ إذا ذَهَبَ ثُلُثا اللَّيلِ قامَ فَقالَ: «**يا أَيُّها النّاسُ، اذكُروا اللهَ، اذكُروا اللهَ، جاءَتِ الرّاجِفَةُ، تَتبَعُها الرّادِفَةُ، جاءَ المَوتُ بِما فِيهِ، جاءَ المَوتُ بِما فِيهِ**»[2].

ولأن الحديث في السورة عن اليوم الآخر بدأ ربنا بذكر الملائكة التي تنزع أرواح الكافرين والمؤمنين، فقال: ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾﴾، فهذه أول مراحلها.

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾، المراد بهذه الآية: الكفار، فقلوبهم

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٣٠/٦٦).
(٢) رواه الترمذي برقم (٢٤٥٧)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب برقم (١٦٧٠).

واجفة: مضطربة غير مطمئنة، وتأمَّل: ما قال ربنا بعد ذلك: أبصارهم خاشعة! بل: ﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾، فأسند الأبصار إلى القلوب؛ لأن ما يحدث في القلوب يظهر للأعين.

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾﴾، أي: يقول أصحاب هذه القلوب الذين أنكروا البعثَ في الدنيا: أنرجعُ إلى الحياة بعد أن نموتَ ونُدفَنَ تحت التراب؟ يقولون ذلك تكذيبًا.

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾، قالوا كل هذا استهزاءً وسخرية بما جاء به النبي ﷺ من تأكيد البعث.

ثم أخبر ربنا تعالى أن هذا الأمر الذي استبعدوه ونَفَوه يسير عليه، فقال: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ أي: هذا الذي تستبعدونه وتقولون: لا يمكن أن يكون أمرًا سهلًا، يسيرٌ على الله ﷻ، ليس أكثر من زجرة واحدة تُعيد جميع الخلائق من قبورهم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل]، ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ [النحل].

والساهرة: الأرض، وسُميت الأرض بالساهرة لأن فيها نوم الحيوان وسهره[1].

وهذه الآيات تتحدث عن اليوم الآخر، وتقرر وقوعه وبعض ما فيه، والإيمان به من أركان العقيدة، فلا بُدَّ من اهتمام الدعاة وطلاب العلم بهذا. فإن قيل: إن المؤمنين لا يحتاجون إلى التذكير بهذا، فهم يؤمنون بالله ﷻ، ويؤمنون باليوم الآخر. فالجواب: المؤمن يذكر باليوم الآخر؛ ليزداد إيمانه، وليكف نفسه عن معصية الله، وينشط في الطاعة، وتزداد قناعته بما رزقه الله، ولئلا يتعلق قلبه بالدنيا، فخطاب الله تعالى الناس بهذه الآيات غير مختص بالكافر.

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/١٩٦).

الآيات (١٥ ـ ٢٦)

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

اشتملت هذه السورة المباركة على قصة، وما أعظم تأثير القصص في نفوس سامعيها! وأعظم القصص قصص القرآن الكريم، ولعظم أمرها كثُرت فيه، وسورة يوسف كلها في شأن نبي كريم، حفظت قصته للأجيال، والغرض هنا التنبيه على أهمية القصص فعلينا العناية بهذا الأسلوب، فلولا أن له تأثيرًا كبيرًا لما كثرت القصة في كتاب ربنا، وأبلغ القصص تأثيرًا قصص القرآن والسنة، وسيرة من تربَّوا عليهما، فعلى المربين الاهتمام بهذا بدلًا من القصص الكاذبة التي لا علاقة لها بالواقع، وقد تضر أكثر مما تنفع، ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المرسلات].

وقد استُهِلَّ الشروعُ في خبر موسى هنا بسؤال النبي ﷺ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾؛ وغرضه التشويق والتحقيق، وخبر موسى ﵇ من أكثر قصص الأنبياء ذكرًا في القرآن، وقد ذكر العلماء لذلك أسبابًا، من أبرزها:

● أنَّ فيها تسلية للنبي ﷺ، فقد ابتلي الكليم ﷺ ابتلاء عظيمًا ببني إسرائيل، ولذلك ثبت في الصحيح، قولُ نبينا ﷺ: «رَحْمَةُ اللهِ عَلَى مُوسَى، لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»(١). وقد يكون سبب ذلك أن موسى ﷺ أوذي من أتباعه! أما نبينا ﷺ فأتباعه أشد الناس إعظامًا له، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح].

● ومن حكم هذا التكرار ما قال ابن تيمية ﷺ: «وثنَّى قصة موسى ﷺ مع فرعون؛ لأنهما في طرفي نقيض في الحق والباطل، فإن فرعون في غاية الكفر والباطل حيث كفر بالربوبية وبالرسالة، وموسى ﷺ في غاية الحق والإيمان من جهة أن الله كلمه تكليمًا لم يجعل الله بينه وبينه واسطة من خلقه، فهو مثبت لكمال الرسالة وكمال التكلم، ومثبت لرب العالمين بما استحقه من النعوت، وهذا بخلاف أكثر الأنبياء مع الكفار، فإن الكفار أكثرهم لا يجحدون وجود الله، ولم يكن أيضًا للرسل من التكليم ما لموسى، فصارت قصة موسى ﷺ وفرعون أعظم القصص وأعظمها اعتبارًا لأهل الإيمان ولأهل الكفر»(٢).

فقول ربنا: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥﴾، فيه تسلية لنبينا ﷺ.

وفي هذا رسالة للداعية أنه قد يُؤذَى من بعض المدعوين، بل من بعض المؤمنين، بسبب تُهَمٍ، أو أخطاء، أو استعجال، وله في الكليمين أُسوة؛ موسى ونبينا صلى الله عليهما وسلم.

● ومن الحكم أيضًا: أنَّ هناك شَبَهًا بين طغيان كفار قريش وبين طغيان فرعون، ففي كفار قريش من سماه النبي ﷺ «فرعون هذه الأُمَّة»؛ لشدة طغيانه وعتوه، فقد قال في أبي جهل: «هَذا كَانَ فِرعَونَ هَذِهِ الأُمَّةِ»(٣).

---

(١) البخاري (٤٣٣٥).
(٢) مجموع الفتاوى (١٢/٩).
(٣) أحمد (٤٢٤٦).

وهناك شَبَهٌ بين أتباع الكليمين في الكثرة، فقوم موسى ﷺ كانوا قلة ثم كثر عددهم بعد هلاك طاغيتهم. يدل على ذلك آية وحديث، أما الآية فقول ربنا: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [يونس]، فلما مات الطاغية كثُر عددهم، ويدل عليه قول نبينا ﷺ: «**عُرِضَت عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ والنَّبِيّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهطُ، والنَّبِيُّ لَيسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى رُفِعَ لِي سَوادٌ عَظِيمٌ، قُلتُ**: ما هَذا؟ **أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ**: **بَل هَذا مُوسَى وَقَومُهُ**»(١). وهكذا الحال بعد بعثة النبي ﷺ.

وما هو حديث موسى؟ حديث موسى ﷺ يبدأ منذ أن وضعته أمه رضيعًا، وتربى في بيت فرعون، وحدث له ما حدث بعد ذلك.

وإن من أعجب حديثه: أنه تربى في بيت من كان يقتل الأولاد لئلا يكون موسى، فنشأ موسى ﷺ في بيته! ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان]، وهذا خبر قد طُوي في هذا الموضع وبُسط في أخرى، إذ الغرض ههنا بيان طغيان فرعون وتَكَبُّره، ثم تكذيبه وتولِّيه، وبيان عاقبته ليعتبروا بها! فقال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾، وفي سورة طه: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾، فهل هناك فرق؟ لا، فقد أمر الله الكليم بذلك أولًا، ثم لما سأل ربَّه أن يجعل أخاه هارون وزيرًا معه توجه الأمر إليهما. وهذا ما تبينه سورة طه، قال ربنا: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى

---

(١) البخاري (٥٧٠٥).

وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [طه].

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾، الطغيان: تجاوز الحد، قال ابن القيم ﷺ: «الِاسْتِقَامَةَ ضِدُّ الطُّغْيانِ، وَهُوَ مُجاوَزَةُ الحُدُودِ فِي كُلِّ شَيْءٍ»[١].

والسلامة من الطغيان عزيزة، قال ربنا: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق]، يطغى الإنسان أحيانًا على من حوله، وعلى من تحت يده، يطغى على الخادم، ولربما طغى على أهل بلد آخر، ورأى أنه أفضل منهم، أو على قبيلة أخرى، ومن صوره: طغيان الوالد على ولده، والزوج على امرأته، والمرأة على أختها، والطغيان يحتاج دفعه وعلاجه إلى مجاهدة، ولذلك عندما نقرأ هذه الآيات لا ينبغي أن نتصور أنه لا سبيل لتسلط طغيان مَن ذُكِر فيها علينا، فالمسألة تحتاج إلى مجاهدة، والمعصوم من أراد الله به خيرًا. ومما جاء في التحذير منه: قول نبينا ﷺ فيما يرويه عنه ربه: «العِزُّ إزارُي، والكِبرِياءُ رِدائي، فَمَن يُنازِعُني عَذَّبتُه»[٢]. ومن أنواع الطغيان: الحسد، وقد قيل فيه: «ما خلا جَسَد من حسد، لَكِن اللَّئيم يبديه، والكريم يخفيه»[٣]. يقول أحد طلبة العلم: لما بلغتني هذه الكلمة عن ابن تيمية بدأت أراجع نفسي، فلمست صدقها، فحمدت الله على أني لا أُبديه، وسلكت سبيلًا ناجعًا للخلاص منه، وهو: أنني أدعو لمن أخشى أني أحسده بصدق وإخلاص بأن يبارك الله له فيما أعطاه، وأن يزيده، فإن كان في العلم سألتُ الله أن يجعله للمتقين إمامًا، وأن يجعله من مجددي هذا الدين، وإن كان في المال أدعو الله أن يبارك له في رزقه. فالشيطان إذا رأى أنك تدعو بصدق لمن وسوس إليك لتحسده فلن يدخل إليك من هذا الباب بعد ذلك؛ لأن عداوته تقتضي ألا يعينك على خير!

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/١٠٤).
(٢) صحيح مسلم، برقم (١٣٦).
(٣) أمراض القلوب وشفاؤها، لابن تيمية، ص (٢١).

ومن أعظم صور الطغيان: طغيان الحاكم، وطغيان الموسر الغنيّ. وتأمل ما قاله الله في فرعوني العالم؛ ففي فرعون موسى ورد قول الله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧﴾، وفي فرعون هذه الأُمَّة؛ أبي جهل، نزلت الآية: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ٦﴾ [العلق](1).

ودلت الآية على أن كثرة المال من أسباب الطغيان.

ومن تأمل في هذه الآية: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧﴾، علم ما للدعاة إلى الله من المكانة العالية، والرتبة السامية، فأي شرف أعظم من أن يستعملهم الله تعالى فيما استعمل فيه أنبياءه؟! لكنَّ هذا الشرف لا يُنال إلا إذا كانت الدعوة إلى الله، أما من دعا إلى نفسه، أو إلى شيخه، أو إلى جماعته، أو حزبه، فلا يصدق فيه أنه دعا إلى الله تعالى!

ومن فقه الدعوة الذي أرست قواعده هذه الآية: أن يذهب الداعية إلى المدعو في مكانه. وفي سورة طه قال ربنا لموسى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ٤٢ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ٤٤﴾ [طه].

وفي علم الله أن فرعون لن يتذكر ولن يخشى، ولكن يتعين علينا أن نبلغ دين الله معذرة إليه، قال عزَّ اسمه: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٦٤﴾ [الأعراف].

والآية تدعو كل داعية إلى أن يتحلى بالأخلاق الحسنة، فهذا فرعون الذي قال: أنا ربكم الأعلى، يُؤمر الكليم أن يلين معه في الخطاب، فكيف بغيره! إنك لتعجب من بعض الدعاة إذا ردّ على بعض إخوانه في مسألة يسوغ الخلاف فيها تحدث عنه بأسلوب مشبَّع بالشِّدَّة والغلظة! وقال فيه ما لم يقله مالك في الخمر كما يُقال! وإلى الله المشتكى.

---

(1) يُنظر: تفسير القرآن العظيم (٨/٤٣٩).

واللين في الدعوة هدي نبينا ﷺ، فقد ثبت أن عُتبَةَ بنَ رَبِيعَةَ ـ وَكانَ سَيِّدًا حَلِيمًا ـ قالَ ذاتَ يومٍ وَهُوَ جالِسٌ فِي نادِي قُرَيشٍ، وَرَسُولُ الله ﷺ جالِسٌ وَحدَهُ فِي المَسجِدِ: يا مَعشَرَ قُرَيشٍ أَلا أَقُومُ إِلَى هَذا فَأُكَلِّمُهُ، فَأَعرِضُ عَلَيهِ أُمورًا لَعَلَّهُ أَن يَقبَلَ مِنها بَعضَها وَيَكُفَّ عَنّا؟ قالُوا: بَلَى يا أَبا الوَلِيدِ. فَقامَ عُتبَةُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فعَرَضَ عَلَيهِ مِنَ المالِ والمُلكِ وَغَيرِ ذَلِكَ، فَلَمّا فَرَغَ عُتبَةُ قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَفَرَغتَ يا أَبا الوَلِيدِ؟**»، قالَ: نَعَم. قالَ: «**فاسمَع مِنِّي**». قالَ: أَفعَلُ. فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿حمٓ ١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣﴾، فَمَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقرَؤُها عَلَيهِ، فَلَمّا سَمِعَها عُتبَةُ أَنصَتَ لَها وَأَلقَى بِيَدَيهِ خَلفَ ظَهرِهِ مُعتَمِدًا عَلَيهِما يَسمَعُ مِنهُ، حَتَّى انتَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى السَّجدَةِ فَسَجَدَ فِيها ثُمَّ قالَ: «**سَمِعتَ يا أَبا الوَلِيدِ؟**»، قالَ: سَمِعتُ. قالَ: «**فَأَنتَ وَذاكَ**». فَقامَ عُتبَةُ إِلَى أَصحابِهِ، فَقالَ بَعضُهُم لِبَعضٍ: نَحلِفُ بِاللهِ لَقَد جاءَكُم أَبُو الوَلِيدِ بِغَيرِ الوَجهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ! فَلَمّا جَلَسَ إِلَيهِم قالُوا: ما وَراءَكَ يا أَبا الوَلِيدِ؟ قالَ: وَرائِي أَنِّي واللهِ لَقَد سَمِعتُ قَولًا ما سَمِعتُ مِثلَهُ قَطُّ، واللهِ ما هُوَ بِالشِّعرِ، وَلا السِّحرِ، وَلا الكَهانَةِ، يا مَعشَرَ قُرَيشٍ أَطِيعُونِي واجعلُوها بِي، خَلُّوا بَينَ هَذا الرَّجُلِ وَبَينَ ما هُوَ فِيهِ، فواللهِ لَيَكُونَنَّ لِقَولِهِ الَّذِي سَمِعتُ نَبَأٌ[1]. فبدأ معه النبي ﷺ بالملاطفة، ولم يقاطعه، واستمع منه إلى كافة عروض الرشوة لترك دين الحق! ثم ألان له النداء فكنّاه، ثم شرع في موعظته بأبلغ المواعظ ألا وهي موعظة القرآن.

قال معلَّى بن أيوب ﵀: «بينما هارون الرشيد يطوف بالبيت؛ إذ عَرَض له رجل، فقال: يا أمير المؤمنين! إني أريد أن أكلمك بكلام فيه غلظة؛ فاحتمله لي. فقال: لا، ولا نعمةَ عين ولا كرامة، قد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني، فأمره أن يقول له قولًا ليّنًا»[2].

---

(١) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، ص(٢٦٧).
(٢) المجالسة وجواهر العلم (٣/٣٦٤).

ومن هدايات الآيات: أن الله تعالى أعطى موسى وأخاه ﷺ منهجين في الدعوة: الوعظ، وإقامة الحُجَّة. قال ربنا: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾، فبدأ بالموعظة؛ لما لها من تأثير كبير، ثم أقام الحُجَّة عليه بالآية الكبرى، وهذا مما يمكّن الموعظة من قلب المدعو، فابدأ مع من تدعوه بعلاج القلب، ثم أقم الحُجج عليه.

وبعض الناس قد تكون لديه قدرة على الوعظ، لكن ليست عنده قدرة على إقامة الحُجَّة، والعكس صحيح، فقد يوجد قوي الحُجَّة، لكن ليس عنده قدرة على الوعظ، والصنفان يضران كثيرًا، فإنك تجد بعض طلاب العلم ممن لم تثبت في طريقه قدمه، يُناظِر أصحاب الهوى والبدع، فتُطرَح عليه شبهات لا يتمكن من الرد عليها، فيكون بذلك سببًا في ظهور الباطل، والتلبيس على الجهلاء! وفي المقابل فإن بعض أصحاب الحق عنده من القسوة والغلظة ما يجعل الناس ينفضُّون من حوله!

فهل معنى ما سبق أننا لا نقسو على صاحب الباطل مطلقًا؟ لأنني لاحظت أن كثيرًا من الدعاة وطلاب العلم يحتجون بهذه الآية وبآية طه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه]، وينادون إلى استخدام اللين مع المدعوين مطلقًا! وأقول: لا تأخذوا بعض القرآن وتتركوا بعضه! فإن موسى ﷺ أغلظ لفرعون لما تمادى في غيه، واتبع هواه، ولم يرفع رأسًا بحُجَج الله التي رآها، قال ربنا سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء]. أي: هالكًا، ملعونًا، مغلوبًا[1].

﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾؟ ذكر العلماء تحتها أهمية العناية بالقادة والكبار؛ لأنه إذا أسلم القائد أثّر ذلك في إسلام قومه.

---

(١) يُراجع: تفسير القرآن العظيم (١٢٦/٥).

أخبرني أحد الإخوة في مكاتب دعوة الجاليات أنه إذا أسلم الأب غالبًا تسلم زوجته وولده، كذلك إذا أسلم رئيس دولة أسلم من تحته. قال: ذهبنا إلى المالديف، وكانت الزيارة دعوية علمية، فوجدنا عجبًا؛ ينص دستور المالديف على أن دين الدولة الإسلام، وعلى التقيُّد بمنهج أهل السنة والجماعة، ووجدنا فيها عجائب ذكرتها وكتبت عنها مقالًا، ومما يثلج الصدر: أنه لا يوجد فيها أي دين آخر، ويقام الحد على المرتد، وتغلق الحوانيت للصلاة بدون أن يُراقبهم في ذلك أحد، ولديهم اهتمام كبير بحفظ القرآن، ومما يؤخذ عليهم أن جزرهم السياحية تُرتكَب فيها الموبقات، وقد كلَّمنا المسؤولين عن ذلك. ولما سألتهم عن سبب انتشار الإسلام فيها قالوا: كان آباؤنا وثنيين، حتى جاء إليهم رجل من المغرب، اسمه يوسف المغربي، فعاش في المالديف، فذهب ودعا الملك، وقصة دعوته طويلة، فأسلم الملك، وأصدر أمرًا إلى أهل المالديف أن يُسلموا فأسلموا جميعًا عن بكرة أبيهم، فهذه فائدة الاهتمام بالقادة والزعماء في الدعوة، ولهذا قال نبينا ﷺ: «**لَو آمَنَ بِي عَشَرَةٌ مِنَ اليَهُودِ، لآمَنَ بِي اليَهُودُ**»[1]. لكن لا ينبغي أن يكون ذلك هضمًا من حق الفقراء والضعفاء، كما سيأتي معنا بمشيئة الله تعالى في تأملات سورة عبس.

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾. تكذيب فرعون كان سريعًا مباشرًا، ولذا قال ربنا: ﴿فَكَذَّبَ﴾، ودلالة الفاء على التعقيب بلا مهلة معروفة.

وحشر فرعون قومه، ليكون نكيرهم أدعى في انهزام داعية الهدى، وهذا يقودني إلى الحديث عن فقه التعامل مع الجماهير، فالجماهير سلاح ذو حدين، إما أن يكون لك، أو يكون عليك. فالجماعة من الناس قد تدفع الداعية إلى تغيير موقفه،

(١) البخاري (٣٩٤١).

وقد تكون عونًا له على الثبات على دين الله وما يرضيه عنه. ومن جميل ما قاله الشيخ جعفر شيخ إدريس عافاه الله: «أنتم لا ترضون لي أن أكون بوقًا للسلطان، وأنا لا أرضى أن أكون بوقًا للجماهير»، وهذه الكلمة نقلتها للعلامة ابن عثيمين ﷺ في مكة عام ١٤١٢هـ فاستحسنها. ومما كان يكرره العلامة ابن عثيمين ﷺ قوله: «العلماء ثلاثة: عالم دولة، وعالم أُمَّة، وعالم مِلَّة». فعالم الدولة يرى ما يراه حاكمُه، وعالم الأُمَّة يفتي بما يطلبه الجمهور، وعالم المِلَّة به يُحفَظ الإسلام. والمقصود أن فرعون استخف قومه فأطاعوه، فهل نفعه ذلك؟!

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾، فيها دليل على أن القرآن نزل للاعتبار بما فيه من الأخبار، والنص على هذا كثير، قال الله ﷻ: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران]، وقال في اليهود: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢]، وفي ختام قصة يوسف ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف]، ولذا لا بُدَّ من إمعان النظر فيما يستفاد من القصص من الدروس والعظات.

وفي هذه الآية: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ قدّم الآخرة؛ لأنها أشد عذابًا، ومن صور عذابهم فيهما: الغرق، وعرض أرواحهم على النار في برزخهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر]، وفوق ذلك عذاب يوم الدين، قال ربنا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود].

وقول ربنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ دليل على أن مما ينجي من هذا المآل: خشية الله، فمن بلغ هذه الرتبة فقد أمسك بالخير من ناصيته. ذُكر معروف الكرخي عند الإمام أحمد فقيل: قصير العلم. فقال: «أَمسِك! وهل يُراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف»؟[1]. وكان إمامًا من أهل الخشية، والعلماء هم أهل خشية الله، قال ربنا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر]. ولذلك يُراقبون الله في كل ما يصدر عنهم، ولا يتساهلون بتتبُّع الرُّخَص.

ومن دروس هذه القصة: إهلاك الله للطغاة، وكم من طاغيةٍ أهلكه الله، وأخذه أخذ عزيز مقتدر! قال ربنا: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود]. وقد روى أبو مُوسَى ﷺ، أن رَسُول اللهِ ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذا أَخَذَهُ لَم يُفلِتهُ**» قالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود][2]. فهذه نهاية كل طاغية، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/٨٦).
(٢) البخاري (٤٦٨٦).

الآيات (٢٧ ـ ٤١)

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

في هذه الآيات تقرير للبعث بلفت الأنظار إلى ما في الكون من الآيات الدالة على قدرة الله على الخلق بدءً وإعادة، قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾، ويحسن بالقارئ أن يقف عند كلمة ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾، ليكون المعنى تامًا، فالمراد: «﴿ءَأَنتُمْ﴾ أيها البشر ﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ ذات الجِرم العظيم، والخلق القوي، والارتفاع الباهر ﴿بَنَىٰهَا﴾ الله»[1]. وهذا خطاب لكل جاحد للبعث، قال ربنا: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر].

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ السَّمك هو السقف[2]، وفي ذلك دليل على أن السماوات مبنية، وأن لها سقفًا، والله أعلم بكيفية ذلك.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص(٩٠٩).
(٢) المصدر السابق.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾، وقد كان خلق الأرض سابقًا لخلق السماء، قال ربنا: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾ [فصلت]. قال ابن كثير رحمه الله: «فَفِي هَذا دَلالَةٌ عَلَى أَنَّهُ تعالى ابتَدَأَ بِخَلقِ الأَرضِ أَوَّلًا ثُمَّ خَلَقَ السَّماواتِ سَبعًا، وَهَذا شَأنُ البِناءِ أَن يَبدَأَ بِعِمارَةِ أَسافِلِهِ ثُمَّ أَعالِيهِ بَعدَ ذَلِكَ»[1]. فإن قيل: لكن يفهم من هذه الآية: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾ أن خلق الأرض وقع بعد خلق السماء؟ فالجواب: أنها خلقت قبل السماء، ولكنها دحيت بعدها، ففي صحيح البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «خَلَقَ الأَرضَ فِي يَومَينِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّماءَ، ثُمَّ استَوَى إِلَى السَّماءِ فَسَوّاهُنَّ فِي يَومَينِ آخَرَينِ، ثُمَّ دَحا الأَرضَ، وَدَحوُها: أَن أَخرَجَ مِنها الماءَ والمَرعَى»[2].

﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ٣١﴾، وهذا دحوها.

و«ذكرُ المرعى يدل على لطف الله بالعجماوات، فيعرف منه أن اللطف بالإنسان أحرى، بدلالة فحوى الخطاب، والقرينة على الاكتفاء قوله بعده متاعًا لكم ولأنعامكم»[3]. والمرعى كل ما تخرجه الأرض للإنسان والعجماوات، ولهذا قال: ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٣﴾، والواجب أن نعتبر ونتعظ، إذا أنعم الله عليك بلقمة فسل نفسك: من أين جاءت؟ كم من محروم من هذا الذي ساقه الله إليك لا يجده؟! وكم ممن وجده وليست له عافية

(١) تفسير القرآن العظيم (٢١٣/١).
(٢) البخاري (١٢٨/٦).
(٣) التحرير والتنوير (٨٧/٣٠).

تمكنه من أكله أو التلذُّذ به؟! وهناك من يجد معاناة من التخلص منه بعد أكله، فلذته به مُنَغَّص عليه فيها، وهذه الحبة التي نرمي بها في باطن الأرض كيف صارت شجرة؟! ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الواقعة]. فهذا كله ينبغي التفكُّر فيه، لكن المألوف يقل فيه الاعتبار، ثبت في الصحيحين[1] عن ابن عباس ﷺ أنه قال: بتُّ عند النبي ﷺ ذات ليلة، فقام من آخر الليل، فخرج فنظر في السماء، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]. فالتفكُّر في مثل هذا المألوف إلينا قليل.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾، أي: «قَرَّرها، وَأَثبَتَها، وأكَّدها فِي أَماكِنِها»[2]، وهي آية كذلك دالة على قدرة عظيمة، وأثرها في النفوس جراء مشاهدتها عظيم.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾، والطامة الداهية والأمر العظيم الذي لا يُستطاع، ومن وقف على بعض ما في اليوم الآخر من المشاهد والمواقف التي وردت في الوحيين علم مناسبة هذا الاسم لمسماه. وللقيامة كثير من الأسماء، لكن جيء بهذا الاسم هنا لأن السورة تناولت أطغى طاغية، فلا ريب أن يوم الفصل موعده، وسيجد فيه هذا الطاغية وغيره عذابًا عظيمًا، وهذا من معاني هذا الاسم، يقال: طم الفرس إذا استفرغ وسعه في الجري[3].

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾، وفي موضع آخر قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [الفجر].

---

(١) البخاري (١٨٣)، ومسلم (٢٥٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣١٦/٨).
(٣) ينظر: تفسير القرطبي (٢٠٦/١٩).

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾، أي: «أُظهِرَت لِلنّاظِرِينَ، فَرَآها النّاسُ عِيانًا»[1].

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾، ذكر أكبر الطغاة في هذه السورة، وما يلقى من النكال والعذاب، ثم قرنه بذكر من سلك سبيله من إخوانه، فقال: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾، فلا بُدّ من التنبُّه إلى هذا، وتفتيش النفس أن تضلَّ بسبب شيء من الطغيان فيها.

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾، دلت على أن في معرفة الله تعالى والخوف منه مزدجرًا عن الطغيان وإيثار العاجلة، فمن حقق ذلك المقام لم يفعل إلا ما يَرضى به عنه ربه.

﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾، إذا سئل بعض المُنكبِّين على معصية الله ومخالفة أمره: لماذا تقع في أوحال هذه الخطيئات؟! لقال: أنا حُرٌّ! وما علم أنه أسيرٌ لهواه والشيطان، فالإنسان خلق ليكون عبدًا، فمن الناس من يكون عبدًا لله، ومنهم من يكون عبدًا للشيطان وهواه! وربنا قال: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [يس]، فهذان خياران لا ثالث لهما، فالحرية الحقيقة في تحقيق العبودية لله رب العالمين.

(١) تفسير ابن كثير (٣١٧/٨).

الآيات (٤٢ ـ ٤٦)

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾



بعد أن قرر ما سبق من دلائل قدرة الله على البعث، ومآل الطغاة يوم الجزاء، عرض سؤالًا يطرحه المكذبون بالبعث، وقد يصدر عن المؤمن تحسبًا أو استعجالًا للخير على غير وجه سؤال المُكذِّبين، فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾، متى إقامتها وثبوتها؟ وهذا السؤال مما استأثر الله تعالى بعلمه، ولم يخبر به عباده وذلك لحكمة، إذ لو كانت الحكمة وكان الصلاح في إخبارهم لأخبرهم! ومنه يعلم أنه لا يتعيَّن على المرء الإجابة عن كل سؤال، فإذا ترتبت على الإجابة مفسدة فالواجب السكوت عنها، كما لو كان الحديث لبعض الناس فتنة، ولذا قال ابن مسعود ﷺ: «ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة»[1]. فلا يجب على العالم أن يُخبر بما يخشى أو يقطع بأنه سيكون فتنةً للسائل، وفي صحيح مسلم: «باب النهي عن الحديث بكل ما سمع»[2]. ومما ينبغي الكف عن الإجابة عنه: الأسئلة الافتراضية التي لا يراد من طرحها إلا الجدال الذي لا طائل تحته! ولا تُجِب عما سكت عنه القرآن

---

(١) مسلم (٩).
(٢) مسلم (١/١١).

والسنة مما لا يترتب على ذكره فائدة، مثال ذلك: قال ربنا: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يس]، من هذا الرجل؟ هذا سؤال يجاب عنه بآخر: وهل ذُكر اسمه في القرآن أو السنة؟ وماذا يترتب على علمك باسمه؟! فلا نسأل عما لا فائدة فيه.

وقد ثبت عَن عائِشَةَ ﵂ أنها قالَت: «لَم يَزَل رَسُولُ اللهِ ﷺ يُسأَلُ عَنِ السَاعَةِ حَتَّى نَزَلَت: ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ ﴾»[1]، وليس مهمًا بالنسبة للعبد متى تكون الساعة، بل الشأن أن يعمل لها قبل أن يرحل بالموت الذي ليس له وقت محدد، ولا ميعاد مضروب، ومن مات فقد قامت قيامته.

---

(١) الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٤٦/١)، وصححه الشيخ مقبل الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول، ص (٢٦٢ ـ ٢٦٣).



بين يدي سورة عبس

أسماؤها:

تُعرَف هذه السورة المباركة بسورة ﴿عَبَسَ﴾؛ للبدء بها، وسميت بسورة: ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾، وبسورة ابن أم مكتوم؛ لأن أولها نزل فيه كما سيأتي، وتسمى بسورة الصاخة، وسورة السفرة؛ لورودهما فيها[(١)].

وهي مكية باتفاق[(٢)].

عدد آياتها:

«كَلِمُها مئة وَثَلاث وَثَلاثُونَ كلمة، وحروفها خمس مئة وَثَلاثَة وَعِشرُونَ حرفًا، وَهِي أَربَعُونَ آيَة فِي الشّامي، وَإِحدَى وَأَربَعُونَ فِي عدد أبي جَعفَر والبصري، واثنَتانِ وَأَربَعُونَ فِي عدد الباقِينَ، اختلافها ثَلاث آيات ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾، لم يعدها البَصرِيُّ والشامي وعدها الباقُون، ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾، لم يعدها أَبُو جَعفَر وَحده وعدها شيبَة والباقُونَ، ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾، لم يعدها الشّامي وعدها الباقُونَ»[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٠١/٣٠).
(٢) المصدر السابق.
(٣) البيان في عدِّ آي القرآن، ص(٢٦٤).

سبب النزول:

عن عائشة ﵂، قالت: «أنزل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يُعرِض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: «**أترى بما أقول بأسًا؟**»، فيقول: لا، ففي هذا أُنزِل»[1].

موضوعاتها:

«تعليم الله رسوله ﷺ الموازنة بين مراتب المصالح ووجوب الاستقراء لخفياتها»[2]. والإنكار عليه ﷺ في عُبُوسه وتولِّيه عن تعليم ابن أم مكتوم لانشغاله بدعوة بعض المشركين، وبيان مكانة القرآن، والتعريف بشدة كفر كثير من الناس، والاستدلال على البعث، والتذكير ببعض نعم الله في الأكل والزرع، وبشيء من أهوال القيامة، وانقسام الناس بعدها إلى فريقين، كما كانوا في الدنيا.

مقصدها:

إثبات البعث، وأهوال القيامة، وما يكون فيها، وأن الناس في الآخرة فريقان؛ فريق في الجنة، وفريق في السعير.

---

(١) الترمذي (٣٣٣١)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية، ص(٢٠٢)، ومقبل الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول، ص(٢٦٤ ـ ٢٦٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٠٢/٣٠).

سورة عبس: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ١٠)

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾﴾، لم يقل أن جاءه ابن أم مكتوم، بل قال: الأعمى؛ لكون من كان كذلك فإنه الأجدر بالعناية والاهتمام من غيره، ولم يأت في القرآن اسم أحد من الأحياء المعاصرين للنبي ﷺ سوى اثنين، مؤمن وكافر، أما المؤمن فهو زيد رضي الله عنه، ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب]، وأما الكافر فأبو لهب، ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ [المسد]. فيما عدا ذلك فإن القرآن يذكر أوصافهم، وفي هذه إشارة إلى التركيز على الأعمال والصفات لا على الأشخاص، فعليها يترتب الثواب والعقاب، ومما يجلي ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور]، فاستحقاق عبد الله المنافق للعذاب بسبب عمله، لا شخصه.

وذُكِرَ نَعتُ ابن أم مكتوم هنا؛ لئلا يلومه أحد، فقد يقال: ما حمله على أن يقطع

حديث النبي ﷺ مع غيره؟ فجاء ذكر وصفه الدالّ على أنه معذور في ذلك، وفيه أيضًا إلماحٌ إلى عذره ﷺ؛ فتقطيب الجبين لا يضر الأعمى.

وفي ذكر نعتِه ما يُشير إلى أهميَّة العناية بكلّ من كان حالُه كحالِه من الضَعَفة الذين تجشموا عناء التعلُّم، فمثل هذا لا تحمله إلى السعي إلّا الرغبة ومسيس الحاجة.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾، أي تحصل له زكاة وطهارة في نفسه، أو اتِّعاظ[1]، ولا شك أن الراغب المقبل مظنة لمثل ذلك.

ومن دلالات الآيات: أنه قد يحصل من الخير من ذي عاهة ما لا يتوقع حصوله من غيره، فالتوفيق إلى الخير من الله، ولا علاقة له بأمر العافية، صحيح أنها سبب في حصوله، وهي من أعظم نعم الله تعالى، لكن الموفق من وفقه الله، فهذا أعمى حصل منه ما لم ينله كثير من أهل العافية، جاء باحثًا عن الحق، طالبًا للعلم، وهذا مما يُبيِّن أن العمى عمى القلوب وليس عمى الأبصار، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج].

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾، و(لعلَّ) من الله تعالى إيجاب، فلا تدل على الترجي، وكم ممن منَّ الله عليهم بالإمامة وعلو الكعب في العلم أو في الدين، وهو من أولي الضرر؛ كابن أم مكتوم ﷺ، والإمام الترمذي، والشيخ محمد بن إبراهيم، والشيخ عبد الله بن حميد، والشيخ ابن باز، رحمهم الله جميعًا، ومن هؤلاء: الشيخ أحمد ياسين ﷺ، كان مقعدًا، وبه كثير من الأمراض، ولكنه ممن ألقى الله بهم الخوف في قلوب اليهود، فالمعاق من قعدت به همته، وأبطأ به عمله.

فالاهتمام بهؤلاء الضعفاء مما أرشدت آيُ القرآن إليه، قال ربنا: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام]. وهذه نزلت

---

(١) يُراجع: تفسير القرآن العظيم (٨/٣١٩).

لما قال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء؛ لا يجترئون علينا، يريدون عددًا من الفقراء والمساكين، فأنزل الله ﷻ هذه الآية[١]. وفي الكهف: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف]، فهؤلاء أتباع المرسلين. ولما عوتب نوح ﷺ في أن يكون هؤلاء الضعفاء من أتباعه قال لهم: ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الشعراء]. وفي أدعية نبينا ﷺ: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ فِعلَ الخَيراتِ، وَتَركَ المُنكَراتِ، وَحُبَّ المَساكِينِ، وَإِذا أَرَدتَ بِعِبادِكَ فِتنَةً فاقبِضنِي إِلَيكَ غَيرَ مَفتُونٍ**»[٢]. وفي سؤالات هرقل لأبي سفيان ﷺ: «وَسَأَلتُكَ: أَشرافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَم ضُعَفاؤُهُم؟ فَذَكَرتَ أَنَّ ضُعَفاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ، وَهُم أَتباعُ الرُّسُلِ. وَسَأَلتُكَ أَيَزِيدُونَ أَم يَنقُصُونَ؟ فَذَكَرتَ أَنَّهُم يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ الإِيمانِ حِينَ تُخالِطُ بَشاشَتُهُ القُلُوبَ»[٣].

وقد كان العلامة ابن باز ﷺ إمامًا في رعاية هذا الباب، فكان كثير من هؤلاء الضعفاء يجلسون على مائدته، وفيها أشراف الناس ووجهاؤهم، ومع ذلك كان ينهى عن أن يطرد أحد منهم. وأعرف أحد طلاب العلم لا يأكل غالبًا إلّا بعد أن يأكل عُمّاله، وكم بارك الله له فيما آتاه بسبب ذلك!

قال الشوكاني ﷺ: «ولعل: أصلها الترجي والطمع والتوقع والإشفاق، وذلك مستحيل على الله سبحانه، ولكنه لما كانت المخاطبة منه سبحانه للبشر كانت بمنزلة قولهم»[٤]. فـ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰ﴾ شهادة من الله: أن هذا الرجل سيتزكى، وقد كان،

(١) مسلم (٢٤١٣).
(٢) الترمذي (٣٢٣٣)، وهو في صحيح الجامع (٥٩).
(٣) البخاري (٧).
(٤) فتح القدير للشوكاني (٥٩/١).

فإنه عاش صالحًا، وقتل شهيدًا، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ۝١٢٢﴾ [النساء].

فإن قيل: أيعارض هذا اللوم قول ربنا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم]؟ فالجواب: ما كان وما يكون ذلك! فعبوس النبي ﷺ لم يره الرجل، وحدث هذا العبوس فجأة بدون قصد له، ولم يُسمع النبي ﷺ صاحبه ما يؤذيه ويزعجه.

سؤال آخر: أليس مما حُرِّم علينا: التنابز بالألقاب؟ فقد ذُكر ابن أم مكتوم بلقبه؟! فالجواب: أنه لم يُرَد بهذا اللقب تنقُّص، وجيء به لفوائد عديدة مضى ذكرها.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

أن الأمور بمآلاتها، ولا يعلم أين الخير إلا الله، فإذا أخطأ عليك أحد فينبغي أن تعلم أن ذلك إنما وقع لحكمة، فهذا الرجل عبس في وجهه النبي ﷺ، وكان ذلك خيرًا له، فقد ذكره الله في القرآن الكريم، في آيات تتلى إلى يوم القيامة، فأي شرف أعظم من ذلك؟ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٢١٦﴾ [البقرة]. وقد قال نبينا ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمرِ المُؤمِنِ، إنَّ أمرَهُ كُلَّهُ خيرٌ، وَلَيسَ ذاكَ لِأَحَدٍ إلّا لِلمُؤمِنِ، إن أصابَتهُ سَرّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيرًا لَهُ، وَإِن أَصابَتهُ ضَرّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيرًا لَهُ**»[1].

هذه الآيات التي اشتملت على عتاب لطيف لنبينا ﷺ، ومن الذي بلغنا ذلك؟ إنه نبينا ﷺ، الذي أجَلَّ الله مقامه عن أن يكتم شيئًا من الوحي، وقد ثبت في الصحيحين، عَن أَنَسٍ ﷺ، قالَ: جاءَ زَيدُ بنُ حارِثَةَ يَشكُو، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**اتَّقِ اللهَ، وَأَمسِك عَلَيكَ زَوجَكَ**». قالَ أَنَسٌ: لَو كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كاتِمًا شَيئًا لَكَتَمَ هَذِهِ[2]. وهذه رسالة للعلماء، فهم ورثة الأنبياء، فكيف يُتصور أن يكتم شيئًا مما

---

(١) مسلم (٢٩٩٩).
(٢) البخاري (٧٤٢٠). ومسلم (١٧٧).

أنزله الله؟! قال ربنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ١٨٧﴾ [آل عمران]. ولهذا تُوُعِّدَ العالم الذي يكتم الحق، فعن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، قال: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَن سُئِلَ عَن عِلمٍ فَكَتَمَهُ أَلجَمَهُ اللهُ بِلِجامٍ مِن نارٍ يَومَ القِيامَةِ**»(١).

وتدل الآيات على أنَّ العتاب ولو لجليل القدر ينبغي أن يقبل، وعلى من نُصح أن يسمع النصح، فهذه سمة المؤمن الصادق، وردُّه صفة المنافق الكاذب، قال ربنا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾ [البقرة]، فقد نُصِحوا بالإيمان، فردوا نُصح الناصحين، ولم يقبلوا! إنَّ مما يُؤسف عليه: أن لا يقبل بعض المسؤولين النقد عندما يُوجَّه إليه من موظف عنده، بل قد يحاول الانتقام منه بفصلٍ ونحوه! وبعض الناس يعد قبول النصح انتقاصًا من الهيبة! وأيُّ هيبة تلك التي تُبنى على العيوب؟ لكن على الناصح أن يتوخى الحكمة واللين؛ لئلا يعين الشيطان على أخيه.

وتأمل! تصحيح المسار لنبينا ﷺ بسبب الإعراض عن الأعمى نزل في قرآن يتلى، وهذا يفيد حكم النصح، وهل يكون سرًّا أو يصح أن يجهر به؟ والصواب أن يقال: إذا كان الخطأ علانية فالنصيحة علانية، وإذا كان الخطأ سرًّا يكون النصح سرًّا، وهذا باب من أبواب الفقه أخطأ فيه أناس ينادون بنصح المسؤولين سرًّا على كل حال، بينما يجهرون بنقد العلماء! والسبيل واحد، فولاة الأمر الذين أمرنا بطاعتهم: الأمراء والعلماء، والتمييز بينهما تناقض! ومما يدل على هذا: حديث طارِقِ بنِ شِهابٍ، قالَ: أَوَّلُ مَن بَدَأَ بِالخُطبَةِ يَومَ العِيدِ قَبلَ الصَّلاةِ مَروانُ. فَقامَ إِلَيهِ رَجُلٌ، فَقالَ: الصَّلاةُ قَبلَ

---

(١) أبو داود (٣٦٥٨)، وهو في صحيح الجامع (٢٧١٣).

الخُطبَةِ، فَقالَ: قَد تُرِكَ ما هُنالِكَ، فَقالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَمَّا هَذا فَقَد قَضَى ما عَلَيهِ، سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَن رَأَى مِنكُم مُنكَرًا فَليُغَيِّرهُ بِيَدِهِ، فَإِن لَم يَستَطِع فَبِلِسانِهِ، فَإِن لَم يَستَطِع فَبِقَلبِهِ، وَذَلِكَ أَضعَفُ الإِيمانِ**»(١). فأنت ترى فيه أن الإنكار على الأمير كان علنًا، لأن الخطأ وقع علنًا.

ومن الدروس والتنبيهات المتعلقة بهذه السورة: أهمية تفقد الرعية، والعناية بالأتباع صغيرهم وكبيرهم، فهذا رجل ضعيف كفيف البصر، مع ذلك نزل فيه القرآن؛ دفاعًا عنه، وانتصارًا له، إنك لتلحظ في بعض المؤسسات العناية بالكبار، يأخذون حقوقهم ويُعنى بأمرهم، بخلاف غيرهم من الضعفاء! تجد أناسًا ينالون «الترقيات» في بعض الوزارات قبل أن يكملوا المدة التي تؤهلهم لها، وتجد غيرهم ممن لا يؤبه له يمكث عشر سنوات ولا يعطى حقه من الترقية! ويحدث هذا التفريق أحيانًا في بعض بيوتنا؛ فيُلتفت إلى بعض الأولاد دون غيرهم! وهذا ليس من العدل.

ومن الوقفات أن بعض الدعاة يزعم الانشغال بالأمور الكبرى، وإذا قلت له: لماذا لا تهتم بهذا الموضوع، قال هذه قضية جزئية وأنا مشغول بما هو أهم منها! أنا مشغول بقضايا الأُمَّة، والجهاد، والإصلاح! نقول: هل يعني ذلك أن تهمل غيرها؟! وهل يتعذر الاهتمام بذلك كله وأنت مأمور به؟ وهل ثَمَّ تعارضٌ بين الاهتمام بكل ما يجب عليك أن تبلغه للناس، وربنا يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: ٢٠٨]! ومما يؤسف عليه: أن بعض هؤلاء الذين ينشغلون بما يسمونها القضايا الكبرى ينظرون نظرة دونية لمن يعنى بمسائل يرونها يسيرة، وهذا خطأ آخر! وكم مرة سمعت مَن ينتقص أخاه ممن يشاركه في همِّ الدعوة إلى الله، فيقول عنه: فلان واعظ! وما العيب في ذلك؟ أليس قد قال الله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١]! والمرء لا يعلم الحسنة التي تدخله الجنّة

---

(١) مسلم (٤٩).

أو يُغفر له بها، قال نبينا ﷺ: «**بَينَما رَجُلٌ يَمشِي بِطَرِيقٍ، إذ وَجَدَ غُصنَ شَوكٍ عَلَى الطَّرِيقِ، فَأَخَّرَهُ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ**»(١)، وعَن أَبِي ذَرٍّ ﷺ، قالَ: قالَ لِـيَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لا تَحقِرَنَّ مِنَ المَعرُوفِ شَيئًا، وَلَو أَن تَلقَى أَخاكَ بِوَجهٍ طَلقٍ**»(٢)، وعن عدِي بن حاتِمٍ ﷺ، قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَو بِشِقِّ تَمرَةٍ**»(٣)، وعن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**بَينَما رَجُلٌ يَمشِي بِطَرِيقٍ اشتَدَّ عَلَيهِ العَطَشُ، فَوَجَدَ بِئرًا، فَنَزَلَ فِيها فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ فَإذا كَلبٌ يَلهَثُ يَأكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَقالَ الرَّجُلُ لَقَد بَلَغَ هَذا الكَلبَ مِنَ العَطَشِ مِثلُ الَّذِي كانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ البِئرَ فَمَلأَ خُفَّهُ ماءً، ثُمَّ أَمسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الكَلبَ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ**» قالُوا: يا رَسُولَ اللهِ وَإنَّ لَنا فِي هَذِهِ البَهائِمِ لَأَجرًا؟ فَقالَ: «**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطبَةٍ أَجرٌ**»(٤). إذًا علينا ألا ندعي أننا مشغولون بالقضايا الكبيرة ونهمل غيرها. قال ابن حجر ﷺ: «فَيَنبَغِي لِلمَرءِ أَن لا يَزهَدَ فِي قَلِيلٍ مِنَ الخَيرِ أَن يَأتِيَهُ، وَلا فِي قَلِيلٍ مِنَ الشَّرِّ أَن يَجتَنِبَهُ؛ فَإنَّهُ لا يَعلَمُ الحَسَنَةَ الَّتِي يَرحَمُهُ اللهُ بِها، وَلا السَّيِّئَةَ الَّتِي يَسخَطُ عَلَيهِ بِها»(٥)، وفي الغالب حسبما نشاهده في الواقع أن ما يسمونه بالقضايا الكبرى لا يؤثرون فيها بشيء يذكر! وبعضهم قد يفسد فيها أكثر مما يصلح، بخلاف ما أعرضوا عنه من قضايا الأُمَّة.

ومن المعاني: أنه لا يعلم من يهتدي فيستجيب ويتزكّى إلا الله، فأحيانًا قد يُلقي الشيطان في روعك أنه لا فائدة من نصح زيد، ويكون الخير في نصحه، فينتفع بحديثك أكثر من غيره، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣﴾، وغيره ممن يغلب على الظن أنه قريب من الهداية لا يجدي معه نصح، ولا ينتفع بعظة، ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧﴾.

---

(١) البخاري (٦٥٢)، ومسلم (١٩١٤).
(٢) مسلم (٢٦٢٦).
(٣) البخاري (١٤١٧)، ومسلم (١٠١٦).
(٤) البخاري (١٧٣)، ومسلم (٢٢٤٤).
(٥) فتح الباري (٣٢١/١١).

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ أي أنَّ من استغنى عن هديك وإرشادك، فلا يجدر بك أن تنتصب له، وتبذل وقتك لأجله. وههنا وقفة مهمة: تجد أحيانًا واعظًا يقوم فيتكلم، فيرى بعض الناس أنه ليس بحاجة إليه، وتحدثه نفسه بأن هذا المتحدث لا شيء عنده، ولن يضيف إليه جديدًا! فيترك المجلس دون أن يكون عنده شغل صارف، وهذا نوع من الاستغناء والاستعلاء! ولن يعدم المرء خيرًا في مجالس ذكر الله تعالى، والذكرى ينتفع بها المؤمن.

وأعرف واعظًا قام في مسجد كبير في إحدى المدن، وكان في المسجد أحد الملوك، فأراد الملك أن يقوم، فقال له: يا فلان اجلس، أنا جئت إليك أنت، أما هؤلاء الناس فأجدهم في أي مسجد! فجلس الملك حتى انتهت كلمته.

والمقصود أن تحذر الاستعلاء والشعور بالاستغناء عن التذكير بالله ولو للحظة واحدة، مهما كان مقامك.

﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ وهذا من جملة العتاب، يقول الله ﷻ لنبينا ﷺ: هؤلاء تتصدى وتتعرض لهم لعلهم يهتدون، وما عليك إذا لم يؤمنوا، لن يضروك شيئًا، وإنما الضرر على أنفسهم.

وهنا فائدة تتعلق بواجب البلاغ، قال ابن كثير ﵀: «وَمِن ها هُنا أَمَرَ اللهُ ﷻ رَسُولَهُ ﷺ أَلّا يَخُصَّ بِالإِنذارِ أَحَدًا، بَل يُساوِي فِيهِ بَيْنَ الشَّرِيفِ والضَّعِيفِ، والفَقِيرِ والغَنِيِّ، والسّادَةِ والعَبِيدِ، والرِّجالِ والنِّساءِ، والصِّغارِ والكِبارِ. ثُمَّ اللهُ يَهدِي مَن يَشاءُ إِلَى صِراطٍ مُستَقِيمٍ، وَلَهُ الحِكمَةُ البالِغَةُ والحُجَّةُ الدّامِغَةُ»[1]. فإذا ظهر فساد كشيء من ربا، فعلى العلماء بيان الحق لجميع من من شأنهم التأثر به، فإذا لم يستجب لهم فقد أدوا الذي عليهم، وهذه المعاني تغيب عن بعض الدعاة، فتجد أحدهم في هم وغم، يلاحق المعرض، ويتوسل للعاصي! وربنا يقول:

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٣١٩).

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، ويقول: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف]، ويقول: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٩٢﴾ [المائدة].

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾، انشغل نبينا ﷺ عن ابن أم مكتوم بدعوة غيره إلى الله، ودعوة قريش التي شغلته واجبة، وكان العتاب من الله، فكيف بمن ينشغل عن الدعوة بأمور الدنيا! فهذه رسالة لبعض طلاب العلم ممن ينشغل كثيرًا عن الدعوة بحظوظ نفس أو دنيا! قال سلمان ﷺ: «إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيكَ حَقًّا، وَلِنَفسِكَ عَلَيكَ حَقًّا، وَلِأَهلِكَ عَلَيكَ حَقًّا، فَأَعطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ»، فقال النبي ﷺ: «صَدَقَ سَلمانُ»[1].

وفي الآية: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾، قدم التزكية على التذكير، والتزكية هي التطهير، والتذكير هو العمل، ومعروف أن التخلية تقدم على التحلية، فأنت إذا أردت أن تضع شيئًا في كأس مليء فإنك تفرغه مما فيه ثم تضع فيه ما شئت. والتزكية مع التذكرة مهمة الرسل، وقد جاء ذلك في آيات كثيرة، قال ربنا: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾ [آل عمران]. وتأمل في تقديم التزكية على التعليم، وأطول قسم في القرآن الكريم في سورة الشمس، قال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس]. جواب القسم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾،

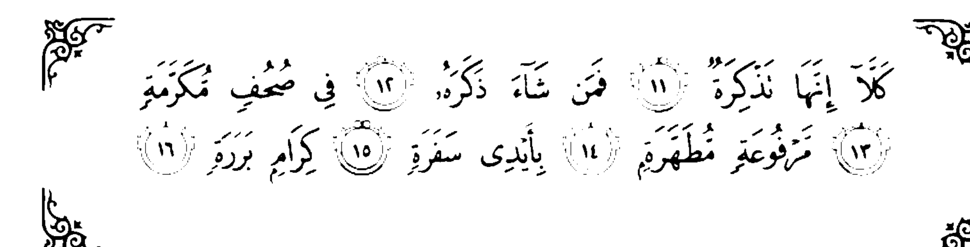
(١) البخاري (١٩٦٨).

وهـذا يـدلُّ على أهميـة التزكيـة، فلا بُـدَّ مـن العناية بهـا، فمهمتنـا أن نبـدأ بتزكية أنفسـنا، لأنـه إذا لـم نُـزَكِّ الأنفـس فتأثـير الـكلام سـيكون ضعيفًا!

والتزكية المطلوبة هي أولًا للنفس من خصال السوء، ومن الدَّغَل الذي يعتريها، ثم للجوارح من أن يطلب بها صاحبها حرامًا. ومن أعظم جوانب التزكية التي يجب الاهتمام بها: تزكية المال، وقد وجدت أن من أعظم أسباب المشكلات البيتية والأسرية المال الحرام، وعندما وصلت إلى هذه الحقيقة كنت أبدأ في علاج المشكلة بين زوجين، أو بين الأب وأولاده أو إخوانه بسؤالهم عن مصادر أموالهم، فقد يكون في المال شبهة، وللداخل من الأموال أثر على النفوس، ولهذا كان من تزكية النفس وتطهيرها ببذل المال، قال ربنا: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

ذهبـت للمشـاركة في مناسـبة في مدينـة من المـدن، فدخلنـا اسـتراحة جميلة، فقالـوا هذه لأحـد طلاب العلم، لأسـتاذ في الجامعـة، وعلمت أن لـوالده ثلاثة عشر ولدًا، وكلهـم مـن خيـار الصالحـين، نحسـبهم كذلـك والله حسـيبهم، ولا نـزكي على الله أحـدًا، فقلـت: لا بـد أن في الأمـر سرًّا! فقالـوا: والدهم رجل صالـح، كان يعمل في سـيارة لنقـل الـتراب، فـكان قبـل التحـرك بالـتراب إلى الجهـة الـتي ترغـب فيه يغطيـه؛ لئـلا ينقـص التراب أثناء سـيره! فـرأى أثر عملـه وتحريه للحـلال في ولده، فالتزكيـة مطلوبـة مـن العبد ليحصـل له الخير.

الآيات (١١ ـ ١٦)



﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١﴾، أي: القرآن[١]، ومنه ما سلف في العتاب على ما تقدَّم بيانه، وصفه الله بأنه تذكرة، فكل من أراد الاتعاظ والتذكُّر فعليه بالقرآن.

إن من أهمِّ أسبابِ النجاة من الفتن: التمسُّك بالقرآن والسنة، ثبت في حديث ابن عباس ﷺ، أن رسول الله ﷺ خطب الناس في حَجَّة الوَداع فقال: «**إنَّ الشيطانَ قد يَئِسَ أن يُعبدَ بأرضِكم، ولكن رَضِيَ أن يطاعَ فيما سوى ذلك مما تحاقَرون من أعمالِكم، فاحذَروا، إني قد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتُم به فلن تضلُّوا أبدًا: كتابَ الله، وسنةَ نبيه**»[٢]. وإن مما يحزن ويُستغرب منه: أن ينشغل المسلم عن القرآن بالأخبار، ومتابعة الأحداث، والقيل والقال، فيعنى بها أكثر من العناية بالقرآن الذي ينجيه في الدنيا والآخرة، ويورثه الله به في الجنة أعلى مقاماتها. والواجب هو الإقبال عليه؛ تدبُّرًا، وعملًا، وحفظًا، وتلاوة، ودعوةً، وكم نقصر في الدعوة به! وقد ثبت عَن عَبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَو آيَةً**»[٣].

---

(١) يُنظر: تفسير القرآن العظيم (٣٢٧/٨).
(٢) الحاكم في المستدرك (٣١٨)، وصححه الألباني في التوسل، ص(١٦).
(٣) البخاري (٣٤٦١).

﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ١٣ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ١٥﴾، القرآن الموصوف بأنه تذكرة، مثبت في صحف، وهي صحف عند الله تعالى، والسفرة هم الملائكة ، وقيل القراء، حملة القرآن، ومعلموه الناس، قال الطبري : «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هم الملائكة الذين يسفرون بين الله ورسله بالوحي»[1]، والذي يظهر أن من يأتي بالوحي إنما هو جبريل، فيحتمل أن يكون المراد معه ملائكة، ويحتمل أن يراد بهم القراء معلمو الناس الخير، وصفهم بأنهم ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ ١٦﴾، والبررة جمع بارٍّ، وهو المطيع.

وأذكر هنا بعض المسائل التي تتعلق بآداب التعامل مع القرآن الكريم:

● **المسألة الأولى: هل يجوز للحائض والجنب قراءة القرآن؟**

فيها ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه لا يجوز للحائض والجنب قراءة القرآن الكريم،ودليلهم حديث علي : «أن رسول الله ﷺ كان يُعلِّمهم القرآن، وكان لا يحجزه عن القرآن إلا الجنابة»[2].

والقول الثاني: أنه يجوز للحائض والجنب قراءة القرآن.

والقول الثالث في هذه المسألة: التفريق بين الحائض والجُنُب، فالحائض ليس بيدها أن تُنهي حيضها، فحدثها مستمر إلى أجله، بخلاف الجنب، فيمكنه الاغتسال لقراءة القرآن متى ما شاء، ولا يمكن أن تأمر الشريعة بهجر القرآن أيامًا عديدة قد تطول ببعض النساء، وهذا معنى مهم. وهو قول الإمام مالك، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله، وهو أرجح الأقوال[3]. فللحائض أن تقرأ من تطبيق الجوّال، أو من كتب التفسير، أو تقرأ من المصحف بحائل، أو من حفظها.

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/٢٢١).

(٢) الترمذي (١٤٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٢١/٤٦٠).

● **مسألة أخرى: هل يجوز مس المصحف بدون طهارة؟**

لا يجوز، وهذا مذهب الأئمة الأربعة؛ لما جاء في كتاب عمرو بن حزم الذي كتبه النبي ﷺ إلى أهل اليمن، وفيه: «**ألا يمسَّ القرآنَ إلا طاهرٌ**»(١). قال الحافظ ابن حجر ﵀: «وقد صحَّح الحديث بالكتاب المذكور جماعة من الأئمة لا من حيث الإسناد بل من حيث الشهرة، فقال الشافعي في رسالته: لم يقبلوا هذا الحديث حتى ثبت عندهم أنه كتاب رسول الله ﷺ. وقال ابن عبد البر: هذا كتاب مشهور عند أهل السير، معروفٌ ما فيه عند أهل العلم معرفةً يُستغنى بشهرتها عن الإسناد؛ لأنه أشبَهَ التواترَ في مجيئه، لتلقي الناس له بالقبول والمعرفة»(٢).

وأما الاستدلال بقول ربنا: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ [الواقعة]، فإنه محلُّ نظر؛ لأن الضمير في ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ راجع إلى اللوح المحفوظ.

والقول الثاني في المسألة: جواز مس المصحف بلا طهارة، واستدلوا بإرسال النبي ﷺ لهرقل ـ وهو نصراني ـ رسالة فيها آيات من القرآن. وهذا لا يدل على ما ذهبوا إليه، فالحديث عن مس المصحف، لا عن مس غيره مما اشتمل على آيات منه.

لكن ما هو المراد بالمصحف؟ جاء في الموسوعة الفقهية: «ذهب جمهور الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة إلى أنه يمتنع على غير المتطهِّر مسُّ جلد المصحف المتصل، والحواشي التي لا كتابة فيها من أوراق المصحف، والبياض بين السطور، وكذا ما فيه من صحائف خالية من الكتابة بالكلية، وذلك لأنها تابعة للمكتوب وحريمٌ له، وحريمُ الشيء تبع له، ويأخذ حكمه، وذهب بعض الحنفية والشافعية إلى جواز ذلك»(٣).

---

(١) مالك (٤٦٨)، وصححه الألباني في الإرواء (١٢٢).
(٢) التلخيص الحبير (٤/١٧).
(٣) (٣٨/٧).

● وهل كتب التفسير تعدُّ من المصاحف؟

اختلف العلماء في ذلك، فالقول الراجح أنه ينظر إلى الأغلب، فإن كان الأغلب هو القرآن فإنه مصحف، وإن كان الأغلب كلام المفسر فهو تفسير.

● وهل يأخذ تطبيق الجوال حكم المصحف؟

مضى ما يشير إلى أنه لا يأخذ حكمه، فما يظهر على شاشة الجوال وغيره من الأجهزة ليس مصحفًا، والشاشة طبقة زجاجية حائلة عن مس الحرف المتشكل.

● وهل يجوز للصبيان الصغار مس المصحف بدون وضوء؟

اختلف العلماء على قولين، فقيل بالجواز، وقيل بالمنع، لكني أقول: نطلب إليهم الوضوء، لا سيما من كان منهم كبيرًا، فهذا هو الأفضل، فالصغير لا يحرم عليه مسُّه بلا طهارة، وإنما الحديث عن الأفضل.

ومن المسائل المهمة أيضًا: أنه لا يجوز دخول دورة المياه والذهاب إلى الخلاء لقضاء الحاجة بالمصحف، إلا إذا خشي الإنسان عليه من السرقة فيجوز له ذلك مع ستره.

ومن الآداب المهمة: عدم الاتكاء عليه، وألا يوضع فوقه شيء، وألا يوضع على الأرض، وألا تمد الأرجل إذا كان المصحف أمامها، وألا يستعين بريقه لتقليب صفحاته، وألا يُصغَّر؛ فلا يقال: «مصيحف»، وألا يوضع مقلوبًا، ولا يحجز به المكان في الصف، ولا يترك مفتوحًا بدون أن يقرأ منه، فيعرضه للهَوامِّ وتقليب الهواء، وألا يأخذه المسلم بشماله.

● وهل الأفضل للحافظ أن يقرأ من المصحف أم من حفظه؟

الجواب: أين يجد قلبه؟ يفعل ما هو أنفع وأخشع لقلبه.

لكن بعض السلف كان يكره ألا يرجع الإنسان إلى المصحف أبدًا، فينبغي الرجوع إلى المصحف بعد كل فترة.

وفي بعض البلاد يعلق المصحف في السيارة! ولا شك أن القرآن مبارك، لكن بركته في الإقبال عليه، وتلاوته، وحفظه، وتدبُّره، وتعليمه، والدعوة إليه، وتعظيمه، وليس في تعليقه، وهذا الذي علق المصحف قد يعرِّضه للامتهان، فلربما ارتفع في سيارته صوت الغناء والموسيقى، وليس هذا من توقير المصحف، وربما أثرت فيه الشمس، أو تناوشته أيدي الصغار، وقل مثل ذلك في اللوحات التي تعلق في بيوت بعضنا، فمراعاة ذلك كله من تعظيم كتاب الله، والله يقول: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ٣٢ ﴾ [الحج][1].

(١) ومن أفضل ما كتب في هذا الباب: «جمال القراء، فصول في آداب أهل القرآن الكريم» للأخ الدكتور إبراهيم بن صالح الحميري، فهي رسالة فيها جُهد مبارك.

الآيات (١٧ ـ ٢٣)

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾

في هذه ذكرٌ لسبب الإعراض عن الأعمى، وهم أولئك المستكبرون، الذين لا ينقادون إلى الحق ولا يتبعونه، فقال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾﴾، قتل: لعن[1]. واللعن هنا للكافر المُعرض عن الإيمان بالله، والتعجُّب من كفره مع إحسان الله إليه، ولهذا قيل: إن المراد بالكفر هنا: الجحود بنعم الله، بدليل ما سيأتي بعدها من التذكير بها.

وقوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾، هذا الاستفهام زيادة في التقرير والتحقير، فهذا المعرض يعلم أنَّه خُلِق من ماءٍ مهين، فلمَ التكبُّر؟ في سير أعلام النبلاء: أن يزيد بن المهلب «كانَ ذا تِيهٍ وَكِبرٍ، رَآهُ مُطَرِّفُ بنُ الشِّخِّيرِ يَسحَبُ حُلَّتَهُ، فَقالَ لَهُ: إنَّ هَذِهِ مِشيَةٌ يُبغِضُها اللهُ. قالَ: أَوَ ما تَعرِفُني؟ قالَ: بَلَى، أَوَّلُكَ نُطفَةٌ مَذِرَةٌ، وَآخِرُكَ جِيفَةٌ قَذِرَةٌ، وَأَنتَ بَينَ ذَلِكَ تَحمِلُ العَذِرَةَ»[2].

---

(١) يراجع: تفسير الطبري (٢٤/٢٢٢).
(٢) (٤/٥٠٥).

وقول ربنا: ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾، أي: فقدره أطوارًا، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج]. وقيل: «قدَّر أعضاء رأسه، وعينيه، ويديه، ورجليه»[1]. قال ربنا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين].

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾، قيل: المراد بالسبيل هو أنه يسَّر خروجه من بطن أمه، وقيل السبيل هو الخير والشر، كما قال ربنا: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد]، وقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان]، وقيل: معرفة المضارِّ والمنافع، ومعرفة طرق حياته في الدنيا، والمعنى الجامع لذلك ما قاله الشيخ عبدالرحمن بن سعدي: «يسَّر له الأسبابَ الدنيوية والدينية»[2]. وكلما أمكن حمل الآية على ما قيل في تأويلها وكان السياق يحتمله دون أن يكون تعارض بين الأقوال فهذا هو الواجب.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾، أي توفاه، وأكرمه بالدفن في الأرض، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ [المرسلات]. فيدفن في الأرض كل ميت، ثبت عن علي ﷺ، أنه أتى النَّبِيَّ ﷺ فقالَ: إنَّ أَبا طالِبٍ ماتَ. فَقالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**اذهَب فَوارِهِ**»، فَقالَ: إنَّهُ ماتَ مُشرِكًا؟ فَقالَ: «**اذهَب فَوارِهِ**»[3]. والكافر يحُفَر له ويلقى في الحفرة، أما المسلم فإنه يُلحَد له، ويُوجَّه إلى القبلة.

---

(١) زاد المسير (٤/٤٠١).
(٢) تفسير السعدي، ص(٩١١).
(٣) رواه أحمد (٧٥٩)، وصححه الألباني في أحكام الجنائز ص(١٣٤).

وأول من دفن ابنُ آدم، علَّمه الدفنَ غراب، قال ربنا: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة].

وإذا بُتِر عضوُ آدمي دفن، بدون أن يُصلَّى عليه أو أن يغسل.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾، أي: ثم أحياه، والمقصود هنا بقوله عزَّ اسمه: ﴿إِذَا شَآءَ﴾، في الزمن الذي يريده، فالبعث حق، ويكون متى ما شاء الله.

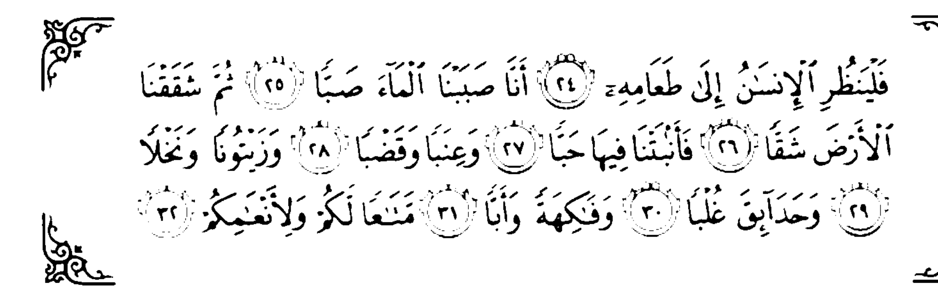
﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ فما استطاع أحد أن يؤدِّيَ ما أمره الله به من الإيمان والطاعات والعمل الصالح! كلنا مقصرون، والناس متفاوتون في ذلك، فمستقل ومستكثر، والله نسأل أن يعفو عنا، وأن يدخلنا الجنة برحمته، قال مجاهد ﵀ في هذه الآية: «لا يَقضِي أَحَدٌ أَبَدًا كُلَّ ما افتُرِض عَلَيهِ»[1]، وهذا مما يُعين على فهم حديث نبينا ﷺ: «لَن يُنجِيَ أَحَدًا مِنكُم عَمَلُهُ» قالَ رَجُلٌ: وَلا إِيَّاكَ؟ يا رَسُولَ اللهِ قالَ: «وَلا إِيَّايَ، إِلَّا أَن يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنهُ بِرَحمَةٍ، وَلَكِن سَدِّدُوا»[2].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٢٣/٨).

(٢) البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

الآيات (٢٤ ـ ٣٢)



لما كانت هذه السورة تخاطب مُنكري البعث من المشركين ذكر لهم أدلته مما يشاهدون، فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾، وهنا لا بُدَّ من الإشارة إلى مسألة عظيمة، وهي: التفكُّر، ذلك العمل الذي نادت إليه آيات في كتاب الله تعالى، ولي رسالة ألفتها قبل أكثر من عشرين سنة تناولت فيها مسائل هذه العبادة، سميتها بـ «منهج التفكير»، والتفكُّر في آيات القرآن التي تقرؤونها مفتاح التدبُّر، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]، ومن قرأ القرآن بتدبُّر فقد أمسك بالخير من ناصيته، ونال حسنتي الدنيا والآخرة.

وكثير من الآباء يُسهم في تعطيل هذه المهارة لدى ابنه! فبعض الآباء والمعلمين يعتبرون الطالب السؤول مشاغبًا! وبدلًا من تشجيع الصغير على السؤال الذي يدلُّ على سير صحيح في طريق إعمال الفكر يقومون بزجرهم، وانتهارهم! لأن أسئلتهم دليل على قلة أدبهم ـ زعموا ـ ! وما علم هؤلاء أن التفكير ينمي ذكاءهم، بل الواجب الحث على التفكُّر، فإن طرأت أسئلة أُجيب عنها بعلم أو أحيلت إلى عالِمٍ بها.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾، فلينظر بعينه، متعقلًا، لا نظر اعتياد بل نظر تفكُّر واعتبار. فإذا قيل: وما الذي نتفكر فيه في شأن طعامنا؟ فالجواب: أوجه ذلك كثيرة،

منها: كيف نبتت هذه الحبوب الجامدة في تلك الأرض الميتة؟ من الذي جعل الحبة التي أودعتها في باطن الأرض شجرة؟ كيف تأتَّى للجسم أن يستفيد من هذا الطعام؟ كيف يكون هضمه؟ كيف انتفاعك به؟ كيف خلص الله جسمك من فضلاته؟ ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾﴾، فانظر نظر اعتبار، لتعلم المنة وتمام القدرة.

﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾، والحب معروف، كالقمح، والشعير، وغيرهما. والعنب معروف، وأما القضب فقال ابن كثير ﷺ: «هُوَ: الفَصفَصَةُ الَّتِي تَأْكُلُها الدَّوابُّ رَطبَةً، وَيُقالُ لَها: القَتُ أَيضًا، قالَ ذَلِكَ ابنُ عَبّاسٍ، وَقَتادَةُ، والضَّحّاكُ. والسُّدِّيُّ»[١]. والقت: البرسيم. والصحيح: أن القضب كل شيء يحصد ثم ينبت[٢]، والزيتون معروف أيضًا، ولم يذكر التمر، بل ذكر النخل، فقال: ﴿وَنَخْلًا﴾، وقبله ذكر الثمر لا الشجر، ولعل ذلك لسببين:

- الأول: أن التمر أنواع وأشكال عديدة.

- والثاني: لأن النخل يُنتفع بتمره وبغيره، فمنافعه كثيرة، والناس ينتفعون بكل جزء فيه، ولهذا أرشد الله إلى التفكُّر فيه. وقد ثبت في الصحيحين، عن عبد الله بن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لا يَسقُطُ وَرَقُها، وَإِنَّها مَثَلُ المُسلِمِ، فَحَدِّثُونِي ما هِيَ؟**»، فَوَقَعَ النّاسُ فِي شَجَرِ البَوادِي، وَوَقَعَ فِي نَفسِي أَنَّها النَّخلَةُ، فاستَحيَيتُ، ثُمَّ قالُوا: حَدِّثنا ما هِيَ يا رَسُولَ اللهِ؟ فقالَ: «**هِيَ النَّخلَةُ**». قالَ: فَذَكَرتُ ذَلِكَ لِعُمَرَ، قالَ: «لَأَن تَكُونَ قُلتَ: هِيَ النَّخلَةُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِن كَذا وَكَذا»[٣].

﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾، أي: بساتين غليظة الأشجار ملتفة الأغصان.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٣٢٤).
(٢) يُراجع: زاد المسير (٤/٤٠٣).
(٣) البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١).

﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾، والفاكهة معروفة، وأما الأبُّ فقد سئل عنه الصديق رضي الله عنه فقال: «أَيُّ سَماءٍ تُظِلُّنِي، وَأَيُّ أَرضٍ تُقِلُّنِي، إن قلتُ في كِتابِ اللهِ ما لا أَعلَمُ؟»[١].

وروى أنس رضي الله عنه، قالَ: قَرَأَ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ رضي الله عنه: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ ﴾، فَلَمّا أَتَى عَلَى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾، قالَ: عَرَفنا ما الفاكِهَةُ، فَما الأَبُّ؟ ثم قالَ: لَعَمرُكَ يا بنَ الخَطّابِ إِنَّ هَذا لَهُوَ التَّكَلُّفُ[٢]. وهذا يغرس في نفوسنا أدبًا عظيمًا؛ ألا نقول في كتاب الله بدون علم. وفسر الآية ابن عباس رضي الله عنهما، فقال: «الكلأ والمرعى»[٣].

﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾، تذييل ختم به هذا التذكير بالنعم؛ للحثِّ على الشكر، وما أرحم ربنا بنا! ينعم علينا، وينبِّهنا على العِبَر، ويأمرنا بشكره، فإذا شكرناه رضي عنا، وزادنا من واسع فضله، فالحمد لله على آلائه ونعمه.

---

(١) فضائل القرآن، لأبي عبيد، ص (٢٢٧).
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (١٨٠/٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٣٢٤/٨).

الآيات (٣٣ ـ ٤٢)

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

تلك النعم وذلك المتاع إلى أجل، والعاقل من اعتبر قبله، فإن الشأن بعده عظيم!

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾، والصاخة اسم من أسماء يوم القيامة، فهي الطامة، والحاقة، والصاخة، والقارعة، فهذه كلها من أسماء يوم القيامة. وسميت بالصاخة؛ لأنها تصخ السمع وتصمُّه؛ لقوتها وشدتها.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾، هذا مشهد مهيب من مشاهد يوم القيامة، «ورُتِّبت أصناف القرابة في الآية حسب الصعود إلى من هو أقوى منه؛ تدرجًا في تهويل ذلك اليوم»[٤]. وقوله أقوى منه، أي: التصاقًا، لا مكانة وفضلاً.

وإذا كان كل واحد من أولي العزم يقول عندما تُطلب إليه الشفاعة: نفسي نفسي، فكيف بغيرهم؟ قال نبينا ﷺ: **«يَجمَعُ اللهُ يَومَ القِيامَةِ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ في صَعِيدٍ واحِدٍ، فَيُسمِعُهُمُ الداعِي، وَيَنفُذُهُمُ البَصَرُ، وَتَدنُو الشَّمسُ فَيَبلُغُ النّاسَ مِنَ الغَمِّ والكَربِ ما لا يُطِيقُونَ، وَما لا يَحتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعضُ النّاسِ لِبَعضٍ: أَلا تَرَونَ ما أَنتُم فِيهِ؟ أَلا تَرَونَ ما قَد بَلَغَكُم؟ أَلا تَنظُرُونَ مَن يَشفَعُ لَكُم إِلَى رَبِّكُم؟**

(٤) التحرير والتنوير (١٣٥/٣٠).

فَيقُولُ بعضُ النَّاسِ لِبَعضٍ: ائتُوا آدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيقُولُونَ: يا آدَمُ، أَنتَ أَبُو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِن رُوحِهِ، وَأَمَرَ المَلائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشفَع لَنا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى إِلَى ما نَحنُ فِيهِ؟ أَلا تَرَى إِلَى ما قَد بَلَغَنا؟ فَيقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ اليَومَ غَضَبًا لَم يَغضَب قَبلَهُ مِثلَهُ، وَلَن يَغضَبَ بَعدَهُ مِثلَهُ، وَإِنَّهُ نَهانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيتُهُ، نَفسِي نَفسِي، اذهَبُوا إِلَى غَيرِي، اذهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يا نُوحُ، أَنتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الأَرضِ، وَسَمَّاكَ اللهُ عَبدًا شَكُورًا، اشفَع لَنا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى ما نَحنُ فِيهِ؟ أَلا تَرَى ما قَد بَلَغَنا؟ فَيَقُولُ لَهُم: إِنَّ رَبِّي قَد غَضِبَ اليَومَ غَضَبًا لَم يَغضَب قَبلَهُ مِثلَهُ، وَلَن يَغضَبَ بَعدَهُ مِثلَهُ، وَإِنَّهُ قَد كانَت لِي دَعوَةٌ دَعَوتُ بِها عَلَى قَومِي، نَفسِي نَفسِي، اذهَبُوا إِلَى إِبراهِيمَ ﷺ، فَيَأْتُونَ إِبراهِيمَ، فَيَقُولُونَ: أَنتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِن أَهلِ الأَرضِ، اشفَع لَنا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى إِلَى ما نَحنُ فِيهِ؟ أَلا تَرَى إِلَى ما قَد بَلَغَنا؟ فَيَقُولُ لَهُم إِبراهِيمُ: إِنَّ رَبِّي قَد غَضِبَ اليَومَ غَضَبًا لَم يَغضَب قَبلَهُ مِثلَهُ، وَلا يَغضَبُ بَعدَهُ مِثلَهُ، وَذَكَرَ كَذَباتِهِ، نَفسِي نَفسِي، اذهَبُوا إِلَى غَيرِي، اذهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ، فَيَقُولُونَ: يا مُوسَى، أَنتَ رَسُولُ اللهِ فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسالاتِهِ، وَبِتَكلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشفَع لَنا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى إِلَى ما نَحنُ فِيهِ؟ أَلا تَرَى ما قَد بَلَغَنا؟ فَيَقُولُ لَهُم مُوسَى ﷺ: إِنَّ رَبِّي قَد غَضِبَ اليَومَ غَضَبًا لَم يَغضَب قَبلَهُ مِثلَهُ، وَلَن يَغضَبَ بَعدَهُ مِثلَهُ، وَإِنِّي قَتَلتُ نَفسًا لَم أُومَر بِقَتلِها، نَفسِي نَفسِي، اذهَبُوا إِلَى عِيسَى ﷺ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يا عِيسَى أَنتَ رَسُولُ اللهِ، وَكَلَّمتَ النَّاسَ فِي المَهدِ، وَكَلِمَةٌ مِنهُ أَلقاها إِلَى مَريَمَ، وَرُوحٌ مِنهُ، فاشفَع لَنا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى ما نَحنُ فِيهِ؟ أَلا تَرَى ما قَد بَلَغَنا؟ فَيَقُولُ لَهُم عِيسَى ﷺ: إِنَّ رَبِّي قَد غَضِبَ اليَومَ غَضَبًا لَم يَغضَب قَبلَهُ مِثلَهُ، وَلَن يَغضَبَ بَعدَهُ مِثلَهُ، وَلَم يَذكُر لَهُ ذَنبًا، نَفسِي نَفسِي، اذهَبُوا إِلَى غَيرِي، اذهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونِّي فَيَقُولُونَ: يا مُحَمَّدُ، أَنتَ رَسُولُ اللهِ، وَخاتَمُ الأَنبِياءِ،

وَغَفَرَ اللهُ لَكَ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ، وَما تَأَخَّرَ، اشفَع لَنا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى ما نَحنُ فِيهِ؟ أَلا تَرَى ما قَد بَلَغَنا؟ فَأَنطَلِقُ، فَآتِي تَحتَ العَرشِ، فَأَقَعُ ساجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفتَحُ اللهُ عَلَيَّ وَيُلهِمُنِي مِن مَحامِدِهِ، وَحُسنِ الثَّناءِ عَلَيهِ شَيئًا لَم يَفتَحهُ لِأَحَدٍ قَبلِي، ثُمَّ يُقالُ: يا مُحَمَّدُ، ارفَع رَأسَكَ، سَل تُعطَه، اشفَع تُشَفَّع»[1].

ثم قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾، والمسفرة: المستنيرة. والمستبشرة: المسرورة، وفيه إشارة إلى أنَّ كرب ذلك اليوم يُسرّى عن أقوام سبقت لهم من الله الحُسنى، فهم من فزعٍ يومئذ آمنون، خوفهم عارض في مواقف كالحال عند السراط، وإلّا فهم في عامة مواقف تلك الأهوال آمنون فرحون، لا خوف عليهم ولاهم يحزنون، كما قال ربنا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [النمل].

وفي الآية إشارة إلى أن الابتسامة خير للوجه، ولو لم تكن كذلك لما أكرمت بها وجوه أهل الجنة، فما أحسن المحافظة عليها وإبداءها عند مقابلة إخواننا! قال نبينا ﷺ: «وَتَبَسُّمُكَ فِي وَجهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ»[2].

ثم قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾، والغبرة: الظلمة. والقترة: الذلة، وذلك لما جنوا في الدنيا، وهذه خاتمة ملائمة لمن أشير إليهم أول السورة، من الملأ الكبراء، المعرضين عن اتباع الوحي استكبارًا، تلك هي عاقبتهم والمتقدمة عاقبة أمثال ابن أم مكتوم، ﷺ، أسأل الله أن يجعلنا من أهل الجنة.

---

(١) البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).
(٢) صحيح الأدب المفرد (٦٨٨).



بين يدي سورة التكوير

أسماؤها:

سورة التكوير، وسميت بـ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾. وتسمى بسورة: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾، فعن عمرو بن حريث ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في الفجر: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾[1]. «وأكثر أهل التفاسير يسمونها سورة التكوير، وكذلك تسميتها في المصاحف، وهو اختصار لمدلول ﴿كُوِّرَتۡ﴾، وتسمى سورة: ﴿كُوِّرَتۡ﴾، تسمية بحكاية لفظ وقع فيها»[2].

وهي مكية باتفاق[3].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها مئة وَأَربع كَلِمات، وحروفها خمس مئة وَثَلاثَة وَعِشرُونَ حرفًا، وَهِي عشرُون وتسع آيات فِي جَمِيع العدَد إِلّا فِي عد أبي جَعفَر فَإِنَّها وثمان، اختلافها آيَة ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ﴾، لم يعدها أَبُو جَعفَر وَحده وعدها الباقُونَ»[4].

(١) مسلم (٤٥٦).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/١٣٩).
(٣) المصدر السابق.
(٤) البيان في عدّ آي القرآن، ص(٢٦٥).

ما ورد فيها:

سبق ذكر حديث عمرو بن حريث ﷺ قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في الفجر: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾»(١).

وعن عن ابن عباس ﷺ قال: قال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله قد شبت؟ فقال: «**شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت**»(٢).

وعن ابن عمر ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن سره أن ينظر إليَّ يوم القيامة كأنه رأي العين فليقرأ**: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾»(٣).

موضوعاتها:

اشتملت هذه السورة المباركة على ذكر شيء من أهوال يوم القيامة، وبيان مكانة القرآن الكريم الذي نزل من عند الله سبحانه، وعلى مدح الرسولين الأمينين الكريمين جبرائيل ونبينا ﷺ.

مقصدها:

الاستعداد لليوم الآخر الذي ذكَّر الله فيها بأهواله وما يكون فيه.

---

(١) مسلم (٤٥٦).
(٢) الترمذي (٣٢٩٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٥٥).
(٣) الترمذي (٣٣٣٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٨١).

سورة التكوير: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ١٤)

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾

أذكر في مبدأ الحديث عن آيات هذه السورة موقفًا حدث قبل سنوات، فقد كنا في قبو الحرم، وقبل إقامة الصلاة تساقطت كثير من حافظات المياه المبردة وكانت قد رُصَّ بعضها فوق بعض، فأحدثت صوتًا مدويًا، ففزع الناس فزعًا شديدًا وتدافعوا عند الأبواب وماجوا في بعض، وإذا كان مثل هذا يحدث في أمور يسيرة، فكيف بأهوال يوم القيامة! وإنك لتجد من الناس فزعًا عظيمًا إذا وقع عندهم زلزال، أو حصل إعصار، أو جاءهم سيل، فكيف بما يقع في الآخرة من أهوال عظيمة امتلأت بذكرها سور القرآن الكريم؟! وهذه السورة اشتملت على كثير من تلك الأهوال، ولذلك: لا بُدَّ أن يكون لها أثر على إيمانك إن تدبَّرتها، ولهذا جاء في الأثر عدها من جملة المشيبات! التي تشيب الرؤوس لما فيها من الأهوال.

قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١﴾، أي: لُفَّت وذهب ضوءها، قال السعدي ﷺ: «تجمع، وتُلَفُّ، ويخسف القمر، ويلقيان في النار»[١]، وإنك لتشعر بالرهبة إذا كسفت، أو حجب ضوؤها في النهار بالغبار فكيف بك إذا كورت وقذف بها إلى حيث يشاء الله؟!

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢﴾، أي ذهب ضوءها ونورها.

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ٣﴾، «زالَت عَن أماكِنِها، ونُسِفت، فَتَركَتِ الأَرضَ قاعًا صَفصَفًا»[٢]، ولا كمثل هذا زلزال!

﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ٤﴾، العشار: النوق، التي وصل حملها إلى الشهر العاشر، وهي من أعز أموال العرب، فحرص صاحبها يزداد عليها في تلك المرحلة، وقيل في معنى الآية غير ذلك، والذي يُراد من الآية: الانشغال عن كل ما كانت القلوب تتعلق به في الدنيا، بسبب أهوال الآخرة.

﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ٥﴾، هذه الوحوش المختلفة؛ الأسود، والذئاب، والفهود، والنمور، من المفترسات، والحُمُر والبقر وأصناف الظباء من الوحشيات غير المفترسة، وغير ذلك، تكون في مكان واحد، لا تجري على قوانينها في الدنيا افتراسًا وعدوانًا من هول الموقف. قال ابن كثير ﷺ: «قالَ ابنُ عَبّاسٍ: يُحشَرُ كُلُّ شَيءٍ حَتّى الذُّبابُ»[٣]. وقد ثبت عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قالَ: **«لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إِلَى أَهلِها يَومَ القِيامَةِ، حَتّى يُقادَ لِلشّاةِ الجَلحاءِ، مِنَ الشّاةِ القَرناءِ»**[٤]. وإذا اقتص من العجماوات فكيف بالمكلفين! وما أشد أن يكون القصاص من القريب للقريب قبل البعيد! كمن يظلم زوجه! أو يظلم أولاده،

---

(١) تفسير السعدي، ص(٩١٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣٣٠/٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٣٣١/٨).
(٤) مسلم (٢٥٨٢).

أو والديـه، أو جديـه! إن حقـوق العبـاد مبنيـة على المشـاحة، وفي الحديـث عـن أَبِي هُرَيـرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ، قـالَ: «أَتَـدرُونَ مـا المُفلِـسُ؟»، قالُـوا: المُفلِسُ فِينا مَـن لا دِرهَـمَ لَهُ وَلا مَتـاعَ. فَقـالَ: «إِنَّ المُفلِـسَ مِـن أُمَّتِي يَأتِي يَـومَ القِيامَـةِ بِصَلاةٍ، وَصِيـامٍ، وَزَكاةٍ، وَيَـأتِي قَد شَـتَمَ هَـذا، وَقَذَفَ هَـذا، وَأَكَلَ مـالَ هَذا، وَسَـفَكَ دَمَ هَذا، وَضَرَبَ هَـذا، فَيُعطَـى هَـذا مِـن حَسَـناتِهِ، وَهَذا مِن حَسَـناتِهِ، فَـإِن فَنِيَت حَسَـناتُهُ قَبـلَ أَن يُقـضَى مـا عَلَيهِ أُخِذَ مِـن خَطاياهُـم فَطُرِحَت عَلَيـهِ، ثُمَّ طُـرِحَ فِي النّارِ»[1].

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾، أُوقدت، وكانت نارًا، فالماء الذي يُطفئها يصير نارًا؛ لتتجلى مظاهر قدرة الله تعالى للناس كافة.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾، كلٌّ مع من سلك سبيله في الدنيا، وعمل عمله، التَّقي مع الأتقياء، والكافر مع الكفرة، وهكذا. جعلنا الله مع خير المتقين.

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾، المـوؤودة: الوليـدة يدفنونهـا في الـتراب خوفًـا مـن العـار، قـال ربنا فيهـم: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾ [النحل]. ولعـل مـن المناسـب هنـا أن أطـرح سـؤالًا؛ ذبًّـا عـن عـرض الفـاروق ﷺ وأرضـاه، والسـؤال: هـل ثبت أنـه وأد ابنتـه؟! الجواب: لـم يثبت ذلك، ولـن تجده في مصـدر يُعتـدُّ بـه. وإذا كان الفـاروق يفعـل ذلـك فكيـف وُلدت حفصـة بنت عمر بـن الخطـاب ﷺ له في الجاهليـة قبل البعثة بخمس سـنوات ولم يئدهـا؟! ومن الأدلة على عـدم وقـوع ذلـك منـه: حديث النعمـان بن بشير ﷺ، قـال: سـمعت عمر بن الخطـاب ﷺ سـئل عـن قـوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾، فقـال: جـاء قيـس بـن عاصـم إلى رسـول الله ﷺ، فقـال: إني وأدت ثمـاني بنات لي في الجاهليـة. قال: «**أعتق عـن كل واحـدة منهـا رقبـة**». فقـال: إني صاحب إبـل. قـال: «**أهد إن شئت عن كل**

---

(١) مسلم (٢٥٨١).

واحدة منهن بدنة»[١]. ولما لم يذكر الفاروق ﷺ عن نفسه ذلك، وإنما رواه من فعل قيس بن عاصم، دلَّ على عدم وقوع الوأد المنسوب إليه ﷺ.

وهل تدلُّ الآية على أن أطفال المشركين في الجنة؟ قيل: إنَّهم في الجنَّة، وبعضهم يقول: إنَّهم على الأعراف، ومقتضى هذا القول أنَّهم في الجنَّة؛ لأن هذا هو حال أهل الأعراف، وهو قول الأكثر من أهل العلم كما نقله عنهم ابن عبد البر[٢]. ودليلهم حديث سمرة ﷺ: أنه ﷺ رأى مع إبراهيم ﷺ أولاد المسلمين وأولاد المشركين»[٣]. وهذه المسألة مما ينبغي الكف عن الخوض فيها؛ لقول ابن عباس ﷺ: «لا يَزالُ أَمرُ هَذِهِ الأُمَّةِ قِوامًا ما لَم يَتَكَلَّمُوا فِي الوِلدانِ والقَدَرِ»[٤]. قال ابن حبان: «الوِلدانُ: أراد به أطفال المشركين»[٥].

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠﴾، تطايرت، فأصحاب اليمين يأخذونها بأيمانهم، وجاء بيان هذا في قول ربنا: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ۝٢٣ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ۝٢٤ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ۝٢٥﴾ [الحاقة]، وأصحاب الشمال يأخذونها بشمائلهم، نعوذ بالله من حالهم. فإن قيل: ألم يقل الله: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠﴾ [الانشقاق]؟ هل يعارض أنهم يأخذونها بشمالهم؟ الجواب: لا تعارض، فيأخذونها بشمالهم، من وراء ظهورهم. وهذا دليل من أدلة كثيرة على أن طالب العلم إذا أراد أن يخلص إلى حكم صحيح في مسألة ما فعليه أن ينظر في جميع النصوص التي تناولت المسألة؛ ليكون حكمه صوابًا.

وإذا كانت الكتب تسطر اليوم فعلى العاقل أن يودع في كتابه خيرًا يَسرُّه أن يُعرَض على الملأ غدًا، ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ۝١٩﴾ [الحاقة]،

(١) رواه البزار (٦٠/١).
(٢) التمهيد (٩٦/١٨).
(٣) البخاري (٦٦٤٠).
(٤) رواه عبد الله بن أحمد في كتاب السنة (٤٠١/٢).
(٥) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١١٩/١٥).

لأنـه أودع فيـه ما يسره في آخرته، ومن أودع فيه سـوءً فضحه الله أمام الأشـهاد، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة]، فـكل مـا في صدرك سـيخرج ويحصـل، وما تخفيه اليـوم قـد يظهـره الله غـدًا، فإيـاك أن تخـفي مـا تكـره أن يطلع النـاس عليـه، وتذكر قـوله عـز شـأنه: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ [العاديات].

وقـوله: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾، أُنهيَـت، «قـال الضَّحّـاكُ: تَنكَشِـطُ فَتَذهَـبُ»[1].

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾﴾، أُحميت، وهي كذلك الآن، قال ربنا: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران]، والمراد: أنها تزداد إحماء.

﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾، قُرِّبـت للمؤمنـين. قـال ربنـا: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الشعراء].

بعـد ذلـك ذكـر جـواب الـشرط، ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾، مـا عملـت وأحـضر ذلـك لهـا، قـال تعـالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]. وقـال: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة]. وفي الانفطـار: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ [الانفطار]. ولا منافـاة بينهما.

وتكرار أداة الشرط في الآيات مما يأخذ بمجامع الفكر، ويوقظ القلب، وينأى بالعبد عن الغفلة عما يقرأ، ويشوِّق إلى معرفة جواب الشرط.

والعبرة أن الإنسان الظلوم الجهول يجادل في الدنيا، ويبهرج عمله ويظهره بالمظهر الحسن ويدافع عن باطله، أمّا في الآخرة فسوف تعلم كل نفس علمًا لا مدفع له الخير الذي كان منها، والشرَّ الذي أحضرته، فلا يسعها هناك أن تتأول وتجادل بالباطل إلّا أن تدحض.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٣٣٥).

الآيات (١٥ ـ ٢٩)

فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

هذا قسم على قضية أخرى، قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾، أي أقسم، بدليل قول ربنا: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة]، فأثبت الله أنه قسم عظيم. قال ابن عاشور رحمه الله: «فلا أقسم بمعنى: أقسم، و (لا) للتوكيد، وأصلها نافية تدل على أن القائل لا يقدم على القسم بما أقسم به خشية سوء عاقبة الكذب في القسم. وبمعنى أنه غير محتاج إلى القسم لأن الأمر واضح الثبوت، ثم كثر هذا الاستعمال فصار مرادًا تأكيدُ الخبر»[1].

فما معنى الآية؟ قال الشيخ السعدي رحمه الله: «الكواكب التي تخنس أي: تتأخر عن سير الكواكب المعتاد إلى جهة المشرق، وهي النجوم السبعة السيارة: الشمس، والقمر، والزهرة، والمشترى، والمريخ، وزحل، وعطارد. فهذه السبعة لها سيران:

(١) التحرير والتنوير (٢٧/٣٣٠).

سير إلى جهة المغرب مع باقي الكواكب والأفلاك، وسير معاكس لهذا من جهة المشرق تختص به هذه السبعة دون غيرها. فأقسم الله بها في حال خنوسها أي: تأخرها، وفي حال جريانها، وفي حال كنوسها أي: استتارها بالنهار، ويحتمل أن المراد بها جميع النجوم الكواكب السيارة وغيرها»[1]. والله تعالى أعلم.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾، هذا من الأضداد، قيل: أدبر، وقيل: أقبل، وعلى كلٍّ فإنه آية على القدرة وفيه عبرة لمن لم ينظر بعين الاعتياد.

﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾، حلَّ بالأرض، وغطى المكانَ نسيمه وضياؤه، وهذه تحمل على التفاؤل، وتشير إلى أن ظلمة الليل مهما طال أمدها فلا بقاء لها، وكذلك الهمُّ والكرب الذي يأخذ بالنفس، مهما امتد زمانه فلا بُدَّ أن ينجلي، فلا تستغرقنك اللحظة الحاضرة، ولا تبنِ مستقبلك لأجل عارض أو ظرف آني.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠﴾، هذا جواب القسم، والمراد بالرسول هنا جبريل ﷺ، وذكر له صفات، أنه رسول كريم، فإنه أعلى الملائكة رتبة عند الله، ونعت بالقوة، ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾، قيل: حمل قُرى سدوم بطرف جناحٍ. والله أعلم.

﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠﴾، أي: مقرب عند الله، وله مكانة عظيمة.

﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ﴾، أي: مطاع في الملأ الأعلى، هناك بين الملائكة.

﴿أَمِينٖ ٢١﴾، حافظ لما ائتمن عليه.

وهذا يشير إلى أن من أهم هذه الصفات التي لا بُدَّ من توفرها في المسؤول: القوة، والأمانة. قالت إحدى ابنتي صاحب مدين: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾ [القصص]. وقال عفريت من الجن لسليمان ﷺ: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ٣٩﴾ [النمل]. وقال يوسف ﷺ:

---

(١) تفسير السعدي، ص(٩١٢ ـ ٩١٣).

﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف]. والحفيظ الأمين، الذي لا يضع شيئًا عنده في غير ما هو له.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾، عطف على جواب القسم، والمراد: نبينا ﷺ، فهذا الرسول ليس غريبًا عنكم، لم يأتِ من خارجكم، بل هو صاحبكم، نشأ بينكم، كما قال ربنا: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وهذا له أثر في قبول دعوته، ولذا قال ربنا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وفي الآية ما يشير إلى معنى نحتاج إليه اليوم، وهو أن الداعية القريب يؤثر في أقربائه أكثر من غيره، ولاسيما إذا كانت سيرته فيهم معروفة بحسنها.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾، رأى نبينا ﷺ جبريل ﷺ على صورته التي خلقه الله عليها. فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَن فَترَةِ - أي انقطاع - الوَحيِ فَقالَ فِي حَدِيثِهِ: **«فَبينا أَنا أَمشِي إذ سَمِعتُ صَوتًا مِن السَّماءِ، فَرَفَعتُ رَأسِي، فَإِذا المَلَكُ الَّذِي جاءَنِي بِحِراءٍ جالِسٌ عَلَى كُرسِيٍّ بَينَ السَّماءِ والأَرضِ، فَجَئِثتُ مِنهُ رُعبًا فَرَجَعتُ، فَقُلتُ: زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي، فَدَثِّرُونِي، فَأَنزَلَ اللهُ تَعالَى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾﴾[المدثر]»[1]. ولهذا قال بعض أهل العلم: إن هذه السورة نزلت قبل سورة الإسراء. قال ابن كثير ﷺ: «يعني: ولقد رأى محمدٌ جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله ﷺ على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمئة جناح، ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾، أي: البيِّن، وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء (موضع بمكة)، وهي المذكورة في قوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾

(١) البخاري (٤٦٤١) ومسلم (١٦١).

فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم]، كما تقدم تفسيرُ ذلك وتقريره، والدليلُ أن المرادَ بذلك جبريل ﷺ. والظاهر والله أعلم أن هذه السورة - يعني سورة التكوير - نزلت قبل ليلة الإسراء؛ لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية، وهي الأولى. وأما الثانية وهي المذكورة في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾ [النجم]، فتلك إنما ذكرت في سورة النجم، وقد نزلت بعد سورة الإسراء»[١].

وفي الحديث: «**إِنَّما هُوَ جِبرِيلُ، لَم أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيها غَيرَ هاتَينِ المَرَّتَينِ، رَأَيتُهُ مُنهَبِطًا مِنَ السَّماءِ سادًّا عِظَمُ خَلقِهِ ما بَينَ السَّماءِ إِلَى الأَرضِ**»[٢].

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤﴾، وقرئ هذا الحرف: ﴿بِظَنِينٍ﴾[٣]. ومعنى ﴿بِضَنِينٍ﴾: ببخيل، فنبينا ﷺ لا يبخل بشيء مما نزل عليه، بل يبلِّغ كلَّ ما أوحي إليه، وأما معنى ﴿بِظَنِينٍ﴾، أي: أن هذا الذي جاء به النبي ﷺ ليس ظنًّا، وإنما هو وحي حقيقي يتلى، ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢﴾ [الشعراء].

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥﴾، لما انقطع الوحي عن الرسول ﷺ فترة وحزن النبي ﷺ قال له المشركون: ما نرى إلا أن شيطانك قد جفاك، فرد الله ﷻ عليهم بهذا[٤]. وفي موضع آخر قال ربنا: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١﴾ [الشعراء].

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦﴾، فإلى أين تحيدون عن هذه الحُجَج؟ وأين تذهب بكم عقولكم في التكذيب بالقرآن بعد هذه القواطع؟

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧﴾، ليس للعرب فحسب، وكذلك ما في السنة؛

(١) تفسير ابن كثير (٣٣٩/٨).
(٢) مسلم (١٧٧).
(٣) السبعة في القراءات، ص(٦٧٣).
(٤) يراجع: تفسير الطبري (٤٨٥/٢٤).

فخطاب النبي ﷺ للواحد من أصحابه خطاب للأُمَّة كلها، ومما يدل لذلك حديث مُعاوِيَةَ بنِ قُرَّةَ، عَن أَبِيهِ ﷺ: أَنَّ رَجُلًا كانَ يَأتِي النَّبِيَّ ﷺ وَمَعَهُ ابنٌ لَهُ، فَقالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتُحِبُّهُ؟»، فَقالَ: يا رَسُولَ اللهِ، أَحَبَّكَ اللهُ كَما أُحِبُّهُ. فَفَقَدَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقالَ: «ما فَعَلَ ابنُ فُلانٍ؟»، قالُوا: يا رَسُولَ اللهِ، ماتَ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِيهِ: «أَما تُحِبُّ أَن لا تَأتِيَ بابًا مِن أَبوابِ الجَنَّةِ، إِلَّا وَجَدتَهُ يَنتَظِرُكَ؟»، فَقالَ رَجُلٌ: يا رَسُولَ اللهِ، أَلَهُ خاصَّةً أَم لِكُلِّنا؟ قالَ: «بَل لِكُلِّكُم»[1].

وإذا كان القرآن ذكرًا للعالمين فالسؤال: هل أوصلنا هذا الذكر إلى العالمين؟ يحدثني أحد الإخوة: أن شابًا أمريكيًا أسلم، وجاء يريد العمرة أو الحج، فقال له: ستحاسبون لأنكم لم تبلغوا هذه الدعوة لأبي وأهلي، وقد مات أبوه على كفره. فعلينا أن نسعى بقدر ما أوتينا لتبليغ الإسلام، وانتشار الإسلام كائنٌ لا محالة، لكن المُوفَّق من استعمله الله في طاعته.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨﴾، الدعوة إلى الاستقامة تكررت في القرآن، صريحة وضمنًا كما في هذه الآية، وأنبه هنا إلى ملحظ نبه إليه بعض العلماء، وهو: أن قولك «فلان مستقيم»، أولى من «ملتزم»؛ لأنه لفظ القرآن الكريم، قال ربنا: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢﴾ [هود]، والالتزام مصطلح لا بأس به، ولكن الأولى التزام ما في الكتاب والسنة.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾، هناك مشيئة لله تعالى، ومشيئة أخرى للمخلوق، والآية تثبت المشيئتين، وفي أهل البدع من ألغى مشيئة البشر، وهم الجبرية. وفيهم من أنكر مشيئة الله تعالى، وقالوا: إن الإنسان يخلق فعله، وإن الأمر أُنُف؛ أي: لا قدر، وهم القدرية. والصحيح ما دلَّت عليه الآية:

---

(١) أحمد (٢٠٣٦٥)، وصححه الألباني في أحكام الجنائز، ص(١٦٢).

أن للعبـد مشـيئة وهي تقتـضي قـدرة واختيـارًا، ولذلـك يحاسـب على صنيعـه، وما أكـره عليـه لا يحاسـب بـه، لكـنَّ ذلـك لا يخـرج عـن مشـيئة الله النافـذة، ومـا أجمـل مـا ينسـب إلى الإمام الشـافعي ﷺ:

فما شئتَ كان وإن لم أشأ　　　وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن

فكل ما شاءه الله كان، وليس كل ما شاءه العبد واقعًا، لكن ما يقع منه من الأفعال الاختيارية يقع بمشيئته التي لا تخالف مشيئة الله تعالى، فربُّه يسَّره لما أراد بسابق علمه، وبحكمته التي تقتضي أن يجعل الأمور في مواضعها ﷻ، والله أعلم.

سُورَةُ الانفِطَارِ

بين يدي سورة الانفطار

وهي مكية بلا خلاف[١].

أسماؤها:

هي سورة الانفطار، وتُعرف في حديث رسول الله ﷺ بسورة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾، وتسمى بسورة «المنفطرة»، وسورة ﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾[٢].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها إِحدَى وَثَمانُونَ كلمة، وحروفها ثَلاث مئة وَسَبعَة وَعِشرُونَ حرفًا، وَهِي تسع عشرَة آيَة فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[٣].

ما ورد فيها:

عن ابن عمر ﭫ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأيُ العين فليقرأ:** ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾»[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (١٦٩/٣٠).
(٢) السابق.
(٣) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٦٦).
(٤) الترمذي (٣٣٣٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٨١).

موضوعاتها:

تناولت السورة المباركة قضيَّة اليوم الآخر، وشيئًا مما يكون فيه من الأهوال، وأن الأمر فيه لا يكون إلا لله تعالى، وبيَّنت تذكُّر الإنسان فيه لكل ما جنته يداه، وقام به، وتكذيب الكافر بيوم الدين، وبيان أن مع كل إنسان ملكًا يحفظ قوله وعمله، فمن كان منهم من أصحاب اليمين فهو في نعيم مقيم، ومن فجر منهم فهو في الجحيم.

مقصدها:

إثبات اليوم الآخر، وبيان سبيل النجاة فيه بالإيمان به، وبمراقبة الله تعالى في القول والعمل.

سورة الانفطار: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٥)

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴿٥﴾﴾

هذه السورة تحمل على التأمل في مشهدين:

● الأول: مشهدٌ حاضرٌ نراه وهو إتقان خلق السماء، قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ﴿٧﴾﴾ [الذاريات]، فربنا أقسم في هذه الآية بالسماء ذات الضبط، والإتقان، والنظام في هيئتها ونجومها وشمسها وقمرها.

● والمشهد الثاني: مشهدٌ سوف يقع، ويؤول إليه المشهد الأول، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾﴾، والحديث فيها عما يلحق بها في الآخرة، وما تؤول إليه من حال، لاستقبال حياة مختلفة عن هذه الحياة التي نعيشها. فالعاقل من جعل هذه الحياة الزائلة مطية للوصول إلى السعادة الأبدية في الحياة الباقية.

وهذه السورة اشتملت على بعض ما اشتملت عليه سورة التكوير، إلا أنه في التكوير كان جلُّ الحديث عما يكون في اليوم الآخر، وفي الانفطار عن حال الإنسان فيه. وقد سبقت التكوير سورة الانفطار في النزول وتقدمت عليها بسور عديدة، ولذا فإنك تشعر بالوعظ في سورة التكوير أكثر منه في سورة الانفطار.

وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١﴾، أي: انشقت، كما قال ربنا: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١﴾ [الانشقاق]، وقال: ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ۝١٨﴾ [المزمل]، وهذه هي الحال التي تكون عليها هذه السماء محكمة البناء التي لا نرى لها من فروج.

والسماء خلق عظيم، أقسم الله تعالى بها في مواضع من القرآن، قال ربنا: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١﴾ [البروج]، وقال: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١﴾ [الطارق]، وقال: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥﴾ [الشمس]. وبدأ بالسماء؛ لأنها أكبر المخلوقات التي نراها، وقيل أيضًا: لأنه إذا أُريد هدم شيء كان البدء بأعلاه.

وقوله: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾، الكوكب في اللغة النجم، وليس على هذا يجري اصطلاح الفلكيين، فهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير]، وهذا يُبيِّن أن انتثارها انصباب إلى سفول، وهذا أمر مهول، هذه الكواكب التي تسعدك إذا نظرت إلى السماء الدنيا بزينتها وبهائها، تكون مصدر رعب إذا تناثرت في كل ناحية.

وقوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣﴾، أي: فَجَّرَ اللهُ بَعضَها فِي بَعضٍ، كما نقل ابن كثير عن ابن عباس ﷺ، وَقالَ الحَسَنُ: فَجَّرَ اللهُ بَعضَها فِي بَعضٍ، فَذَهَبَ ماؤُها. وَقالَ قَتادَةُ: اختَلَطَ مالِحُها بِعَذبِها[1]. ومر معنا في سورة التكوير أنها تصير نارًا تأجج، قال ربنا: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ [التكوير]، وتلك حال أخرى، لعلها بعد حال التفجر هذا.

وقوله: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾، أي تحرَّكت، فأخرجت كلَّ من فيها.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٤١/٨).

ثم قال تعالى في جواب الشرط: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٌ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥﴾، وفي هذه قولان: «ما عملته مقدمًا، وهو ما عملته في أول العمر، والعمل الذي أخرته، أي عملته مؤخرًا، أي في آخر مدة الحياة. أو المراد بالتقديم المبادرة بالعمل، والمراد بالتأخير مقابله وهو ترك العمل»(١).

فإن قيل: ألسنا نعلم الآن ذلك؟ الجواب: بلى، ولكن العلم درجات، والنفس تخدع صاحبها، فتحسن له القبيح، أما في الآخرة فيتحقق العلم، وتزول الظنون، وتنكشف الحقائق.

وقد ورد في الحديث عن عائِشَةَ ﵂ أَنَّها قالت: لَمَا رَأَيتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ طِيبَ نَفسٍ قُلتُ: يا رَسُولَ اللهِ ادعُ اللهَ لِي. فَقالَ: «**اللهُمَّ اغفِر لِعائِشَةَ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنبِها، وَما تَأَخَّرَ، وما أَسَرَّت، وَما أَعلَنَت**». فَضَحِكَت حَتَّى سَقَطَ رَأسُها فِي حِجرِها مِنَ الضَّحِكِ، فقالَ لَها رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيَسُرُّكِ دُعائِي؟**»، فَقالَت: وَما لِي لا يَسُرُّنِي دُعاؤُكَ؟ فَقالَ ﷺ: «**واللهِ إِنَّها لَدُعائِي لِأُمَّتِي فِي كل صلاة**»(٢).

---

(١) التحرير والتنوير (١٧٣/٣٠).
(٢) رواه ابن حبان في صحيحه، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط ﵀ (٤٧/١٦).

الآيات (٦ ـ ١٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾، قال ابن كثير رحمه الله: «هَذا تَهدِيدٌ، لا كما يتوهمه بعض الناس مِن أَنَّهُ إرشادٌ إِلَى الجَوابِ؛ حَيثُ قالَ: ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ حَتَّى يَقُولَ قائِلُهُم: غَرَّهُ كَرَمُهُ! بَلِ المَعنَى فِي هَذِهِ الآيَةِ: ما غَرَّكَ يا ابنَ آدَمَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ ـ أَي: العَظِيمِ ـ حَتَّى أَقدَمتَ عَلَى مَعصِيَتِهِ، وَقابَلتَهُ بِما لا يَلِيقُ؟»[١].
والخطاب للكافر والعاصي.

وفي تدبُّر هذه الآية علاج للتسويف والأماني، ومن صفات المؤمن: الجمع بين الإحسان والخوف من الله، بخلاف المنافق؛ فإنه يجمع بين الإساءة وعدم الخوف من ربه، وقد سألت عائشة رضي الله عنها رَسُولَ اللهِ ﷺ عَن هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قالت: أَهُمُ الَّذِينَ يَشرَبُونَ الخَمرَ وَيَسرِقُونَ؟ فقالَ: **«لا يا بِنتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُم يَخافُونَ أَن لا تُقبَلَ مِنهُم،** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون]»[٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٤٢/٨).
(٢) الترمذي (٣١٧٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٦٢).

فهـذه الآية اشـتملت على مناقشـة تبين الحق وتـدل عليه، ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾، كان الواجـب أن تعمـل بمـا يرضيـه عنك، وينجيـك من عذابه، فقد سـبق كرمـه إليـك! أوَ يليـق أن تقابـل إحسـانه بالإسـاءة! والمناقشـة أسـلوب نافع لأولي الألبـاب! تجدهـا في السـنة كثـيرًا، فمن ذلك:

حديـث أَبِي سَـعِيدٍ الخُـدرِيِّ ﷺ قـالَ: لَمّـا أَعطَى رَسُـولُ اللهِ ﷺ مـا أَعطَى مِن تِلـكَ العَطايـا فِي قُرَيـشٍ وَقَبائِـلِ العَـرَبِ، وَلَـم يَكُـن فِي الأَنصـارِ مِنهـا شَيءٌ وَجَدَ هَـذا الـحَيُّ مِـنَ الأَنصـارِ فِي أَنفُسِـهِم، حَتَّى كَـثُرَت فِيهِـمُ القالَةُ حَـتَّى قـالَ قائِلُهُم: لَـقِيَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ قَومَـهُ، فَدَخَـلَ عَلَيـهِ سَـعدُ بنُ عُبـادَةَ، فَقـالَ: يا رَسُـولَ اللهِ، إِنَّ هَـذا الـحَيَّ قَد وَجَـدُوا عَلَيـكَ فِي أَنفُسِـهِم لِما صَنَعـتَ فِي هَـذا الـفَيءِ الَّذِي أَصَبتَ، قَسَـمتَ فِي قَومِـكَ، وَأَعطَيـتَ عَطايـا عِظامًا فِي قَبائِـلِ العَرَبِ، وَلَم يَـكُ فِي هَذا الحَيِّ مِـنَ الأَنصـارِ شَيءٌ، قـالَ: «فَأَيـنَ أَنـتَ مِـن ذَلِـكَ يـا سَـعدُ؟»، قـالَ: يـا رَسُـولَ اللهِ، مـا أَنـا إِلّا امـرُؤٌ مِـن قَـومِي، وَمـا أَنـا؟ قـالَ: «فاجمَـع لِي قَومَـكَ فِي هَـذِهِ الحَظِـيرَةِ». فَخَـرَجَ سَـعدٌ، فَجَمَعَ الأَنصـارَ فِي تِلكَ الحَظِـيرَةِ، قالَ: فَجـاءَ رِجالٌ مِـنَ المُهاجِرِينَ، فَتَرَكَهُـم، فَدَخَلُـوا وَجاءَ آخَـرُونَ، فَرَدَّهُـم، فَلَمّا اجتَمَعُوا أَتاهُ سَـعدٌ فَقالَ: قَـدِ اجتَمَعَ لَـكَ هَـذا الحَيُّ مِـنَ الأَنصـارِ، قـالَ: فَأَتاهُم رَسُـولُ اللهِ ﷺ فَحَمِـدَ اللهَ وَأَثـنَى عَلَيهِ، بِـالَّذِي هُـوَ لَهُ أَهـلٌ، ثُـمَّ قالَ: «يـا مَعشَرَ الأَنصارِ مـا قالَـةٌ بَلَغَتـنِي عَنكُـم؟ وَجِدَةٌ وَجَدتُمُوهـا فِي أَنفُسِـكُم؟ أَلَـم آتِكُم ضُـلّالًا فَهَداكُمُ اللهُ؟ وَعالَـةً فَأَغناكُمُ اللهُ؟ وَأَعـداءً فَأَلَّـفَ اللهُ بَـينَ قُلُوبِكُـم؟»، قالُـوا: بَلِ اللهُ وَرَسُـولُهُ أَمَنُّ وَأَفضَـلُ. قالَ: «أَلا تُجِيبُونَـنِي يـا مَعشَرَ الأَنصـارِ؟»، قالُوا: وَبِمـاذا نُجِيبُـكَ يا رَسُـولَ اللهِ، وَلِلهِ وَلِرَسُـولِهِ المَـنُّ والفَضـلُ. قـالَ: «أَما واللهِ لَو شِئتُم لَقُلتُـم فَلَصَدَقتُـم وَصُدِّقتُم، أَتَيتَنـا مُكَذَّبًا فَصَدَّقنـاكَ، وَمَخـذُولًا فَنَصَرنـاكَ، وَطَرِيـدًا فَآوَينـاكَ، وَعائِـلًا فَآسَـيناكَ، أَوَجَدتُـم فِي أَنفُسِـكُم يـا مَعـشَرَ الأَنصـارِ فِي لُعاعَـةٍ مِـنَ الدُّنيـا، تَأَلَّفـتُ بِهـا قَومًـا لِيُسلِمُوا،

وَوَكَلْتُكُم إِلَى إِسلامِكُم؟ أَفَلا تَرضَونَ يا مَعشَرَ الأَنصارِ أَن يَذهَبَ النّاسُ بِالشّاةِ والبَعِيرِ، وَتَرجِعُونَ بِرَسُولِ اللهِ فِي رِحالِكُم؟ فَوالَّذِي نَفسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَولا الهِجرَةُ لَكُنتُ امرَأً مِنَ الأَنصارِ، وَلَو سَلَكَ النّاسُ شِعبًا، وَسَلَكَتِ الأَنصارُ شِعبًا لَسَلَكتُ شِعبَ الأَنصارِ، اللهُمَّ ارحَمِ الأَنصارَ، وَأَبناءَ الأَنصارِ، وَأَبناءَ أَبناءِ الأَنصارِ». فَبَكَى القَومُ، حَتَّى أَخضَلُوا لِحاهُم، وَقالُوا: رَضِينا بِرَسُولِ اللهِ قِسمًا وَحَظًّا، ثُمَّ انصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتَفَرَّقُوا[1].

ومن ذلك: حديث أبي أمامة ﷺ، قال: إن فتًى شابًّا أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا. فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه! فقال: «**ادنه**»، فدنا منه قريبًا، فجلس. قال: «**أتحبُّه لأمك؟**»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يُحبُّونه لأمهاتهم**». قال: «**أفتحبُّه لابنتك؟**»، قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يُحبُّونه لبناتهم**». قال: «**أفتُحبُّه لأختك؟**»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يُحبُّونه لأخواتهم**». قال: «**أفتُحبُّه لعمتك؟**»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «**ولا الناس يُحبُّونه لعماتهم**». قال: «**أفتُحبُّه لخالتك؟**»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «**ولا الناس يُحبُّونه لخالاتهم**». فوضع يده عليه، وقال: «**اللَّهُمَّ اغفر ذنبه، وطهِّر قلبه، وحصن فرجه**». فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[2].

فإعمال هذا الأسلوب في التوجيه سُنَّة، ومن الخطأ في التربية أن نلجأ إلى أسلوب العقاب دون مناقشة تُقنِع وتَعِظ، أو حوار بيننا وبين أولادنا وتلاميذنا.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾، والفرق بين الثلاثة أن معنى ﴿خَلَقَكَ﴾: أوجدك من العدم، ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾: جعل أعضاءك

---

(١) أحمد (١١٧٣٠)، وحسنه العلامة شعيب الأرنؤوط ﷺ في نسخته المحققة (١٨/٢٥٣).
(٢) أحمد (٢٢٢١١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٧٠).

سوية مهيأة للانتفاع بها، ﴿فَعَدَلَكَ﴾: جعلها متناسقة، فلم يجعل يدًا أطول من يد، وهكذا.

فربنا خلق الإنسان في أحسن تقويم، فهل يتمنى أحد أن يكون في صورة أجمل حيوان؟ أجمل بعير؟ أجمل حصان؟ لا يمكن، فلا أفضل من هذه الصورة التي خلق الإنسان عليها. قال ربنا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين].

وفي الآية إشارة إلى أن الله تعالى شاء أن يجعل مَن خَلَقَ على ما هم عليه من الخِلقة، ولذا جاء الوعيد في بعض الأحاديث على تحويل هذه الصورة التي شاءها إلى غيرها، لما في ذلك من التسخُّط على قدر الله وعدم الرضا بما قسم، مع تفضيله في تلك القسمة على كثير من خلقه!

ثم بيَّن الله تعالى الآفة التي أُتي منها القوم، واغترَّ بسببها الناس فقال: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾﴾، ليس الأمر كما تقولون من أنكم في عبادتكم غير الله مُحِقون، بل العلة تكذيبُكم بيوم الحساب والجزاء.

ولما لم يكن لهذا التكذيب مستند، لم يعن بمناقشته هنا، وذكر الوعيد الذي يُبيِّن عظيم خطره!

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾﴾، ليس المقصود هنا الحفظ الذي يُبقي على النفس، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾ [الطارق]، بل المراد المراقبة وإحصاء العمل. فالملائكة تكتب كل شيء، حتى العزم والنية، ثبت عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قالَ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِك، فَمَن هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَم يَعمَلها كَتَبها اللهُ لَهُ عِندَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، فَإِن هُوَ هَمَّ بِها فَعَمِلَها كَتَبَها اللهُ لَهُ عِندَهُ عَشرَ حَسَناتٍ إِلَى سَبعِ مِئَةِ ضِعفٍ إِلَى أَضعافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَن هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَم يَعمَلها كَتَبَها اللهُ لَهُ عِندَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، فَإِن هُوَ هَمَّ بِها فَعَمِلَها**

كَتَبَهـا اللهُ لَهُ سَـيِّئَةً واحِـدَةً»[١]. وتَـكـتـبُ عمـل القلب، وكلَّ شيء، سـوى الوسوسـة والخاطرة وحديـث النفس.

وفي هذا وعيدٌ للمُكذِّبين بيوم الدين، فكل ما يصدر عنهم محفوظ، ويترتب على الحفظ المؤاخذة، فليحذر العاقل.

وعلى المسلم أن يُراقب ربه، وفي الحديث عن عبد الله بن معاوية ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**ثلاثٌ من فعلهنَّ فقد طَعِم طعمَ الإيمان: مَن عَبَدَ الله وحده وأنه لا إله إلا الله. وأعطى زكاة ماله طيبةً بها نفسه، رافدةً عليه كلَّ عام، ولا يعطي الهرِمَة، ولا الدَّرِنَة، ولا المريضة، ولا الشَّرَط اللئيمة، ولكن من وسط أموالكم، فإن الله لم يسألكم خيره ولم يأمركم بشره. وزكـى نفسه**». فقال رجل: وما تزكية النفس؟ فقال: «**أن يعلم أن الله ﷻ معه حيث كان**»[٢].

قال تعالى: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾، وصفهم الله تعالى بأربع صفات: حافظين، فلا يضل منهم شيءٌ أبدًا. وهم كرامٌ مرتفعٌ محلهم عن الريبة والاعتساف، بل صفتهم أقرب إلى المسامحة، ثم هم كاتبون، يضبطون ما يكتبون، ويعلمون ما يُفعل فلا تكون الكتابة تخرُّصًا بل عن علم.

وهمـا ملـكان في النهـار، وملـكان في الليـل، قال ربنـا: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ [ق]. وهـذان وصفـان للملكـين، فملـك باليمـين رقيـب عتيـد، والآخـر كذلـك ينطبق عليـه هـذان الوصفـان، والرقيـب: المراقب، والعتيـد: الحـاضر، والمجمـوع أربـع ملائكـة لكتابـة الأعمـال، كمـا في الحديث: «**يَتعاقَبُـونَ فِيكُـم مَلائِكَةٌ بِاللَّيـلِ وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهارِ، وَيَجتَمِعُـونَ فِي صَلاَةِ الفَجرِ**

---

(١) البخاري (٦٤١٩)، ومسلم (١٢٨).
(٢) الطبراني في المعجم الصغير، (ص ١١٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٤٦).

وَصَلاَةِ العَصرِ، ثُمَّ يَعرُجُ الَّذِينَ باتُوا فِيكُم، فَيَسأَلُهُم وَهوَ أَعلَمُ بِهِم كَيفَ تَرَكتُم عِبادِي فَيَقُولُونَ تَرَكناهُم وَهُم يُصَلُّونَ، وَأَتَيناهُم وَهُم يُصَلُّونَ»[١].

فعلى المسلم أن يكرم هذين الملكين بعدم المعصية، وأن يستحي من الله تعالى الذي كلفهما بالرقابة! وهذا المعنى أشارت إليه بعض الأحاديث النبوية، قال نبينا ﷺ لرجل: «**أوصيك أن تستحيَ من الله ﷻ كما تستحي رجلًا من صالحي قومك**»[٢]. ولا يستطيع أحد أن يقع في معصية إذا حضر عنده رجل صالح، فكيف به وقد جعل الله عليه ملكين كريمين، فيجب عليه أن يكرم ملائكة ربه.

قال ابن أبي جمرة ؒ: «إذا أكد حق الجار مع الحائل بين الشخص وبينه، وأمر بحفظه، وإيصال الخير إليه، وكف أسباب الضرر عنه، فينبغي له أن يراعي حق الحافظين اللذَين ليس بينه وبينهما جدار ولا حائل، فلا يؤذيهما بإيقاع المخالفات في مرور الساعات، فقد جاء أنهما يُسرّان بوقوع الحسنات ويحزنان بوقوع السيئات، فينبغي مراعاة جنبهما وحفظ خواطرهما بالتكثير من عمل الطاعات والمواظبة على اجتناب المعصية، فهما أولى برعاية الحق من كثير من الجيران»[٣].

وفي الآية ما يشير إلى أهمية العناية بالكتابة وتوثيق معاملاتنا بها، وأن الضبط بالتقييد للأمور مما اقتضته الحكمة.

---

(١) صحيح البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).
(٢) أحمد في الزهد ص(٤٦)، وهو في السلسلة الصحيحة (٧٤١).
(٣) فتح الباري (١٠/٤٤٤).

الآيات (١٣ ـ ١٩)

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾، البر: الطاعة والخير، والبار: الطائع، المستقيم على أمر ربه. قال ربنا: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾، في الدنيا والآخرة، فبركة الطاعة حاصلة في الدنيا، نائلة المؤمن يوم القيامة منها أعظم سعادة.

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾، الفجور يكون بالقلب وبالجوارح. ففجور الجوارح بأن يعمل بجوارحه سوءًا، وفجور القلب الظن السيِّئ بمن هو أهل لحسن الظن، والحسد، والكبر، واحتقار الآخرين، كل هذا نوع من الفجور والعياذ بالله.

﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾﴾، والدين الجزاء، وفيه يجازى كلُّ عامل بعمله، ولهذا سمي بيوم الدين.

﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾، لا يغيب الكفار عن النار أبدًا، والغياب يتحقق بواحد من أمور ثلاثة: الخروج منها، أو الموت فيها، أو فنائها، وكل ذلك منفي في كتاب الله؛ قال ربنا: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فاطر]. وقال: ﴿ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [البقرة]. وقال: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المائدة]، ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف].

ثم فخّم جل ذكره من ذلك اليوم فقال: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ ﴾، إخبارًا بعظمة ذلك اليوم، الذي يَرحم الله فيه من أثبت الخير في صحائف الكرام الكاتبين، ويعذب المسيئين.

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾، قال ربنا: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [عبس].

والأمر فيه لله وحده، كما قال سبحانه: ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]. ففي الدنيا يملّك الله من يشاء من عباده ما يشاء منها، أما في الآخرة فلا يملك أحد من الأمر شيئًا سوى ربنا سبحانه.

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

بين يدي سورة المطففين

وهي من السور التي اختلف في كونها مدنية أم مكية، قال السيوطي ﷺ: «قِيلَ: مَكِّيَّةٌ إلا سِتَّ آياتٍ مِن أَوَّلِها»(١). وقيل: هي مدنية، وسيأتي في الحديث عن سبب نزولها ما يدل على هذا الثاني.

أسماؤها:

تسمى بسورة ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾، وبسورة «المطففين»(٢).

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها مئة وتسع وَسِتُّونَ كلمة، وحروفها سبع مئة وَثَلاثُون حرفًا، وَهِي ثَلاثُونَ وست آيات فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»(٣).

سبب نزولها:

عن ابن عباس ﷺ، قال: «لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلًا، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾، فأحسنوا الكيل بعد ذلك»(٤). وهذا مما يدل على أنها مدنية.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٦٧/١).
(٢) التحرير والتنوير (١٨٧/٣٠).
(٣) البيان في عدِّ آي القرآن، ص(٢٦٧).
(٤) ابن ماجه (٢٢٢٣)، وصححه الشيخ مقبل بن هادي في الصحيح المسند من أسباب النزول، ص(٢٦٦).

موضوعاتها:

تمام الكيل والميزان، والاحترازُ عن البَخس والنُّقصان، والتذكير باليوم الآخر الذي يحمل الإيمان به على الكف عن هذه القبائح، وذكر حال الفُجّار، ومآلهم، وذكر حال أَهل الإيمان.

مقصدها:

السعي إلى النجاة من سبيل الفُجّار ببيان حالهم في الآخرة، والفوزِ بما يكرم الله تعالى به أهل الإيمان.

سورة المطففين: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٦)

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾، ويل: عذاب أو هلاك. وهذا أولى من قول بعضهم: وادٍ في جهنم. ولا يثبت هذا عن ابن مسعود ﷺ، ومن ناحية المتن: كيف يقال: لو سيرت فيه جبال الدنيا لذابت من حرارته، والحجارة جعلها الله تعالى وقود النار؟!

وقد افتتحت سورتان بهذا الوعيد، هذه، وسورة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة]. والسورتان متعلقتان ببيان عاقبة الاعتداء على حرمة الغير.

وإذا كان هذا لمن يُطفف في شيء من حق الخلق، فكيف بمن يطفف في حق الله تعالى؟ كيف بمن يصرف شيئًا من العبادة لغير الله تعالى، فيعبد الله، ويعبد معه غيره من الآلهة؟! وحق الله: أن يُعبد ولا يشرك به شيئًا.

والتطفيف يدل على أن الحق الذي أخذ يسير، فما حال الذين يأخذون شيئًا كثيرًا؟! قال نبينا ﷺ: «**مَنِ اقتَطَعَ حَقَّ امرِئٍ مُسلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَد أَوجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيهِ الجَنَّةَ**» فَقالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِن كانَ شَيئًا يَسِيرًا يا رَسُولَ اللهِ؟ قالَ: «**وَإِن قَضِيبًا مِن أَراكٍ**»[1].

---

(١) مسلم (١٣٧).

وإذا كان هذا في الحق الخاص فكيف بمن تلاعب في حق عام؟! وجعل أُمَّةً من البشر خصماءه يوم القيامة؟! ثبت عن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، قالَ: خَرَجنا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى خَيبَرَ، فَفَتَحَ اللهُ عَلَينا فَلَم نَغنَم ذَهَبًا وَلا وَرِقًا، غَنِمنا المَتاعَ والطَّعامَ والثِّيابَ، ثُمَّ انطَلَقنا إِلَى الوادِي، وَمَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَبدٌ لَهُ، وَهَبَهُ لَهُ رَجُلٌ مِن جُذامٍ يُدعَى رِفاعَةَ بنَ زَيدٍ مِن بَنِي الضُّبَيبِ، فَلَمَّا نَزَلنا الوادِيَ، قامَ عَبدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَحُلُّ رَحلَهُ، فَرُمِيَ بِسَهمٍ، فَكانَ فِيهِ حَتفُهُ، فَقُلنا: هَنِيئًا لَهُ الشَّهادَةُ يا رَسُولَ اللهِ، قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَلَّا والَّذِي نَفسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ الشَّملَةَ لَتَلتَهِبُ عَلَيهِ نارًا أَخَذَها مِنَ الغَنائِمِ يَومَ خَيبَرَ لَم تُصِبها المَقاسِمُ**»، قالَ: فَفَزِعَ النّاسُ، فَجاءَ رَجُلٌ بِشِراكٍ أَو شِراكَينِ فَقالَ: يا رَسُولَ اللهِ، أَصَبتُ يَومَ خَيبَرَ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**شِراكٌ مِن نارٍ أَو شِراكانِ مِن نارٍ**»[1]. فلم يشفع له جهاده، ولا خدمته لنبينا ﷺ، ولا قتل اليهود له، وعذب في شملة تُشترَى بثمن بخس.

والتطفيف في حقوق الناس يتجاوز مكاييل الأطعمة والبضائع وموازينهما، قال السعدي ﷺ: «ودلت الآية الكريمة على أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له، يجب عليه أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات، بل يدخل في عموم هذا الحُجَج والمقالات، فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد منهما يحرص على ماله من الحُجَج، فيجب عليه أيضًا أن يُبيِّن ما لخصمه من الحُجَج التي لا يعلمها، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا الموضع يعرف إنصاف الإنسان من تعصبه واعتسافه، وتواضعه من كبره، وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق لكل خير»[2].

---

(١) البخاري (٤٢٣٤)، ومسلم (١١٥).

(٢) تفسير السعدي، ص(٩١٥).

ونـبي الله شـعيب ﷺ كان يدعـو قومـه إلى تـرك هـذا الذي توعـد الله أصحابه في بدايـة هـذه السـورة المباركة، قـال ربنـا: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٨٥﴾ [الأعراف]. وقـال ربنـا: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٣٥﴾ [الإسراء]، فنـهى عـن التطفيـف في الكيـل، وفي الحقـوق عامـة ببخـس الناس أشـياءهم.

وهذا التقرير الذي جاء في هذه السورة يُعلِّمنا تعظيم حرمة الأموال، فالتلاعب بأموال الناس من أسباب دخول النار، وقطع الصلة بالله رب العالمين. وقد ثبت في صحيح مسلم، أن رجلًا سأل نبينا ﷺ، فقال: «أَرَأَيتَ إن قُتِلتُ فِي سَبِيلِ اللهِ، تُكَفَّرُ عَنِّي خَطايايَ؟ فَقالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَم، إن قُتِلتَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَنتَ صابِرٌ مُحتَسِبٌ، مُقبِلٌ غَيرُ مُدبِرٍ»، ثُمَّ قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَيفَ قُلتَ؟»، قال: أَرَأَيتَ إن قُتِلتُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطايايَ؟ فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَم، وَأَنتَ صابِرٌ مُحتَسِبٌ، مُقبِلٌ غَيرُ مُدبِرٍ، إلّا الدَّينَ، فَإنَّ جِبرِيلَ ﷺ قالَ لِي ذَلِكَ»[1]. فهذا في الدَّين الذي أُخذ برضا صاحبه، فكيف بالتطفيف؟! وكيف بالذي يصدر عنه ذلك ممن لا ينطبق عليه وصف الشهادة؟ ولهذا لا بُدَّ من التحلل من حقوق الناس، قال ﷺ: «مَن كانَت لَهُ مَظلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِن عِرضِهِ أَو شَيءٍ فَليَتَحَلَّلهُ مِنهُ اليَومَ، قَبلَ أَلا يَكُونَ دِينارٌ وَلا دِرهَمٌ، إن كانَ لَهُ عَمَلٌ صالِحٌ أُخِذَ مِنهُ بِقَدرِ مَظلَمَتِهِ، وَإن لَم تَكُن لَهُ حَسَناتٌ أُخِذَ مِن سَيِّئاتِ صاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيهِ»[2]. فعلى من أخذ شيئًا من إخوانه أن يعلم أن قبول التوبة منوط بإرجاعه.

---

(١) مسلم (١٨٨٥).

(٢) البخاري (٢٤٤٩).

والسورة بدأت بالحديث عن تنظيم المعاملات بين الناس وبيان حكم يتعلق بها، فهذه شريعة الله، لم تترك شيئًا إلا بيَّنت حكم الله فيه.

وينبغي أن تكون لهذه القضية ـ حرمة الأموال ـ مساحة عريضة في اهتمامات الدعاة إلى الله تعالى؛ أمرًا بصيانتها، وزجرًا عن التلاعب بها.

ومما جاء في التحذير من التطفيف حديث عَبدِ الله بنِ عُمَرَ ، قالَ: أَقبَلَ عَلَينا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقالَ: «**يا مَعشَرَ المُهاجِرِينَ خَمسٌ إذا ابتُلِيتُم بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَن تُدرِكُوهُنَّ: لَم تَظهَرِ الفاحِشَةُ فِي قَومٍ قَطُّ، حَتَّى يُعلِنُوا بِها، إِلّا فَشا فِيهِمُ الطّاعُونُ، والأَوجاعُ الَّتِي لَم تَكُن مَضَت فِي أَسلافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوا، وَلَم يَنقُصُوا المِكيالَ والمِيزانَ، إِلّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ المَؤونَةِ، وَجَورِ السُّلطانِ عَلَيهِم، وَلَم يَمنَعُوا زَكاةَ أَموالِهِم، إِلّا مُنِعُوا القَطرَ مِنَ السَّماءِ، وَلَولا البَهائِمُ لَم يُمطَرُوا، وَلَم يَنقُضُوا عَهدَ اللهِ، وَعَهدَ رَسُولِهِ، إِلّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيهِم عَدُوًّا مِن غَيرِهِم، فَأَخَذُوا بَعضَ ما فِي أَيدِيهِم، وَما لَم تَحكُم أَئِمَّتُهُم بِكِتابِ اللهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمّا أَنزَلَ اللهُ، إِلّا جَعَلَ اللهُ بَأسَهُم بَينَهُم**»[1].

ثم قال تعالى في وصف المطففين المعنيين: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢﴾، أي: «اكتالوا مِنَ النّاسِ، ﴿يَسۡتَوۡفُونَ﴾ أي: يَأخُذُونَ حَقَّهُم بِالوافِي والزّائِدِ»[2]، فهذا القسط لا يطففون فيه ولا يتسامحون! لكن آفتهم إذا كالوا أو وزنوا للناس! فهنا يخسرونهم بعض حقهم ويبخسونهم شيئًا مما لهم، ودخل في هذا صنيع بعض المسؤولين في بعض الدول، من أخذهم ما لهم وما ليس لهم من شعوبهم كاملًا زائدًا، تحت مسميات ما أنزل بها الله من سلطان؛ كالضرائب ونحوها، ثم لا يجد هذا الشعب أبسط حقوقه فيها! ودخل في هذه المذمة أيضًا: الموظف الذي يأخذ راتبه وحقه كاملًا، ويُفرِّط في واجبه. ودخل تحتها: صاحب العمل الذي ينجز له العمال ما عليهم، ولا يعطيهم حقهم! قال نبينا ﷺ:

---

(١) ابن ماجه (٤٠١٩)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٦).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٣٤٦).

«**لا قُدِّسَت أُمَّةٌ لا يَأخُذُ الضَّعِيفُ فِيها حَقَّهُ غَيرَ مُتعتَعٍ**»[1]، أي: بدون أذى يزعجه. وقد أورد القاسم بن سلام في كتاب الأموال[2]، عن عمر ﷺ، أنه مَرَّ بِشَيخٍ مِن أَهلِ الذِّمَّةِ يَسأَلُ عَلَى أَبوابِ النّاسِ، فَقالَ: «**ما أَنصَفناكَ، أَن كُنّا أَخذنا مِنكَ الجِزيَةَ فِي شَبِيبَتِكَ ثُمَّ ضَيَّعناكَ فِي كِبَرِكَ**»، قالَ: ثُمَّ أَجرَى عَلَيهِ مِن بَيتِ المالِ ما يُصلِحُهُ. وهذا هو العدل.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾﴾؟ والظن هنا بمعنى اليقين، كما في الآية: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة]. ولو آمنوا باليوم الآخر حق الإيمان لما وقعوا في هذه المعاصي التي تجرجر المرء في الآخرة إلى جهنم! والتذكير باليوم الآخر بعد الأمر بالواجبات والنهي عن المحرمات كثير في النصوص؛ وذلك لأنه يحمل على الامتثال، فمن ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء]، ومنه قول الله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور]، منه قول نبينا ﷺ: «**إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَها اللهُ، وَلَم يُحَرِّمها النّاسُ، فَلاَ يَحِلُّ لِامرِئٍ يُؤمِنُ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ أَن يَسفِكَ بِها دَمًا**»[3].

ثم وصف يوم البعث فقال: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾، ليوم عظيم الهول، قال ربنا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج].

---

(١) ابن ماجه (٢٤٢٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٥٧).
(٢) برقم (١١٩).
(٣) البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤).

يقومون فيه لله رب العالمين، منشرين مبعوثين من قبورهم، حفاة، عراة، غُرلًا، بُهمًا، وهذا القيام قيامُ خضوعٍ قهري تشترك فيه المخلوقات.

والقيام تعظيمًا لا ينبغي إلّا لله، فقد ثبت عَن أَبِي مِجلَزٍ، قالَ: خَرَجَ مُعاوِيَةُ عَلَى ابنِ الزُّبَيرِ، وابنِ عامِرٍ فَقامَ ابنُ عامِرٍ وَجَلَسَ ابنُ الزُّبَيرِ فَقالَ مُعاوِيَةُ لِابنِ عامِرٍ: اجلِس فَإِنِّي سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَن أَحَبَّ أَن يَمثُلَ لَهُ الرِّجالُ قِيامًا فَليَتَبَوَّأ مَقعَدَهُ مِنَ النّارِ**»[1]. فدل هذا الحديث على أن الشخص إذا أحب أن يُفعل به ذلك فلا يُقام له، ويحرُم عليه أن يرغب في ذلك. لكن من قام للسلام فلا شيء في ذلك؛ لأن السلام إكرام مشروع، فيتبعه هذا القيام الذي هو لأجل السلام، وقد دلت على ذلك أحاديث عديدة، منها:

حديث عائِشَةَ أُمِّ المُؤمِنِينَ ﵂، قالَت: ما رَأَيتُ أَحَدًا مِنَ النّاسِ كانَ أَشبَهَ بِالنَّبِيِّ ﷺ كَلامًا وَلا حَدِيثًا وَلا جِلسَةً مِن فاطِمَةَ، وَكانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا رَآها قَد أَقبَلَت رَحَّبَ بِها، ثُمَّ قامَ إِلَيها، فَقَبَّلَها، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِها، فَجاءَ بِها حَتَّى يُجلِسَها فِي مَكانِهِ، وَكانَت إِذا أَتاها النَّبِيُّ ﷺ رَحَّبَت بِهِ، ثُمَّ قامَت إليه، فَقَبَّلَتهُ[2]. وكذلك حديث نبينا ﷺ لما قال للأنصار: «**قوموا إلى سيدكم**»[3]، محمول على السلام.

---

(١) أبو داود (٥٢٢٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٥٧).
(٢) البخاري في الأدب المفرد (٩٤٧)، وصححه الألباني في صحيحه (٧٢٩).
(٣) أحمد (١١١٦٨)، وصححه الألباني في السلسلة (٦٧).

الآيات (٧ ـ ١٧)

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

المقصود بالفُجّار: الكفار، وقوله: ﴿لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾ من السجن وهو الحبس والتضييق، فكتابهم قاض بحبسهم والتضييق عليهم في جهنم، وهو كذلك مطروح في مكان ضيق موحش، فالكتاب وأصحابه في سجين.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾﴾: الاستفهام للتهويل والتعظيم.

﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾: أي مسطور مكتوب بَيِّن الكتابة، مثبت فيه أسماء وأعمال أولئك الفُجّار، وقد نص بعض أهل العلم كابن كثير على أن قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ ليس تفسيرًا لسجّين[1]، فإما أن يكون كلامًا مستأنفًا في شأن الكتاب لا الموضع؛ لأنه لا تعلق له بسؤال التعظيم، أو يكون متصلًا بتقدير، والتقدير إما في السؤال فيكون: وما أدراك ما كتاب سجين، أو في الجواب فيكون: موضع كتاب مرقوم، فسجين على ما تقدم: موضع الكتاب وهو أيضًا مكان الكفار، وهؤلاء في أسفل سافلين، حيث يُعذَّبون ويُضيَّق عليهم ويُسجَنون.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٣٥٠).

وقد ذكر بعض العلماء أن هناك علاقة بين مطلع السورة ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ١﴾، وبين هذه الآيات المبتدأة بـ ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ٨﴾، فقد ذكر ربنا أن من أعمالهم التطفيف، فكان عقابهم الويل، ثم ذكر الله نوعًا من التطفيف الذي تلبَّسوا به، وهو أن الله تعالى أنعم عليهم بنعم عظيمة فلم يؤدوا حق الله ﷻ فيها، فهذا نوع من التطفيف العظيم، وهو أعظم من تطفيف المكاييل والموازين، ولهذا فخَّمه فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾، ونحو هذا الاستفهام المراد به التعظيم كثير في القرآن، قال ربنا: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ٣﴾ [الحاقة]. وقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ٢٨﴾ [المدثر]. وقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ١٤﴾ [المرسلات]. والمقصود كما تَوَعَّد المطففين للمكاييل بالويل، فقد توعَّد المطففين للدين المُكذِّبين بما حقُّه أن يعتقد فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ١١﴾، ونصَّ على التكذيب بيوم الدين بعد توعُّد عموم المُكذِّبين، تفظيعًا للتكذيب به، والتعبير بالفعل المضارع: ﴿يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ١١﴾، يفيد أن تكذيبهم به متجدد، ويوم الدين المعروف أنه يوم القيامة، وهو يوم الجزاء والحساب، بعد البعث والنشور.

وقد استنبط بعض العلماء من هذه الآية: أن التعذيب لا يكون إلا على من قامت عليه الحُجَّة، لأن معنى التكذيب رد الخبر، فيفهم منها: أن هؤلاء جاءتهم رسلهم، وأخبروهم ببعث الناس فكذبوهم، وهذا معنى صحيح، فالله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ١٥﴾ [الإسراء]. وفي الحديث: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لا يَسمَعُ بِي أَحَدٌ مِن هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلا نَصرانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَم يُؤمِن بِالَّذِي أُرسِلتُ بِهِ، إِلَّا كانَ مِن أَصحابِ النّارِ**»[1]. ومن لم تبلغه الدعوة كأصحاب الفترة يُمتحَنون في الآخرة. وهذا مقتضى العدل.

---

(١) مسلم (١٥٣).

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾، معتد على الرسل بتكذيب الحق، كثير اقتراف عظائم الآثام، ولا غرو؛ فمن كذَّب بالبعث لم يبال بجزاء، وفَقَدَ أعظمَ وازع.

والتكذيب بيوم الدين محض عدوان؛ فإنه قد قامت البراهين على صدق من أخبر به، ولا حُجَّة عند من يكذب به، قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت]، وتكذيب المُكذِّبين به إنما هو تكذيب دفعهم إليه الإعراض والتعالي عن التفكُّر في الحُجج والآيات، أو الجحود، كما قال ربنا: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل]. وقال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام].

ثم وصف المُكذِّب الكافر فقال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾، والأسطورة: الأكذوبة. أي يزعمون أن القرآن أحاديث كاذبة كالتي تحكى عن الغابرين! قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾[النحل]. والمؤمن يؤمن بما أنزل على رسول الله ﷺ، قال ربنا: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا﴾ [النحل: ٣٠]. وأذكر أني لما كنت أقرأ على شيخي صالح الأنصاري سنة (١٤١٢هـ) في مكة في النحو طرح علي هذا السؤال: في الكفار جاءت الآية: ﴿قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وأما إجابة المؤمنين فقال الله عنها: ﴿قَالُوا۟ خَيْرًا﴾، فلم رُفعت الأولى ﴿أَسَٰطِيرُ﴾، وجاءت إجابة المؤمنين منصوبة ﴿خَيْرًا﴾ والسؤال واحد؟ فقلتُ له: إن الكفار لا يقولون هو من عند الله، ولو قال في حكاية إجابتهم: أساطيرَ لكان مقتضاه إقرارهم بإنزاله مع تنقصه وهذا تناقض؛ لأن التقدير حينها: أنزل أساطير، وهم يكذبون بإنزاله، أما المؤمنون فقالوا: ﴿خَيْرًا﴾ لاعتقادهم أن الله أنزله، فخيرًا يعني: قال ربنا خيرًا، أو أنزل ربنا خيرًا؛ لأنهم يعلمون أنه نزل من عند الله العزيز الحكيم، أما الكافر فتقدير قوله: هو أساطير.

وإنكار الوحي موجود في عصرنا هذا، فمن يلقّب بعميد الأدب العربي - زورًا - ادّعى أن قصة الخليل ﷺ ضربٌ من الخيال! وفي الأُمّة من يدّعي الإسلام ويقول: عصا موسى أسطورة! ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف].

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾، ﴿كَلَّا﴾، أي: ليس الأمر كما قال، وبل تأتي للإضراب والانتقال من معنى إلى معنى، فالقرآن من عند الله، والآخرة حق لا ريب فيها، و﴿رَانَ﴾ أي غطى، قال الطبري ﷺ: «غلب على قلوبهم، وغمرها، وأحاطت بها الذنوب فغطتها، يقال منه: رانت الخمر على عقله، فهي ترين عليه رينًا، وذلك إذا سكر، فغلبت على عقله»(١)، فما اكتسبوه من ذنوب غطى قلوبهم، فلا يخلُص إليها بعده شيء من الحق ينتفعون به. قال حُذَيفَةُ بن اليمان ﷺ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**تُعرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كالحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلبٍ أُشرِبَها، نُكِتَ فِيهِ نُكتَةٌ سَوداءُ، وَأَيُّ قَلبٍ أَنكَرَها، نُكِتَ فِيهِ نُكتَةٌ بَيضاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلبَينِ، عَلَى أَبيَضَ مِثلِ الصَّفا فَلا تَضُرُّهُ فِتنَةٌ ما دامَتِ السَّماواتُ والأَرضُ، والآخَرُ أَسوَدُ مُربادًّا كالكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يَعرِفُ مَعرُوفًا وَلا يُنكِرُ مُنكَرًا، إِلّا ما أُشرِبَ مِن هَواهُ**»(٢). ولذا لا ينبغي التساهل في أمر المعاصي وإن كانت صغائر؛ فإنها إذا كثرت كان الهلاك بسببها، وفي الحديث: «**إيّاكم ومحقراتِ الذنوب، كقوم نزلوا في بطن وادٍ، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم، وإنَّ مُحقَّرات الذنوب متى يُؤخذ بها صاحبها تُهلكه**»(٣)، فلا يزال العبد يقع في هذه الصغائر حتى تغطي ظلمة المعصية نور قلبه، فلا ينتفع بعلم، ويتثاقل في أمر الطاعة، ولا يُوفَّق إلى خير.

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/٢٨٦).
(٢) مسلم (١٤٤).
(٣) أحمد (٣٨١٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٨٩).

﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ١٥ ﴾، والجزاء من جنس العمل، فإنهم لما حجبوا قلوبهم عن الله بأعمالهم، حُجبت عنه أبصارهم، وهذه الآية من الأدلة التي استدل بها أهل السنة على إثبات أن المؤمنين يرون في الآخرة ربهم، فإذا حُجب عنه المشركون نظر إليه المؤمنون، وأنكر ذلك الخوارج والمعتزلة، ووجودهم قليل، ولذا فإن من حكمة العلامة ابن باز ؒ أنه دُعي في فضائية إلى مناظرة أحد كبار الإباضية ممن ينكر هذه العقيدة فامتنع، وقال: لو أتى إليَّ ناقشته، أمّا والحال أن من ينكر هذه العقيدة قليل وربما كان ألحن بحجته مني فهذا قد يكون سببًا في رواج باطله.

والأدلة على تقرير هذه العقيدة كثيرة في القرآن الكريم، قال ربنا: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ٢٣ ﴾ [القيامة]، وناضرة: جميلة، هيأها للنظر إلى وجهه الكريم.

أما الكفار فليسوا أهلًا لذلك النعيم العظيم، ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ١٦ ﴾، وهذا الصَّلِيُّ على التأبيد، وقد دلت عليه الآية السابقة؛ لأن أهل الجنة يرون ربهم، فلو دخلوها يومًا لنظروا إليه، ولما صدق فيهم أنهم محجوبون عن ربهم.

﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ١٧ ﴾، هذا جزاء التكذيب بالحق، يقال لهم ذلك تبكيتًا وإذلالًا، جزاء وفاقًا؛ لتعاليهم عن الحق وإعراضهم عنه.

ثم أخبر الله ﷻ عن أهل كرامته، فقال:

الآيات (١٨ ـ ٢٨)

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِى وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٌۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنًا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

والأبرار جمع بار، والبِر: عمل الخير، والمقصود بهم هنا المؤمنون الموحدون؛ لأن ذكرهم كان في مقابل الفُجّار الكفار.

﴿لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾، أي في مكانٍ عال، موضعًا وقدرًا.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾، يقال فيها ما تقدم عند قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴿٩﴾﴾: ليس المراد تفسير عليين بأنها كتاب مرقوم، وتقدير الكلام على ما قُرِّر هناك.

﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾، قيل: يعني أن عليين مكان عالٍ عنده الملائكة الذين اختارهم الله ﷻ، وهم المقرَّبون الأصفياء. وقيل: إنهم يشهدونه يوم القيامة، أي: يشهدون بما فيه من الأعمال، ولا مانع من دلالة الآية على المعنيين؛ فإنه لا تعارض بينهما.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾، لما ذكر حال الفُجّار ثنَّى بذكر حال الأبرار، والقرآن مشتمل على كثير من هذه المقابلات، ترهيبًا وترغيبًا، فصلاح النفوس يكون بمجموع ذلك.

ونعيم الأبرار نعيمان: نعيم الأنس بالله في الدنيا، ونعيم الجنة في الآخرة. قال ابن القيم رحمه الله: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة. وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة. وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة. أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير، ونحو هذا. وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللَّهُمَّ أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك. وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه. ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد]، وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيبَ عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه. وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة. فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها. وكان بعض العارفين يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف. وقال آخر: مساكين

أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها؟ قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى ومعرفته وذكره»[1].

وقد قيل لشيخنا الشيخ عبد العزيز ابن باز ﷺ: إنك يا شيخ تعمل يوميًا ست عشرة إلى ثمان عشرة ساعة مع تقدم العمر؟ فقال: هذه إعانة من الله ﷻ. قالوا: نعرف أنها إعانة من الله ﷻ، لكن هل هناك سبب؟ فقال: «إذا ارتاحت الروح لم يتعب الجسد».

ودلالة الآية في هذا السياق أظهر في إرادة نعيم الآخرة، وإنما القصد ذكر التلازم. ولهذا قال: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: إلى الله، وإلى ما أعده لهم من النعيم، فإنه لم يذكر فيها منظورًا إليه؛ ليعم كل خير تتمتع بالنظر إليه وجوههم، قال ربنا: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان]. وأجل ذلك: النظر إلى وجه الله تعالى. قال نبينا ﷺ: «**إِذا دَخَلَ أَهلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، يَقُولُ اللهُ ﷻ: تُرِيدُونَ شَيئًا أَزِيدُكُم؟ فَيَقُولُونَ: أَلَم تُبَيِّض وُجُوهَنا؟ أَلَم تُدخِلنا الجَنَّةَ، وَتُنَجِّنا مِنَ النّارِ؟ قالَ: فَيَكشِفُ الحِجابَ، فَما أُعطُوا شَيئًا أَحَبَّ إِلَيهِم مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِم ﷻ**»[2].

﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾، كما كانت وجوههم في الدنيا يظهر عليها رهق الطاعة في السحر، وعند القيام إلى الفجر، وكما كانت تنصب في الطاعة والنسك، وكما كانت تتمعر غضبًا لمحارم الله التي تنتهك! يكرمها الله في الآخرة بأن يُضفي عليها نضرةً، ونعيمًا، وجمالًا، وبهاءً.

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾، أي مغلقٌ مختوم عليه، أو المراد: عاقبة ريحه مسك ختم به[3]، والغرض التنويه بذكر بعض نعيمهم وما أعده الله لهم من الخير.

---

(١) الوابل الصيب، ص(٨١).
(٢) مسلم (١٨١).
(٣) زاد المسير (٤/٤١٧).

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾، أي في هذه الجوائز العظيمة، والمغانم الكريمة، لا في حطام الدنيا! الذي قد يتنافس فيه الناس ثم يحصلونه على كدر وقد لا يحصلونه! فقد يتقدم لوظيفة ما مئة كفء، لكن لا يحصل عليها أكثرهم.

أما التنافس في أمر الآخرة فلا يضيع فيه أجر عامل، ومن المنافسة في أمر الآخرة أن تنافس في أمر دنيوي وتنوي بها خيرًا، فهذه النية تحيل المباح إلى عمل بر يثاب الإنسان عليه. قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: «**أَمَّا أَنا فَأَنامُ وَأَقُومُ، وَأَرجُو فِي نَومَتِي ما أَرجُو فِي قَومَتِي**»[1].

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ٢٧﴾، أي: هذا الشراب الذي مضى ذكره خلط ومُزج بتسنيم، وهو «أَشرَفُ شَرابِ أَهلِ الجَنَّةِ وَأَعلاهُ، ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾، يَشرَبُها المُقَرَّبُونَ صِرفًا، وتُمزَجُ لِأَصحابِ اليَمِينِ مَزجًا»[2]، قالوا: وعُدِّي ﴿يَشْرَبُ﴾ بالباء والأصل أن يعدى بمن؛ لتضمينه معنى الإرواء.

ثم بعد أن فرغ من حال هؤلاء المكرمين وهم أهل البر والطاعة، عاد إلى ذكر حال الفُجّار المجرمين تحذيرًا من الاغترار بهم فقال:

---

(١) مسلم (١٧٣٣).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٣٥٣).

الآيات (٢٩ ـ ٣٦)



﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

ذكر للمجرمين أربع صفات:

● الأولى: أنهم درجوا على الضحك من المؤمنين، وهذا سبيل بعض مجرمي الإعلام اليوم، يسخرون كثيرًا من المؤمنين ومن شعائر دينهم وسنن نبيهم ﷺ، وقد نص الله تعالى على هذا الجرم لشناعته، فهو تعد على حق الله تعالى، وعلى حقِّ عباده، وقد ذكر التوبيخ عليه في آية أخرى فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون].

● الثانية: التغامز، وكل فعل أفهم قدحًا في شخص فهو غمز، فقد يكون ذلك باللسان، أو الحاجب، أو اليد.

● الثالثة: إذا رجع هؤلاء المجرمون إلى أهلهم وذويهم تفكهوا معهم بالسخرية من المؤمنين، وهذه جريمة ثالثة في حق المؤمنين.

● الرابعة: نعت المؤمنين بالضلال، والجهر بالآراء الجائرة فيهم، وإساءتهم بها في وجوههم.

فهذه ظلمات بعضها فوق بعض، وفصّل ربنا في ذكرها؛ تعظيمًا لحقوق أولياء الله، وليعلم المؤمن أنه لن يضيع من حق المؤمن شيء، وسوف يقتصُّ له من أعداء الله أبلغ القصاص، وفي هذا تسلية وعزاء.

وقول ربنا: ﴿فَكِهِينَ﴾، يدل على تلذُّذ المجرمين بما هم فيه من الإجرام، يتلذذون بالسخرية بالمؤمنين! وهذا مرض في بعض الناس، تجده يتلذذ بالخوض في أعراض إخوانه، والواجب على من سمع غيبة أن يذب عن عرض أخيه، لا أن ينشرح لسماع قالة السوء فيه فضلًا عن أن يتفكه بذلك! وإن كان المذكور بالسوء مذنبًا، فإنَّ النبي ﷺ لما رجم ماعزًا ﷺ، قال رجلان أحدهما للآخر: انظر إِلَى هَذا الَّذِي سَتَرَ الله عَلَيهِ، فَلَم تَدَعهُ نَفسُهُ حَتَّى رُجِمَ رَجمَ الكلبِ. فَسَكَتَ رسول الله ﷺ عَنهُما ثُمَّ سارَ ساعَةً، حَتَّى مَرَّ بِجِيفَةِ حِمارٍ شائِلٍ بِرِجلِهِ[1]، فَقالَ: «**أَينَ فُلانٌ وَفُلانٌ؟**»، فَقالا: نَحنُ ذانِ يا رَسُولَ الله. قالَ: «**انزِلا فَكُلا مِن جِيفَةِ هَذا الحِمارِ**». فَقالا: يا نَبِيَّ الله مَن يَأكُلُ مِن هَذا؟ قالَ: «**فَما نِلتُما مِن عِرضِ أَخِيكُما آنِفًا أَشَدُّ مِن أَكلٍ مِنهُ، والَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ الآنَ لَفِي أَنهارِ الجَنَّةِ يَنغَمِسُ فِيها**»[2]. قال النووي ﷺ: «هذا دليل لرد غيبة المسلم الذي ليس بمتهتك في الباطل، وهو من مهمات الآداب، وحقوق الإسلام»[3]. ومن سبل وقاية المجالس عن هذا الداء: أن نملأها بالحديث النافع، فهذا مما يضيق مداخل الشيطان في إغواء أصحابها بالغيبة.

والمعروف عن شيخنا عبد العزيز ابن باز ﷺ أنه إذا دخل بيتًا لمناسبة أمر بعض الجالسين بقراءة آيات، ثم يشرع في تفسيرها، وتذكير الناس بما فيها من الآداب.

---

(١) ارتفعت رجله بسبب انتفاخ بطنه.

(٢) أبو داود (٤٤٢٨).

(٣) شرح النووي على مسلم (٨٩/١٧).

وشيخنا ابن عثيمين ﷺ لا تخلو مجالسه من الإفتاء وتذكير الناس بما يحتاجون إليه من أمور دينهم. وهذا منهج درج عليه كثير من العلماء، فلنقتد بهم؛ فالنفس غالبًا إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴿٣٣﴾﴾، أي: وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين ملزمين بحفظ أعمالهم، حتى يحرصوا على رميهم بالضلال ويشيعون فيهم قالة السوء، وممن لهم شبه بهؤلاء: الذين يتصيدون أخطاء الدعاة، ويتتبعون عورات الهداة، فيُشِيعون عنهم ما يعدونه خطأ! ويزعمون أنَّهم على منهج السلف، في حين منهج السلف بريء من هؤلاء! وقد بيَّنتُ خطر الوقوع في أهل العلم والفضل في رسالتي التي قدم لها العلامة ابن باز ﷺ «لحوم العلماء مسمومة».

فعلى العاقل أن يصون لسانه عن الولوغ في الأعراض ولا سيما أعراض أهل الفضل، والمخذولُ من زُيِّن له سوء عمله، والموفق من وفقه الله.

أعرف أحد المشايخ تجاوز عمره التسعين عامًا، لا تجده في غالب أحواله إلا تاليًا لكتاب الله تعالى، أو يستمع لتلاوته، فسألت ابنًا له مرةً: هل سمعت أن والدك قد اغتاب أحدًا يومًا؟ فقال: اغتاب؟! والله لا يسمح لنا في مجلسه أن نغتاب أبدًا، يقول: انظروا في عيوبكم، ودعوا عباد الله! ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴿٢٥﴾﴾ [سبأ].

﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴿٣٤﴾﴾، فكما تدين تُدان، ضحكوا منهم في الآخرة كما كانوا يضحكون منهم في الدنيا.

﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴿٣٥﴾﴾، يجلسون على الأرائك المرتفعة، وينظرون إلى ما أعده الله لهم من النعيم، ويرون ما أعده الله لمن كانوا يهزؤون منهم بالأمس من النكال.

﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾، قيل هذه الجملة متعلقة بـ: ﴿يَنظُرُونَ﴾، وقيل هو سؤال تقريري مستأنف، وعلى كلا المعنيين هو تقرير وسؤال جوابه نعم! جُزوا بما كانوا يعملون جزاءً من جنس عملهم وعذابًا أليمًا، والثواب أغلب ما يطلق في الخير لكنه قد يطلق على غير ذلك مقابلةً.

وهذا يدل على أن العاقبة للمتقين، وأن الأمور بمآلاتها، قال ربنا: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأعراف]. وقال سبحانه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [آل عمران].

سُورَةُ الانشِقَاق

بين يدي سورة الانشقاق

وهي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

تُسمَّى هذه السورة المباركة بسورة: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ١﴾، وسورة «انشقت»، و«الانشقاق»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها مئة وتسع كَلِمات، وحروفها أَربع مئة وَثَلاثُونَ حرفًا، وَهِي عشرُون وَثَلاث آيات فِي البَصرِيِّ والشامي، وَخمس فِي عدد الباقِينَ»[٢].

ما ورد فيها:

عن ابن عمر ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأيُ العين فليقرأ:** ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾»[٣].

وعن أبي هريرة قال: سجدنا مع النبي ﷺ في: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾»[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٢١٧).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٦٨).
(٣) الترمذي (٣٣٣٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٨١).
(٤) مسلم (٥٧٨).

موضوعاتها:

اليوم الآخر، وشيء مما يقع فيه، وانقسام الناس فيه إلى فريقين كما كانوا في الدنيا.

مقصدها:

الدعوة إلى الفوز في اليوم الآخر، وذلك ببيان حال الكافرين والمؤمنين فيه.

سورة الانشقاق: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٥)



﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾

في مطلع هذه السورة تصوير بياني لمشاهد تبين هول يوم القيامة، وتدعو العاقل إلى الاستعداد قبل حلول الخزي والندامة.

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾، يعني جنس السماء، فالحديث في هذه الآية ليس عن سماء واحدة، بل عن السماوات، قال ربنا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [الطلاق: ١٢]، فهذا مصير السماوات كلها. و﴿ٱنشَقَّتْ﴾: تصدعت. قال ربنا: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾ [الرحمن]. وقال ربنا: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. «وهذا التبديل تبديل صفات، لا تبديل ذات، فإن الأرض يوم القيامة تُسوَّى وتُمدُّ كمَدِّ الأديم، ويُلقى ما على ظهرها من جبل ومعلم، فتصير قاعًا صفصفًا، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، وتكون السماء كالمهل، من شدة أهوال ذلك اليوم ثم يطويها الله تعالى بيمينه»[١].

قال: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾، أذنت: أطاعت أمر ربها لها بالانشقاق فانفطرت، وحق لها انقيادها لخالقها. وهذا حال كل مخلوق، قال ربنا:

---

(١) تفسير السعدي، ص(٤٢٨).

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ [البقرة]، وقال: ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقال: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النحل]، وقال: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبْحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [مريم]، وقال: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس]، وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [غافر]. وهذه آيات تبعث على تعظيم الرغبة فيما عند الله، والزهد في غيره.

﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ ﴾، تمد مدًّا عظيمًا تذهب معه كل هذه الجبال، والأودية، والبحار.

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ ﴾، من الأموات، والكنوز، والمعادن، وغير ذلك مما نعلمه وما لا نعلمه. والسؤال الذي ينبغي إعمال الفكر فيه: أين سنكون بعد ذلك؟ وما مصيرنا الذي ينتظرنا؟ هذا المعنى لا يليق أن نتغافل عنه، بل يجب أن نديم التفكير فيه.

والواجب أن نعتبر بانقياد السماء! ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ ﴾، قال ابن كثير رحمه الله: «وَحُقَّ لَهَا أَن تُطِيعَ أَمرَهُ؛ لِأَنَّهُ العَظِيمُ الَّذِي لا يُمانَع وَلا يُغالَب، بَل قَد قَهَرَ كُلَّ شَيءٍ وَذَلَّ لَهُ كُلُّ شَيءٍ»[1].. فإذا كان هذا شأنها أفيليق أن يُعرِض العبد المكلَّف؟!

وها هنا سؤال: أين جواب الشرط؟ قال ابن الجوزي رحمه الله: «واختلفوا في جواب هذه الأشياء المذكورات على أربعة أقوال: أحدها: أنه متروك، لأن المعنى معروف قد تردَّد في القرآن. والثاني: أنه يا أَيُّها الإنسانُ، كقول القائل: إذا كان كذا وكذا فيا أيها الناس تَرَون ما عملتم، فيجعل: يا أَيُّها الإنسانُ هو الجواب، وتضمر فيه الفاء، فكأنّ المعنى: ترى الثواب والعقاب إذا السماء انشقّت، ذكر القولين الفراء. والثالث: أن في الكلام

(١) تفسير ابن كثير (٨/٣٥٦).

تقديمًا وتأخيرًا، تقديره: يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه إذا السماء انشقت. قاله المبرد. والرابع: أن الجواب مدلول عليه بقوله ﷻ: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾. فالمعنى: إذا كان يوم القيامة لقي الإنسان عمله، قاله الزَّجّاج»[١]. والمعنى قريب على كل التقديرات، والمهم الاعتبار بأحوال هذا الخلق العظيم وما يؤول إليه.

وإنك لتعجب من انقياد هذه المخلوقات لربها، وخضوعها لأمره. قال عز اسمه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت]. فهذه المخلوقات أكبر وأعظم من الإنسان الذي يتمرد كثيرًا على ربه مع شدة ضعفه! فلو سُلِّط عليه أحقر فيروس أضعفه وأرداه! ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر].

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (٤/٤١٩).

الآيات (٦ ـ ١٥)

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾، أي: إنك عامل عملًا تلقى بعده ربك، وملاق نتيجة هذا السعي الذي سعيته[١].

فكل إنسان يسعى ويتعب في هذه الحياة الدنيا مهما كان منعمًا، كما قال ربنا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ [البلد]، أي: في شدة وعناء من مكابدة الدنيا. فلا يخرج من عموم هذه الآية فرد من أفرادها، من حين ولادته وما يلاقيه إلى حين النزع وما يعانيه، وما تتقلب به الأحوال بين ذلك من صحة وسقم، وأقدار كونية عامة كالحر والبرد، أو خاصة كالشوكة والجرح. فالمشقة في الجملة حاصلة. فكل الناس يسعى كما قال نبينا ﷺ: «**كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو؛ فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعتِقُهَا أَو مُوبِقُهَا**»[٢]. فمن الناس من يبيع نفسه لله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ

---
(١) يراجع: زاد المسير (٤/٤٢٠).
(٢) مسلم (٢٢٣).

﴿وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة]، ومنهم من يبيعها للشيطان! فالسعي حاصل من كل حي، لكن السؤال: هل يكون سعيه في موازين حسناته أم سيئاته؟ ولهذا ورد عن أَبِي وَهبٍ الجُشَمِيِّ ﷺ، قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَحَبُّ الأَسماءِ إِلَى اللهِ عَبدُ اللهِ، وَعَبدُ الرَّحمَنِ، وَأَصدَقُها حارِثٌ، وَهَمّامٌ، وَأَقبَحُها حَربٌ وَمُرَّةٌ**»[1]؛ وذلك لأن كل إنسان كاسب، ولكل إنسان هم وعزم. فلا ينبغي الكف أبدًا عما ينفعنا في آخرتنا، وربنا يقول لنبينا ﷺ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾﴾ [الشرح]، أي: فإذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها فَجِدَّ في العبادة، وإلى ربك وحده فارغب فيما عنده.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾، ثبت في الصحيحين، عَن عائِشَةَ ﷺ قالَت: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَن حُوسِبَ يَومَ القِيامَةِ، عُذِّبَ**». فَقُلتُ: أَلَيسَ قَد قالَ اللهُ ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾؟ فَقالَ: «**لَيسَ ذاكِ الحِسابُ، إِنَّما ذاكِ العَرضُ، مَن نُوقِشَ الحِسابَ يَومَ القِيامَةِ عُذِّبَ**»[2].

والآية فيها دليل على إكرام اليمين، فينبغي أن تجعل لكل طيب، كالسلام على الناس، والأكل، والشرب، وتجعل اليسرى لإزالة القذر ونحوه. وقد وردت أحاديث تحث على هذا الأدب، منها:

● حديث الصحيحين: «**إذا أَتَى الخَلاَءَ فَلاَ يَمَسَّ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ، وَلاَ يَتَمَسَّح بِيَمِينِهِ**»[3].

---

(١) البخاري في الأدب المفرد (٨١٤)، وصححه الألباني في صحيحه (٦٢٨).
(٢) البخاري (٤٩٣٩)، ومسلم (٢٨٧٦).
(٣) البخاري (١٥٣)، ومسلم (٢٦٧).

● ومنها: حديث عائشة ﵂، قالت: «كان النبي ﷺ يحب التيمُّن ما استطاع في شأنه كله؛ في طهوره، وترجُّله، وتنعُّله»[١].

● وعن سلمة بن الأكوع ﵁ قال: أَكَلَ رجل عِندَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِشِمالِهِ، فَقالَ: «**كُل بِيَمِينِكَ**»، قالَ: لا أَستَطِيعُ، قالَ: «**لا استَطَعتَ**»، ما مَنَعَهُ إِلّا الكِبرُ، قالَ: فَما رَفَعَها إِلَى فِيهِ[٢].

● وقال عمر بن أَبِي سَلَمَةَ ﵁: كُنتُ فِي حجرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكانَت يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحفَةِ، فَقالَ لِي: «**يا غُلامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُل بِيَمِينِكَ، وَكُل مِمّا يَلِيكَ**»[٣].

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ٩﴾، لما أشفقوا في الدنيا من عذاب الله أمَّن الله خوفهم، فانقلبوا إلى أهليهم مسرورين، قال ربنا: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ٢٤ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦﴾ [الطور]، أما المجرم الذي أعرض عن الله في الدنيا فإن الله يملأ قلبه خوفًا يوم العرض عليه، ﴿فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف]. وثبت عن شداد بن أوس ﵁، أن رسول الله ﷺ قال: قال الله ﷻ: «**وعزتي لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع فيه عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع فيه عبادي**»[٤].

و﴿أَهۡلِهِۦ﴾: زوجه، وذريته المؤمنة، وزوجه من الحور العين، قال ربنا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الطور: ٢١].

---

(١) البخاري (١٦٨)، ومسلم (٢٦٨).
(٢) مسلم (٢٠٢١).
(٣) البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).
(٤) أبو نعيم في الحلية (٦/٩٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (٧٤٢).

ثم قال في حال البؤساء الأشقياء: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠﴾، يعطى كتابه وراء ظهره بشماله، قال ربنا: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥﴾ [الحاقة].

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١﴾، يدعو بالهلاك والثبور.

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾، يدخلها، يُقاسي حرها. والإصلاء يطلق على إيقاد النار، وعلى دخولها والعذاب بها. ومن منا يحتمل نار الدنيا؟ فكيف بنار عظيمة لا يقارن حرها بحرِّ هذه! ولذا كان الناجي منها فائزًا، قال ربنا: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران ١٨٥].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣﴾، إنه كان في أهله في الدنيا مسرورًا مغرورًا، لا يفكر في العواقب، فلما أمن في الدنيا خاف في الآخرة، بخلاف من كان خائفًا من ربه في الدنيا فلا يجمع الله له بين خوفين.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾، أي: يرجع، ويبعث.

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾، عليمًا بحاله، لا يخفى عنه شيء من أمره، عليم بكل جزء تلاشى من بدنه واختلط بهذه الأرض وغاص في أعماقها.

الآيات (١٦ ـ ٢٥)

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾



قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾، أقسم سبحانه هنا ببعض مخلوقاته، وليس يخفى أنه لا يجوز أن يحلف العبد إلا بالله تعالى، وأما الله فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

والشفق: الحمرة التي تكون بعد مغيب الشمس، وبانتهائها ينتهي وقت صلاة المغرب ويبدأ وقت العشاء.

وتلاه القسم بما يتلوه وهو الليل إذا جمعت ظلمته أنواع الدواب وغيرها، فوسق: أي: جمع وحوى، ثم تلاه القسم بما يكون فيه، فقال: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: اكتمل، فكان بدرًا، ثم جاء بجواب القسم بعد ذلك.

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾، والمراد الأحوال والأطوار التي يمر الإنسان بها، قال ربنا: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ [الكهف]، وقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾ ﴾ [الحج]، وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [غافر].

وانظر إلى هذا التناسب بين هذه الأطوار التي يمر كل آدمي بها أو ببعضها، وبين ما ذكر الله قبلها، من الشفق المقسم به، ثم الليل الذي يعقبه، ثم جعل خاتمة ذلك القمر المكتمل الذي يضيء ظلمة الليل، وفي ذلك ما يشعر بأن هذه الأطوار التي يمر بها المسلم متتالية سريعة، تنتهي به إلى فرح، ونور، وسرور.

ثم قال تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢١﴾ ﴾، وتقلب أطوارهم واختلاف أحوالهم دليل على قدرة الله عليهم، وقرب زوالهم، فكيف لا يعتبرون وما لهم لا يؤمنون! أي علو واستكبار هذا؟! وترك السجود مقرون بالخسارة العظيمة في كتاب ربنا، قال سبحانه: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة]. أما الساجدون فهم أهل الجنان والدرجات العلا فيها، قال ربنا: ﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة]. ولما سأل ربيعة الأسلمي رسول الله ﷺ أن يكون مرافقًا له في الجنة قال له: «أَعِنِّي عَلَى نَفسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»[1].

---

(١) مسلم (٤٨٩).

ولعل من المناسب أن أذكر هنا بشيء مما يتعلق بسجود التلاوة:

● **حكمه**: سنة مؤكدة، ومر معنا حديث أبي رافع، قال: صليت مع أبي هريرة ﷺ العَتَمة، فقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، فسجد. فقلت: ما هذه؟! قال: «سجدتُ بها خلف أبي القاسم ﷺ؛ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه»[١].

وقد «اتَّفَقَ الفُقَهاءُ عَلَى أَنَّ سُجُودَ التِّلاوَةِ يَحْصُلُ بِسَجدَةٍ واحِدَةٍ»[٢].

وهذه السجدة ليست صلاة على الصحيح، فيجوز أن تكون إلى غير جهة القبلة، وبدون وضوء.

● **وصفته**: أنه يكبر، ويسجد على الأعضاء السبعة، ويقول في سجوده سبحان ربي الأعلى ثلاثًا، لعموم ما جاء في وصف السجود، ثم يرفع، وقيل: يسجد بدون تكبير، ولا تسليم، وهو الراجح إلّا إن كان في صلاة فيكبر في كل رفع وخفض.

ولا ينبغي وضع المصحف على الأرض إذا أراد السجود، لكن على حائل أو نحوه إكرامًا له.

وسجود التلاوة يصح في أوقات النهي؛ لكونه ليس صلاة.

ومواضعه خمسة عشر موضعًا على الراجح هي:

(١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف].

(٢) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ١٥﴾ [الرعد].

(٣) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ٤٩﴾ [النحل].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٦٨)، ومسلم (٥٧٨).
(٢) الموسوعة الفقهية (٢٢١/٢٤).

(٤) ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء].

(٥) ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم].

(٦) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج].

(٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج].

(٨) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان].

(٩) ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النمل].

(١٠) ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [السجدة].

(١١) ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص].

(١٢) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت].

(١٣) ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم].

(١٤) ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾ [الانشقاق].

(١٥) ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق].

ثـم قـال تعـالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾، إضراب يُبيِّن أن تكذيبهم بالقرآن المخبر بما تقدم في أول السورة بأحوال القيامة هو الذي صدهم، ثم توعدهم فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾، أي: بما يكتمون في صدورهم من التكذيب وما يُضمرونه من السوء، وعلمه تعالى به يقتضي محاسبتهم عليه.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، قال ابن كثير ﷺ: «﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾ أي: فَأَخبِرهُم ـ يا مُحَمَّدُ ـ بِأَنَّ اللهَ ﷻ قد أَعَدَّ لَهُم عذابًا أَلِيمًا. وَقولُهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هَذا استِثناءٌ مُنقَطِعٌ، يَعنِي لَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنوا ـ أَي: بِقُلُوبِهِم ـ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِجَوارِحِهِم ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ أَي: فِي الدّارِ الآخِرَةِ. ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾ قالَ ابنُ عَبّاسٍ: غَيرُ مَنقُوصٍ. وَقالَ مُجاهِدٌ، والضَّحّاكُ: غَيرُ مَحسُوبٍ»(١).

(١) تفسير ابن كثير (٣٦٢/٨).

سُورَةُ البُرُوجِ

بين يدي سورة البروج

هي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

سورة «السماء ذات البروج»، و«سورة ﴿ٱلْبُرُوجِ﴾»[٢].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها مئة وتسع كَلِمات، وحروفها أَربع مئة وَثَلاثُونَ حرفًا، وهي اثنَتانِ وَعِشرُونَ آيَة فِي جَمِيع العدَد»[٢].

ما ورد فيها:

كانَ مُعاذ بن جبل ﷺ يُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ يَرجِعُ إِلَى قَومِهِ فَيُصَلِّي بِهِم، فأخَّر النَّبِيُّ ﷺ الصَّلاةَ ذاتَ لَيلَةٍ، فَرَجَعَ مُعاذٌ فأمَّهُم فَقَرَأَ بِسُورَةِ البَقَرَةِ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ رَجُلٌ مِنَ القَومِ انحَرَفَ إِلَى ناحِيَةِ المَسجِدِ فَصَلَّى وَحدَهُ فَقالُوا: نافَقتَ! قالَ: لا، وَلَآتِيَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَلَأُخبِرَنَّهُ. فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقالَ: إِنَّ مُعاذًا يُصَلِّي مَعَكَ، ثُمَّ يرجِعُ فيؤُمُّنا، وَإِنَّكَ أَخَّرتَ الصَّلاةَ البارِحَةَ، فَجاءَ فأَمَّنا، فَقَرَأَ بِسُورَةِ البَقَرَةِ، وَإِنِّي تَأَخَّرتُ عَنهُ فَصَلَّيتُ وَحدِي يا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّا نَحنُ أَصحابُ نَواضِحَ، وَإِنَّا نَعمَلُ بِأَيدِينا.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٢٣٦).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٦٩).

فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يا مُعاذُ أفتّانٌ أنتَ؟ اقرأ بهم سورة: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾»(١).

والقصة التي وردت الإشارة إليها في مطلع هذه السورة المباركة فيها بضعة أقوال، أصحها ما جاء مفصلًا في الصحيح عن صهيب بن سنان رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «كانَ مَلِكٌ فيمَن كانَ قبلَكم وَكانَ لَهُ ساحِرٌ فَلَمّا كَبِرَ قالَ للمَلِكِ: إنِّي قَد كَبِرتُ فابعَث إلَيَّ غُلامًا أُعَلِّمهُ السِّحرَ؛ فَبعثَ إلَيهِ غُلامًا يُعَلِّمُهُ، وَكانَ في طَرِيقِهِ إذا سَلَكَ راهِبٌ، فَقعدَ إلَيه وسَمِعَ كَلامَهُ فَأعجَبَهُ، وَكانَ إذا أَتَى السّاحِرَ، مَرَّ بالرّاهِبِ وَقَعدَ إلَيه، فَإذا أَتَى السّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكا ذلِكَ إلَى الرّاهِب، فَقالَ: إذا خَشيتَ السّاحِرَ، فَقُل: حَبَسَنِي أَهلِي، وَإذا خَشِيتَ أهلَكَ، فَقُل: حَبَسَنِي السّاحِرُ(٢)، فَبَينَما هُوَ على ذلِكَ إذ أَتَى عَلَى دابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَد حَبَسَتِ النّاسَ، فَقالَ: اليَومَ أعلَمُ السّاحرُ أفضَلُ أم الرّاهبُ أفضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا، فَقالَ: اللهُمَّ إن كانَ أمرُ الرّاهِبِ أَحَبَّ إلَيكَ مِن أمرِ السّاحِرِ فاقتُل هذِهِ الدّابَّةَ حَتَّى يَمضِيَ النّاسُ، فَرَماها فَقتَلَها ومَضَى النّاسُ، فَأَتَى الرّاهبَ فَأَخبَرَهُ. فَقالَ لَهُ الرّاهبُ: أَي بُنَيَّ أَنتَ اليَومَ أفضَل مِنِّي قَد بَلَغَ مِن أَمرِكَ ما أَرَى، وَإنَّكَ سَتُبتَلَى، فَإن ابتُلِيتَ فَلاَ تَدُلَّ عَلَيَّ؛ وَكانَ الغُلامُ يُبرِىءُ الأَكمَهَ والأَبرصَ، ويداوي النّاسَ مِن سائِرِ الأَدواء. فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلملِكِ كانَ قَد عَمِيَ، فأتاه بَهَدايا كَثيرَةٍ، فَقالَ: ما ها هُنا لَكَ أَجمعُ إن أنتَ شَفَيتَنِي، فَقالَ: إنِّي لا أَشفِي أَحَدًا إنَّما يَشفِي اللهُ تَعالَى، فَإن آمَنتَ بالله تَعالَى دَعَوتُ اللهَ فَشفاكَ، فَآمَنَ بالله تَعالَى فَشفاهُ اللهُ تَعالَى، فَأَتَى المَلِكَ فَجَلَس إلَيهِ كَما كانَ يَجلِسُ، فَقالَ لَهُ المَلِكُ: مَن رَدّ عَلَيكَ بَصَرَكَ؟ قالَ: رَبِّي، قالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيري؟ قالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَم يَزَل يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الغُلامِ، فَجِيء بالغُلامِ، فَقالَ لَهُ المَلِكُ: أي بُنَيَّ، قَد بَلَغَ مِن سِحرِكَ ما تُبرِىء الأَكمَهَ والأَبرَصَ،

(١) ابن حبان في صحيحه (١٨٣٧)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٩٥).
(٢) «جاز ذلك إن قيل بإسلامه واستقامته؛ لأنه رأى أن مصلحة تخلفه عنده تزيد على مفسدة تلك الكذبة، فهو نظير الكذب لإصلاح الخصمين، أو أنه من باب الكذب لإنقاذ المحترم من التعدي عليه بالضرب» [دليل الفالحين (١/١٨٧)].

وتَفعَلُ وتَفعَلُ! فَقالَ: إنِّي لا أَشفي أحَدًا، إنَّما يَشفِي الله تَعالَى. فَأَخَذَهُ فَلم يَزَل يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ؛ فَجِيء بالرَّاهِبِ فَقيلَ لَهُ: ارجِع عَن دِينك، فَأَبَى، فَدعا بِالمِنشارِ فَوُضِعَ المِنشارُ في مَفرق رَأسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَليسِ المَلِكِ فقيل لَهُ: ارجِع عَن دِينِكَ، فَأَبَى، فَوضِعَ المِنشارُ في مَفرِق رَأسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بالغُلامِ فقيلَ لَهُ: ارجِع عَن دِينكَ، فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِن أصحابهِ، فَقالَ: اذهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذا وَكَذا فاصعَدُوا بِهِ الجَبَل، فَإِذا بَلَغتُم ذِروَتَهُ فَإِن رَجَعَ عَن دِينِهِ وَإِلّا فاطرَحُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الجَبَلَ، فَقالَ: اللهُمَّ اكفنيهم بِما شِئتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الجَبلُ فَسَقَطُوا، وَجاءَ يَمشي إِلَى المَلِكِ، فَقالَ لَهُ المَلِكُ: ما فَعَلَ أصحابُكَ؟ فَقالَ: كَفانِيهِمُ الله تَعالَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِن أَصحابِهِ فَقالَ: اذهَبُوا بِهِ فاحمِلُوهُ في قُرقُورٍ وتَوَسَّطُوا بِهِ البَحرَ، فَإِن رَجَعَ عَن دِينِهِ وإِلاَّ فاقذِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ، فَقالَ: اللهُمَّ اكفِنيهم بما شِئتَ، فانكَفَأَت بِهِمُ السَّفينةُ فَغَرِقُوا، وَجاء يَمشي إِلَى المَلِكِ. فَقالَ لَهُ المَلِكُ: ما فعلَ أصحابُكَ؟ فَقالَ: كَفانيهمُ الله تَعالَى. فَقالَ لِلمَلِكِ: إِنَّكَ لَستَ بقاتِلي حَتَّى تَفعَلَ ما آمُرُكَ بِهِ. قالَ: ما هُوَ؟ قالَ: تَجمَعُ النَاسَ في صَعيدٍ واحِدٍ وتَصلُبُني عَلَى جِذعٍ، ثُمَّ خُذ سَهمًا مِن كِنانَتي، ثُمَّ ضَعِ السَّهمَ في كَبدِ القَوسِ ثُمَّ قُل: بسم الله ربِّ الغُلامِ، ثُمَّ ارمِنِي، فَإِنَّكَ إذا فَعَلتَ ذلِكَ قَتَلتَني، فَجَمَعَ النَاسَ في صَعيد واحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهمًا مِن كِنانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهمَ في كَبِدِ القَوسِ، ثُمَّ قالَ: بِسمِ اللهِ ربِّ الغُلامِ، ثُمَّ رَماهُ فَوقَعَ في صُدغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ في صُدغِهِ فَماتَ، فَقالَ النَاسُ: آمَنّا بِرَبِّ الغُلامِ، فَأُتِيَ المَلِكُ فقيلَ لَهُ: أَرَأَيتَ ما كُنتَ تَحذَرُ قَد والله نَزَلَ بكَ حَذَرُكَ. قَد آمَنَ النَاسُ. فَأَمَرَ بِالأُخدُودِ بأفواهِ السِّكَكِ فَخُدَّت، وأُضرِمَ فيها النِّيرانُ وَقالَ: مَن لَم يَرجِع عَن دِينِهِ فَأَقحِموهُ فيها، أَو قيلَ لَهُ: اقتَحِم فَفَعَلُوا حَتَّى جاءت امرَأَةٌ وَمَعَها صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقاعَسَت أَن تَقَعَ فيها، فَقالَ لَهَا الغُلامُ: يا أُمه اصبِري فَإِنَّكِ عَلَى الحَقِّ!»[(١)].

---

(١) مسلم (٣٠٠٥).

موضوعاتها:

اشتملت على قصة ثلة مؤمنة عادتها فئة باغية أرادت صدها عن دينها بالحرق والتعذيب، فصبرت الجماعة المؤمنة، ولم تأبه لعدوان قومها. وبيَّنت السورة أن العاقبة للمؤمنين، وأن الله منتقم ممن عادى أولياءه، وضرب مثالين على ذلك، ثم ختمت السورة ببيان مكانة القرآن العظيم.

مقصدها:

تثبيت المؤمنين، قال ابن عاشور ﷺ: «ابتدئت أغراض هذه السورة بضرب المثل للذين فتنوا المسلمين بمكة بأنهم مثل قوم فتنوا فريقًا ممن آمن بالله، فجعلوا أخدودًا من نار لتعذيبهم؛ ليكون المثل تثبيتًا للمسلمين وتصبيرًا لهم على أذى المشركين وتذكيرهم بما جرى على سلفهم في الإيمان من شدة التعذيب الذي لم ينلهم مِثلُه ولم يصدهم ذلك عن دينهم»[1].

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٢٣٦).

سورة البروج: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٩)

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾، البروج: منازل الشمس والقمر، وهي اثنا عشر برجًا، وقيل: الخَلق الحسن، وقيل: الكواكب العظيمة[1]. وهذا الاختلاف يُعَدُّ من اختلاف التنوع، لأن اللفظ يشمل ذلك كله، وفسر ببعض أفراده.

وبمناسبة ذكر البروج يحسن التنبيه على ما انتشر في المجلات والصحف ومواقع التواصل، مما يسمى بمعرفة حظ الإنسان من خلال برجه! وبعضهم يرسل إلى القائمين على أمر تلك المنصات الإعلامية: برجي كذا، فيقال له: ستجد كذا وكذا، ولا ريب أن تصديق هذا كفر بالله، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ قالَ: «**مَن أَتَى كاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِما يَقُولُ فَقَد بَرِئَ مِمّا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ**»[2].

قال الشيخ ابن عثيمين ﷺ: «الذي يأتي إلى الكاهن ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) يراجع تفسير ابن كثير (٨/٣٦٤).
(٢) أبو داود (٣٩٠٤)، وهو في السلسلة الصحيحة (٣٣٨٧).

● القسم الأول: أن يأتي إلى الكاهن فيسأله من غير أن يصدقه، فهذا محرم، وعقوبة فاعله ألا تقبل له صلاة أربعين يومًا، كما ثبت في صحيح مسلم، أن النبي ﷺ قال: «**مَن أَتَى عَرّافًا فَسَأَلَهُ عَن شَيءٍ لَم تُقبَل لَهُ صَلاةٌ أَربَعِينَ لَيلَة**».

● القسم الثاني: أن يأتي إلى الكاهن فيسأله ويصدقه بما أخبر به، فهذا كفر بالله ﷻ، لأنه صدقه في دعوى علمه الغيب، وتصديق دعوى علم الغيب تكذيب لقول الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل ٦٥]. ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**من أتى كاهنًا فصدّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**».

● القسم الثالث: أن يأتي إلى الكاهن فيسأله ليُبيِّن حاله للناس، وأنها كهانة وتمويه وتضليل، وهذا لا بأس به، ودليل ذلك أن النبي ﷺ أتى ابن صياد، فأضمر له النبي ﷺ شيئًا في نفسه، فسأله النبي ﷺ ماذا خَبَّأ له؟ فقال: الدُّخ. يريد الدُّخان»[1].

فالغيب لله، لا يعلمه سواه، ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢﴾، قسم بيوم القيامة.

وقوله: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾، سَأَلَ رَجُلُ الحَسَنَ بنَ عَلِيٍّ ﷺ عَن: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾، فقال: «الشَاهِدَ مُحَمَّدُ ﷺ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾ [النساء]، والمَشهُودُ يَومُ القِيامَةِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣﴾ [هود]»[2].

وقيل غير ذلك. والآيات إجمالًا تشير إلى موعد القصاص العادل من الظالم، فمن خدَّد الأخاديد وأضرم النيران فيها، وحرق بنارها المؤمنين، أنى له أن يفلت من بأس الله وحسابه!

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين (٢/١٨٤).
(٢) تفسير الطبري (٣٠/٨٣).

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤﴾، أي: لُعِن. واللعن الطرد والإبعاد من رحمة الله، واللعن على جهة العموم جائز لا شيء فيه، وجنسه في القرآن الكريم كثير، فيُلعن الظالمون، والكافرون، ومن ورد لعنهم في النصوص، وأما اللعن على جهة التعيين فإن ورد في حقه نص؛ كإبليس، فلا إشكال في جوازه، أما لعن من لم يرد في حقه نص، كزيد شارب الخمر فلا يجوز؛ لحديث الفاروق ﷺ، أن رجلًا على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يلقب حمارًا، وكان يُضحِك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأُتي به يومًا فأمر به فجُلد، قال رجل من القوم: اللَّهُمَّ العنه، ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبي ﷺ: **«لا تلعنوه؛ فو الله ما علمتُ إلا أنه يحب الله ورسوله»**[1]. قال ابن تيمية ﷺ: «واللعنة تجوز مطلقًا لمن لعنه الله ورسوله، وأما لعن المعيَّن فإن علم أنه مات كافرًا جازت لعنته، وأما الفاسق المعين فلا تنبغي لعنته؛ لنهي النبي ﷺ أن يلعن عبد الله بن حمار الذي كان يشرب الخمر، مع أنه قد لعن شارب الخمر عمومًا»[2]. ولا ينبغي أن يُعوِّد الإنسان لسانه ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥﴾، أشعلوا النيران، وجعلوا فيها ما يزيدها اشتعالًا؛ لتعذيب المؤمنين، وحرقهم، والتخلص منهم ومن دينهم، وقد بيَّن الله تعالى في آيات أن ديدنَ المشركين بسطُ أيديهم بالسوء للمؤمنين تنكيلًا وتعذيبًا إذا ظهروا عليهم، وفي هذه السورة مشهد من تلك المشاهد، وفي صفحات التاريخ القديم والحديث مشاهد أخرى مؤلمة.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦﴾، جلسوا حولها؛ ليشهدوا عند الملك أنهم أدَّوا المطلوب كله.

---

(١) البخاري (٦٧٨٠).
(٢) مجموع الفتاوى (٦/٨١١).

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾، شهود ولا يحرك فيهم ذلك ساكنًا، كما يشهد العالم اليوم إبادة فئام من المسلمين، ولا يحرك ذلك ساكنًا! وشهود: يشهد بعضهم لبعض عند طاغوتهم أنهم حضروا حرقهم!

فهذه حال الطغاة الظالمين، وليس ذلك بغريب على الكافرين، فقد أخبرنا ربنا عن عداوتهم في آيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝١١٨ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١١٩ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝١٢٠﴾ [آل عمران]. وواقعنا أصدق شاهد، فما فعله الكفار في أفغانستان، والعراق، والشيشان، وسوريا، وإفريقيا الوسطى، وبورما، وغيرها من البلاد، صور تحكي ذلك التاريخ المُثبت في هذه الآيات.

﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾، هذه جريمتهم؛ أنهم آمنوا بالله ربًّا، وانقادوا لشريعته، واستسلموا له، كما قال ربنا: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ۝٥٩﴾ [المائدة]. أي: لم يعذَّبوا لشيء سوى أنهم آمنوا بالله تعالى. هذه جريمتهم الكبرى عند الكافرين: أن يوحدوا الله! كما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣

﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾ [يس].

وفي قوله ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ إشارة إلى انتصاره من الظلمة، فهو القوي الذي لا يُغالَب، وفي قوله: ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾، إشارة إلى إكرامه أولياءه بما يوجب الحمد له، فهو المحمود لذاته ولأفعاله، الذي يحمده أولياؤه، والحمد: هو وصف المحمود بصفات الكمال على جهة المحبة والتعظيم.

ثم قال: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٩﴾، وهذه فيها أيضًا عزاء للثلة المؤمنة، فلن يضيع فعل قومهم معهم سدى، بل لا بُدَّ أن يأخذ الله الحق لهم ممن ظلمهم، فإن الله لا يعجزه شيء، له ملك السماوات والأرض، وهو سبحانه على كل شيء شهيد، لا يخفى عليه شيء، مطَّلع على ما حلَّ بأوليائه.

الآيات (١٠ ـ ٢٢)

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾، الفتنة هنا التحريق بالنار، وكان غرضها الفتنة عن الدين، وأخطر فتنةٍ الصدُّ عن دين الله بإثارة الشبهات حوله، قال ربنا: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، أي: يصدوك. وهذا المقصود قد يُتذرَّع إليه بالقتل والفتك، وقد يُتذرَّع إليه بأساليب ناعمة، قد تكون أشد فتكًا، فالقتل قد يصبر عليه المؤمن، ومهما يكن من شيء فلن يغتر أحد بالقاتل، أما الأساليب الأخرى فقد تخدع كثيرًا، كم من قنوات تنفق عليها المليارات ليس لها همٌّ سوى فتنة الناس! قنوات أنشأها أقوام من بني جلدتنا! ويتكلمون بألسنتنا! لا همَّ لها سوى إشاعة الفاحشة، والله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور]،

وقول نبينا ﷺ: «**مَن دَعا إِلَى هُدًى، كانَ لَهُ مِنَ الأَجرِ مِثلُ أُجُورِ مَن تَبِعَهُ، لا يَنقُصُ ذَلِكَ مِن أُجُورِهِم شَيئًا، وَمَن دَعا إِلَى ضَلالَةٍ، كانَ عَلَيهِ مِنَ الإِثمِ مِثلُ آثامِ مَن تَبِعَهُ، لا يَنقُصُ ذَلِكَ مِن آثامِهِم شَيئًا**»[١].

وكم في قول ربنا: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ من عبرة! «قال الحسن البصري ﵀: انظر إِلَى هَذا الكَرَمِ والجُودِ، قَتَلُوا أَولِياءَهُ وَهُوَ يَدعُوهُم إِلَى التَّوبَةِ والمَغفِرَةِ! والآياتُ فِي هَذا كَثِيرَةٌ جِدًّا»[٢]. فما أوسع رحمة الله تعالى! فلقد فتح باب التوبة للكافرين، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان]. وقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال].

وفتح باب التوبة لمن قال: أنا ربكم الأعلى! قال سبحانه: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه].

وفتحه للنصارى، فقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة].

وللمنافقين، فقال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء].

ومن نصوص هذا الباب حديث أَبِي هُرَيرَةَ ﵁، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**يَضحَكُ اللهُ إِلَى رَجُلَينِ يَقتُلُ أَحَدُهُما الآخَرَ يَدخُلانِ الجَنَّةَ، يُقاتِلُ هَذا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَيُقتَلُ، ثُمَّ**

---

(١) مسلم (٢٦٧٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (١٠٧/٧).

يَتُوبُ اللهُ عَلَى القاتِلِ فَيُستَشهَد»[1].

وهـذا يعلمنـا الحـرص على هداية الناس جميعًا، والسـعي إلى حملهـم على الرجوع إلى ربهـم من باب التوبة الذي لا يُسَـدُّ إلى أن تطلع الشـمس من مغربهـا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ١١﴾، وأي فوز أعظم من الفوز برتبة الشهداء؟! ولم يرد نعت الفوز بكونه كبيرًا إلا في هذه الآية.

وفي الآيات ما يدل على أن النصر يكون بظهور المنهج، والثبات على المبدأ، ولو ذهبت الأنفس، ومات أصحابها.

والعطف في الآية لا يدل على التغاير، فالعمل داخل في مسمى الإيمان، وعطفه عليه من باب عطف الخاص على العام.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢﴾، أي: أخذه وانتقامه لأوليائه. ولذا يجب على المسلم أن يحذر من الظلم؛ لئلا يعرض نفسه للنقمة في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ١٣﴾، وفي موضع آخر: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١١﴾ [الروم: ١١]، فالمعنى: «أَي: مِن قُوَّتِهِ وَقُدرَتِهِ التامَّةِ يُبدِئُ الخَلقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ كَما بَدَأَهُ، بِلا مُمانِعٍ وَلا مُدافِعٍ»[2]، وفي هذا ما يحقق ما قبله من تمام قدرته على الانتصار من الظالمين والبطش الشديد بهم.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ١٤﴾، الغفور: الذي يكثر من أن يغفر ذنوب عباده، فيعفو عنهم، ويستر عليهم. والودود: الذي يُحِب ويُحَب.

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ١٥﴾، أي: صاحب العرش. و﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ قرئ بالخفض والرفع، وهو بالخفض نعت للعرش، وبالرفع نعت للرب ﷻ، و﴿ٱلْمَجِيدُ﴾: العظيم،

---

(١) البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٨٩٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/٣٧٢).

ونعت خلق الله بالعظيم دليل على عِظَمِ عظمة العظيم. وفي الحديث: «**ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة**»[١]. والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، فالمجيد: العظيم الذي له الكمال المطلق في العظمة، وقراءة الرفع تدل على نعت الله تعالى بذلك تصريحًا، وقراءة الخفض اقتضاءً وتلويحًا.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾، لا يعجزه شيء سبحانه. ثم ذكر من دلائل ذلك في الدنيا فقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ١٨﴾، أهلكهم الله بذنوبهم، قال ربنا: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ١٧﴾ [فصلت: ١٧]. فالدلائل على قدرة الله وانتصاره من المُكذِّبين حاصلة لكن الإعراض عن الآية آفة تردي القرون اللاحقة وتلحقها بالمهلكة الغابرة:

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ١٩﴾، ﴿فِي﴾، تدل على أنهم أوغلوا في هذا الطريق، ومرنوا عليه، فهم غارقون في التكذيب.

﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ٢٠﴾، أحاط بهم علمًا وقدرة، لا يخفى عليه منهم ومن أعمالهم وأحوالهم شيء، متى شاء أخذهم، وإنما هم في المُهلة، وفي ذلك تهديد شديد؛ فالقوم إنما يضرون بالتكذيب أنفسهم، أما القرآن فمحفوظ ظاهر الحُجَّة.

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ٢٢﴾، قرآن عظيم، لا يحرف ولا يغير.

---

(١) رواه محمد بن أبي شيبة في كتاب العرش (١١٤/١)، وهو في السلسلة الصحيحة برقم (١٠٩).

سُورَةُ الطَّارِقِ

بين يدي سورة الطارق

وهي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

سورة «السماء والطارق»، و﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، و«سورة الطارق»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها إِحدَى وَسِتُّونَ كلمة، وحروفها مئتان وَتِسعَة وَثَلاثُونَ حرفًا، وَهِي سِتَّ عشرَة آيَة فِي المدنِي الأول وَسبع عشرَة فِي عدد الباقِينَ، اختلافها آيَة: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾، لم يعدها المدنِي الأول وعدَّها الباقُونَ»[٢].

موضوعاتها:

«إثبات إحصاء الأعمال والجزاء على الأعمال، وإثبات البعث بنقض ما أحاله المشركون ببيان إمكان إعادة الأجسام، والتذكير بدقيق صنع الله وحكمته في خلق الإنسان، والتنويه بشأن القرآن»[٣].

مقصدها:

تثبيت النبي ﷺ، ووعده بأن الله منتصر له، وبث روح المراقبة بالتذكير بالحَفَظة والبعث بعد الموت.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٢٥٧).
(٢) البيان في عدِّ آي القرآن، ص(٢٧٠).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/٢٥٧) بتصرف يسير.

سورة الطارق: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ١٠)

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾﴾، أقسم ربنا باثنين من مخلوقاته في هذه الآية، بالسماء، والطارق، وعرَّف الطارق بالآية التي تلتها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾، أي: المُتَّقد، المضيء. قال ابن كثير ﵀: «قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: المُضِيءُ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: يَثقُبُ الشَّياطِينَ إذا أُرسِلَ عَلَيها. وَقَالَ عِكرِمَةُ: هُوَ مُضِيءٌ وَمُحرِقٌ لِلشَّيطانِ»[1]. كما قال ربنا: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر]. وقال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات]. وفي هذه الآيات تنبيه على أن لغة العرب -التي أنزل بها القرآن، وفهمها به السلف من أهل اللسان- قد لا يجري فيها إطلاق اسم النجم على الاصطلاح الفلكي المعاصر، فليُتفطَّن لهذا.

(١) تفسير ابن كثير (٨/٣٧٥).

وللنجوم وظيفتان سوى ما ذُكر، الأولى: هداية الناس، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام]. والثانية: تزيين السماء. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

والطارق يُطلق على ما يطرق في الليل، وفي الحديث عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ ﷺ، «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كانَ لا يَطرُقُ أَهلَهُ لَيلًا»[١]. وقد أمر جبريلُ نبيَّنا ﷺ أن يقول: «**أَعُوذُ بِكَلِماتِ اللهِ التَامَّةِ، مِن شَرِّ ما خَلَقَ، وَذَرَأَ، وَبَرَأَ، وَمِن شَرِّ ما يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ، وَمِن شَرِّ ما يَعرُجُ فِيها، وَمِن شَرِّ فِتَنِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وَمِن شَرِّ كُلِّ طارِقٍ إِلّا طارِقًا يَطرُقُ بِخَيرٍ، يا رَحمَنُ**»[٢].

ثم قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾، هذا جواب القسم. أي: لكل نفس مَلَكٌ يحفظ عليها أعمالها، ثم يحاسبون عليها. كما قال ربنا: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار].

وهذا يحمل على مراقبة الله فيما نأتي ونذر.

● فكيف يتأتى للمسلم أن يحسن في مراقبته لله؟

الجواب يكون ذلك بأمور، منها:

(١) التعرُّف على الله تعالى:

فالإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته؛ كالرقيب، والحفيظ، والعليم، والسميع، والبصير، والتعبد لله تعالى بمقتضاها يورث مراقبته. فالرقيب الذي يرصد أعمال عباده، والحفيظ الذي يحفظ عباده المؤمنين، ويحصي أعمال العباد، والعليم الذي لا تخفى عليه خافيةٌ من أمور عباده، والسميع المدرك للأصوات، والبصير الذي يرى كل شيء.

---

(١) البخاري (١٨٠٠)، ومسلم (١٩٢٨).
(٢) أحمد (١٥٤٦٠)، وهو في السلسلة الصحيحة (٨٤٠).

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء]، وقال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٥٧﴾ [هود]، وقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٧﴾ [المجادلة]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء].

والإيمانُ بأنَّ الله تعالى سميع يمنع من أن يصدر عن المسلم كلامٌ يُسخط الله، إنَّ عائشة ﵂ لمّا جاءت المجادِلةُ إلى رسول الله ﷺ في غرفتها تشكو زوجها غاب عن سمعها كثير من كلامها، فلما نزلت السورة قالت: «الحَمدُ لِلهِ الَّذي وَسِعَ سَمعُهُ الأَصواتَ، لَقَد جاءَت المُجادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَنا فِي ناحِيَةِ البَيتِ تَشكُو زَوجَها وَما أَسمَعُ ما تَقُولُ، فَأَنزَلَ الله: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا ..﴾»[1].

قال رجل للجنيد: بم أستعين على غض البصر؟ فقال: «بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه»[2].

(٢) العلم بشهادة الجوارح في الآخرة:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٢ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ٢٤﴾ [فصلت]،

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ [النور]، وقال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥﴾ [يس].

---

(١) ابن ماجه (١٨٨)، وصححه الألباني صحيح سنن ابن ماجه، وفي الظلال (٢٠٦٣).
(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/٢٩٧).

(٣) العلم بشهادة الأرض بما عُمِل فوقها من المعاصي:

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ [الزلزلة]، ومعنى ذلك كما هو ظاهر: أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا في يوم كذا وكذا.

(٤) كثرة العبادة:

فكلما أكثر الإنسان من الطاعات عسُر عليه أن يأتي المحرمات.

ومعلوم أن الراهب في قصة الذي قتل تسعةً وتسعين نفسًا لما سأله القاتل: هل لي من توبة؟ قال الراهب: لا. وليس خافيًا على أحد أن هذه فُتيا لم تقم على علم، ولكن مما يستفاد من ذلك: أنه ما قال مقالته إلا ببُغضه العظيم للمعصية، وما بغّض إليه معصية الله إلا كثرة عبادته.

● فكيف نربي أولادنا على رقابة الله؟

بأن نغرس في قلوبهم الإيمان بأسماء الله وصفاته؛ كالتي مر ذكرها.

ولله در معلم أعطى كل تلميذ عنده طائرًا قائلًا: ليذبح كل منكم طائره في مكان لا أحد فيه معه. فذبحوا جميعًا سوى واحد. قال: مالك. قال: إن الله معي في كل مكان. فقرَّبه وكافأه.

والمقصود استحضار أن كل نفس عليها حافظ يرقبها ويكتب ما لها وما عليها.

ثم قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾، والإنسان هنا ليس هو الكافر كما قال بعض المفسرين، بل هو كل إنسان؛ الكافر والمسلم، قال ابن كثير ﷺ: «تَنبيهٌ لِلإِنسانِ عَلَى ضَعفِ أَصلِهِ الَّذِي خلق مِنهُ، وَإِرشادٌ لَهُ إِلَى الِاعتِرافِ بِالمَعادِ؛ لِأَنَّ مَن قَدَرَ عَلَى البَداءة فَهُوَ قادِرٌ عَلَى الإِعادَةِ بِطَرِيقِ الأَولَى، كَما قالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]»[١].

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٣٧٥).

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾.

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾، أي: من موضع العمودِ الفِقرِيِّ وأضلاعِ الصدرِ التي تضعُ المرأةُ القِلادةَ عليها.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾، أي على إرجاعه بعد أن يموت، وينتهي، ولا يبقى إلا عَجبُ الذَنب، وقد يكرم الله من يشاء من عباده بأن يبقى جسده في الأرض سالمًا، كالأنبياء. فربنا قادر على إعادته، والمقصود أن أصل الخِلقة دليل على القدرة وإمكان البعث، وفي القرآن قصص تدل على قدرة الله على إحياء الموتى، قال ربنا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٥٨ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٥٩ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٦٠﴾ [البقرة].

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾، أي: إنَّ اللهَ يقدر على بعثه وإعادته، وذلك كائنٌ يومَ تُختبرُ ضمائرُ الناسِ وما يخفونَه، فتظهرُ هذه المخفيات. كما قال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ [العاديات]. ومن أقر بهذا فليجمع في صدره خيرًا ولينوِ خيرًا وليفعل خيرًا، وإلّا فإنها الفضيحة على رؤوس الأشهاد! وقد ثبت عَن عَبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قالَ: «**لِكُلِّ غادِرٍ لِواءٌ يَومَ القِيامَةِ يُعرَفُ بِهِ**»(١).

(١) البخاري (٦٩٦٦)، ومسلم (١٧٣٥).

ولهذا لا تسر في نفسك إلا ما تحب أن تلقى الله به، وهذا من سلامة القلب، قال ربنا عن خليله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء]. وفي يوم القيامة أناس يفرحون بكتبهم ويودون أن يتعرف الناس على ما فيها، قال ربنا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ [الحاقة].

ثم قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾، فما له، أي: للإنسان في يوم القيامة، ما له من قوة يخلِّص بها نفسه من العناء والعذاب، ولا أحد ينصره ويدفع عنه ذلك.

الآيات (١١ ـ ١٧)

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١﴾، تكرَّر القسم بالسماء، وهذا يدل على أنه ينبغي التأمل في هذه الآية العظيمة التي تكرر قسم الله بها في كتابه، قال ربنا: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ٧﴾ [الذاريات]، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١﴾ [البروج]، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥﴾ [الشمس]، وأقسم بها هنا مرتين. وما أكثر الآيات التي ذكَّر الله فيها عباده بها! قال سبحانه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾ [البقرة]، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٧٣﴾ [الأنعام]. وفي السماء آيات على قدرة الله تعالى ووحدانيته.

والرجع: المطر. ويخطئ من يقول: إن كلمة المطر لا تستخدم إلا فيما نزل وكان عذابًا! ففي السنة: عَن زَيدِ بنِ خالِدٍ الجُهَنِيِّ ﷺ، قالَ: صَلَّى بِنا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلاةَ الصُّبحِ بِالحُدَيبِيَةِ فِي إِثرِ السَّماءِ كانَت مِنَ اللَّيلِ، فَلَمّا انصَرَفَ أَقبَلَ عَلَى النّاسِ فَقالَ: «**هَل تَدرُونَ ماذا قالَ رَبُّكُم؟**»، قالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ. قالَ: قالَ: «**أَصبَحَ مِن عِبادِي مُؤمِنٌ بِي وَكافِرٌ، فَأَمّا مَن قالَ: مُطِرنا بِفَضلِ اللهِ وَرَحمَتِهِ**

فَذَلِكَ مُؤمِنٌ بِي كافِرٌ بِالكَوكَبِ، وَأَمّا مَن قالَ: مُطِرنا بِنَوءِ كَذا وَكَذا فَذَلِكَ كافِرٌ بِي مُؤمِنٌ بِالكَوكَبِ»[١].

فإن قيل: لماذا سمي المطر رجعًا؟ لأن بخار الماء يتبخر من الأرض، ثم يتكثف، ثم يرجع إلى الأرض مطرًا بإذن الله.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢﴾، أي: التشقق، فالأرض يخرج منها نباتها.

وهذه الأقسام بالمخلوقات العظيمة كثيرة في القرآن، ولله أن يُقسم بما شاء من خلقه، ومعلوم أنه لا يسوغ لأحد أن يحلف بغير ربه، فعن سَعدِ بنِ عُبَيدَةَ، أَنَّ ابنَ عُمَرَ رضي الله عنه سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لا والكَعبَةِ، فَقالَ ابنُ عُمَرَ: لا يُحلَفُ بِغَيرِ اللهِ، فَإِنِّي سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَن حَلَفَ بِغَيرِ اللهِ فَقَد أَشرَكَ**»[٢].

وجواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣﴾، أي: القرآن الكريم. وفصل: حق[٣]. والسؤال الذي لا بُدَّ أن يسأله كلٌّ منا لنفسه: هل نرجع إلى القرآن لنجد الحكم الفصل في أمورنا الخاصة والعامة؟ كيف بمن يترك القرآن ويرضى بتحكيم حثالات أفكار البشر؟! وربنا يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ومن أراد أن يتعرف على شيء مما تستوعبه هذه الآية فليراجع تفسير العلامة الشنقيطي وما كتبه حولها في أضوائه. وقد قال نبينا ﷺ: «**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي**»[٤].

﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤﴾، حق لا هزل فيه، مُنزَّه عنه، ولا يجوز الهزل به، وكم ممن يهزل بآياته من أبناء المسلمين!

---

(١) البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).
(٢) الترمذي (١٥٣٥)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٥٦١).
(٣) راجع ـ غير مأمور ـ تفسير القرآن العظيم (٣٧٦/٨).
(٤) رواه الحاكم (١٧٢/١)، (٣١٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٣٧).

والسنة صنو القرآن في ذلك، قال نبينا ﷺ: «لا أُلفِيَنَّ أحَدَكُم مُتَّكِئًا عَلَى أرِيكَتِهِ يَأتِيهِ أمرٌ مِمّا أمَرتُ بِهِ أو نَهَيتُ عَنهُ فيَقُولُ: لا أدرِي، ما وَجَدنا فِي كِتابِ اللهِ اتَّبَعناهُ، ألا إنِّي أُوتِيتُ الكِتابَ وَمِثلَهُ مَعَهُ، ألا وَإنَّ ما حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِثلُ ما حَرَّمَ اللهُ»[1].

والآيات التي بيَّنت مكانة السنة وحجيتها أربعة أقسام:

● **القسم الأول:**

آيات أمرت بطاعة رسول الله ﷺ.

ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)﴾ [الأنفال].

● **القسم الثاني:**

آيات رغَّبت في طاعة رسول الله ﷺ.

ومنها ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩)﴾ [النساء: ٦٩].

● **القسم الثالث:**

آيات نهت عن مخالفة أمر رسول الله ﷺ.

ومنها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [أول الحجرات].

● **القسم الرابع:**

آيات توعَّدت من خالف أمر رسول الله ﷺ.

ومنها: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾ [النور].

---

(١) رواه أحمد (١٧١٧٤)، وصححه العلامة شعيب الأرناؤوط رحمه الله (٢٨/٤١٠).

ومن حقِّ هذا القول الفصل علينا: العنايةُ به، والتحاكم إليه، والإكثار من قراءته، والاهتمام بحفظه، والعمل به، والدعوة إليه. ومما يُوصَى به طالب العلم أن يبدأ بذلك قبل أن يقبل على غيره، فيكون البدء بالقرآن: قراءة، وحفظًا، وفهمًا، وعملًا، ثم يقرأ غيره، ومن المعيب أن يبدأ بشيء قبل القرآن الكريم.

ومن الملاحظ هنا القسم بالسماء ذات الرجع، والأرض ذات الصدع، على أن القرآن قول فصل، فما المناسبة؟

● **والجواب:**

القسم ينبئ بأن ما ينزل من السماء من ماء فيه حياة للأرض، وجواب القسم له ارتباط بقَسَمه، فما ينزل من الوحي منها فيه حياة للقلوب، كما قال ربنا: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٢٢﴾ [الأنعام].

ومن أوجه العلاقة بين القسم وجوابه: أن القرآن كالمطر، فهو آيات شرعية عظيمة، والمطر آية كونية عظيمة، ولا ينتفع بالقرآن كل قلب، كما أن المطر تنتفع به الأرض الخصبة دون غيرها، قال تعالى في بيان ذلك: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة]، وفي آية أخرى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]، فهؤلاء من ينتفعون به، وكذلك المطر، لا تنتفع به إلا الأرض الخصبة. قال نبينا ﷺ: «**مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى والعِلمِ، كَمَثَلِ الغَيثِ الكَثِيرِ أَصابَ أَرضًا، فَكانَ مِنها نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فَأَنبَتَتِ الكَلَأَ والعُشبَ الكَثِيرَ، وَكانَت مِنها أَجادِبُ، أَمسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِها النّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوا وَزَرَعُوا، وَأَصابَت مِنها طائِفَةً أُخرَى، إِنَّما هِيَ قِيعانٌ لاَ تُمسِكُ ماءً وَلاَ تُنبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَن فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ ما بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَن لَم يَرفَع بِذَلِكَ رَأسًا، وَلَم يَقبَل هُدَى اللهِ الَّذِي أُرسِلتُ بِهِ**»[١].

(١) البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾، أي يكيد الكفار لرسولنا ﷺ، ولأتباعه، ولديننا كيدًا عظيمًا، ويمكرون مكرًا كُبَّارًا، كما قال ربنا: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال]، وقال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النحل].

﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝١٧﴾، أنظِرهم، ولن تنتظر كثيرًا، بل ﴿رُوَيْدًا﴾ أي قليلًا، وبعدها سوف يظهر أمر نبينا ﷺ، ويعلو دينه، وذلك لن يكون بعيدًا، وقد وقع ذلك كما أخبر ربنا. وسيقع كلما مكر القوم وظهروا، وذلك إلى قيام الساعة.



بين يدي سورة الأعلى

وهي مكية على الصحيح، قال ابن عاشور بعدما حكى خلاف العلماء في ذلك: «وما اشتملت عليه من المعاني يشهد لكونها مكية، وحسبك بقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦﴾»[١].

أسماؤها:

سورة ﴿سَبِّحِ﴾، ولم تبدأ سورة بالأمر بالتسبيح سواها، ولهذا اختصت به، وسميت بسورة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وبـ ﴿ٱلْأَعْلَى﴾؛ لوقوع هذه الصفة فيها دون غيرها[٢].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«وكَلِمُهـا اثنَتـانِ وَسَـبعُونَ كلمة، ككلـم العلق، وحروفهـا مئتان وَأحد وَسَـبعُونَ حرفًـا، وَهِي تسـع عـشرَة آيَـة فِي جَمِيع العدَد لَيـسَ فِيهـا اختِلاف»[٣].

ما ورد فيها:

عَن جابِرٍ ﷺ قالَ: كانَ مُعاذٌ، يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ يَأتِي فَيَؤُمُّ قَومَهُ، فَصَلَّى لَيلَةً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ العِشاءَ ثُمَّ أَتَى قَومَهُ فَأَمَّهُم فافتَتَحَ بِسُورَةِ البَقَرَةِ فانحَرَفَ رَجُلٌ فَسَلَّمَ ثُمَّ

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٢٧٢).

(٢) السابق.

(٣) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٧١).

صَلَّى وَحدَهُ وانصَرَفَ فَقالُوا لَهُ: أنافَقتَ يا فُلانُ؟ قالَ: لا. واللهِ وَلَآتِيَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَلَأُخبِرَنَّهُ. فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقالَ: يا رَسُولَ اللهِ، إنا أَصحابُ نَواضِحَ نَعمَلُ بِالنَّهارِ وَإِنَّ مُعاذًا صَلَّى مَعَكَ العِشاءَ، ثُمَّ أَتَى فافتَتَحَ بِسُورَةِ البَقَرَةِ فَأَقبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى مُعاذٍ فَقالَ: «**يا مُعاذُ أَفَتّانٌ أَنتَ؟ اقرَأ بـ: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، ﴿وَالضُّحَىٰ﴾، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾**»[1].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾»[2].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾، قال رسول الله ﷺ: «**اجعلوها في ركوعكم**»، فلما نزلت: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، قال رسول الله ﷺ: «**اجعلوها في سجودكم**»[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قالت: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في الوتر في الأولى بـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، وفي الثانية بـ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، وفي الثالثة بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾»[4].

وعن ابنِ عَبّاسٍ رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: كانَ إذا قَرَأَ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، قالَ: «**سُبحانَ رَبِّيَ الأَعلَى**»[5].

موضوعاتها:

قال ابن عاشور رحمه الله: «اشتملت على تنزيه الله تعالى، والإشارة إلى وحدانيته لانفراده بخلق الإنسان وخلق ما في الأرض مما فيه بقاؤه، وعلى تأييد النبي ﷺ

---

(١) البخاري (٧٠٥)، ومسلم (٤٦٥).
(٢) مسلم (٨٧٨).
(٣) أبو داود (٨٦٩)، وحسنه الألباني في تخريج المشكاة (٨٧٩).
(٤) الترمذي (٤٦٢)، وصححه الألباني في صفة صلاة النبي ﷺ (٥٤٠/٢).
(٥) أبو داود (٨٨٣)، وصححه الألباني في صفة صلاة النبي ﷺ (٤٠٧/١).

وتثبيتـه على تلـقي الـوحي، وأن الله معطيـه شريعـة سـمحة وكتابًـا يتذكـر بـه أهل النفـوس الزكيـة الذين يخشـون ربهـم، ويعرض عنهـم أهل الشـقاوة الذيـن يؤثرون الحيـاة الدنيـا ولا يعبـؤون بالحيـاة الأبديـة، وأن مـا أوحي إليـه يصدقه مـا في كتب الرسـل مـن قبلـه وذلك كلـه تهوين لمـا يلقـاه من إعـراض المشركـين»[١].

مقصدها:

تعظيم الله، والإرشاد إلى تزكية النفس ببيان ما لأهله في الآخرة، والتزهيد في الدنيا.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٢٧٢).

سورة الأعلى: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٥)

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى (١) ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ (٥)﴾

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى (١)﴾، التسبيح: تنزيه الله عن النقائص، وشأن التسبيح عظيم، وقد ذكر الله ﷻ التسبيح في مُفتتح ثمان سُور من القرآن الكريم، فقال تعالى في أول الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وقال تعالى في أول سورة النحل: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وقال تعالى في أوَّل سورة الحديد: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وقال تعالى في أوَّل سورة الحشر: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وقال تعالى في أول سورة الصف: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وقال تعالى في أول سورة الجمعة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾، وقال تعالى في أول سورة التغابن: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقال تعالى في أول سورة الأعلى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى (١) ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ (٥)﴾.

والتسبيح ذكر عظيم، ومما ورد في فضله:

قول نبينا ﷺ: «أحبُّ الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر»(١).

وعن أبي هريرة ﵁، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن قال: سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرَّة حُطَّت خطاياه وإن كانت مِثلَ زَبَدِ البحر»(٢).

وعن سعد بن أبي وقّاص ﵁ قال: كُنّا عند رسول الله ﷺ فقال: «أيَعجِزُ أحدُكم أن يكسب كلَّ يومٍ ألفَ حسنةٍ؟»، فسأله سائلٌ من جلسائِه: كيف يكسب أحدُنا ألفَ حسنة؟ قال: «يسبِّح مئة تسبيحة فيُكتبُ له ألفُ حسنةٍ أو يُحطُّ عنه ألفُ خطيئةٍ»(٣)، وقال ﷺ: «كلمتانِ خَفيفَتانِ على اللِّسانِ ثَقيلَتانِ في المِيزانِ حَبِيبَتانِ إلَى الرَّحمَنِ سُبحانَ اللهِ وَبِحَمدِهِ سُبحانَ اللهِ العَظِيمِ»(٤).

قوله: ﴿ٱلْأَعْلَى﴾، «اسم يفيد الزيادة في صفة العلو»(٥).

والأدلة على إثبات هذه الصفة كثيرة في القرآن الكريم، قال ربنا: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، وقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ٥٠﴾ [النحل]، وقال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٥﴾ [السجدة]، وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ١٧﴾ [الملك]. وقد ناظر أحد من أهل السنة والعقيدة الصحيحة أحدًا ممن ينكرها، فلما استدل بهذه الآية على علو الله قال المُنكر له: المراد: الملائكة. فقال له: لو سلَّمنا بقولك فإن الله يقول عنهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ٥٠﴾ [النحل]، فلم يجد جوابًا صوابًا.

---

(١) مسلم (٢١٣٧).
(٢) البخاري (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١).
(٣) مسلم (٢٦٩٨).
(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة، صحيح البخاري (٦٦٨٢)، ومسلم (٢٦٩٤).
(٥) التحرير والتنوير (٣٠/٢٧٤).

وقد قال نبينا ﷺ لجارية: «أَينَ اللهُ؟»، قالَت: فِي السَّماءِ، قالَ: «مَن أَنا؟»، قالَت: أَنتَ رَسُولُ اللهِ. قالَ: «أَعتِقها؛ فَإِنَّها مُؤمِنَةٌ»[1].

فهذا ما نعتقده: أن ربنا استوى على العرش فوق خلقه، والاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾؛ أي: «خَلَقَ الخَلِيقَةَ وسَوّى كُلَّ مَخلُوقٍ فِي أَحسَنِ الهَيئاتِ»[2].

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾، كما قال ربنا إخبارًا عَن مُوسَى أَنَّهُ قالَ لِفِرعَونَ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه]، قدر قدرًا وهدى الخلق إليه بعلمه وحكمته تعالى.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴿٤﴾﴾، فأخرج من الأرض نباتًا، وجعله صالحًا للرعي.

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴿٥﴾﴾، والغثاء الذي لا قيمة له، والأحوى الذي يميل إلى السواد، كما تلاحظون من شأن النبات إذا ترك ثم جاءته الريح والشمس وانقطع المطر فإنه يسوَدُّ، وكما أن النبات يخرج، ويقوى، ويمتلئ خضرة، ثم يصفر ويزول، فكذلك الدنيا، قال ربنا: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارًا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس]. وكذلك الإنسان، قال ربنا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ ضَعۡفًا وَشَيۡبَةًۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم]، وبعدها يموت، ولا يبقى منه إلا عَجبُ الذنب، سوى الأنبياء فإن الله قد حرم على الأرض أن تأكل أجسادهم، وقد يكرم الله تعالى بذلك من شاء من خلقه، وقد يبقيه لا كرامة له ولكن ليكون عبرة وآية.

---

(١) مسلم (٥٣٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/٣٧٩).

الآيات (٦ ـ ١٣)



﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، هذا وعدٌ من الله تعالى أنه لن ينسى إلا ما شاء الله تعالى أن ينساه لرفعه ونسخه. أو ما شاء أن ينساه ثم يتذكره. وذلك أن النبي ﷺ يحرك لسانه بالقراءة خوفًا من نسيانها، فنزلت: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧﴾ [القيامة]، أي: إن علينا جمعه في صدرك، ثم أن تقرأه بلسانك متى شئت، كما قال أيضًا: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ۝١١٤﴾ [طه]، وحرص النبي ﷺ على ذلك يدل على فضل جمع القرآن وحفظه، وكم من رجل بلغ من العمر عتيًا، وربما نسي كثيرًا مما كان يباشره ويعمل له، ولكنه لم ينسَ القرآن الكريم! وقد ذكر لي بعض الإخوة أنَّ شخصًا ممن أكرمه الله بقوة حفظ القرآن كان بالمشفى وقد بلغ من الكبر عتيًا، ولا يرد على أحد لذهاب ذاكرته، وكان مغمى عليه، أو كالمغمى عليه ولكن إذا أخطأ شخص عنده في القرآن رد عليه!

وقد سأل سائل أحد المقرئين: متى أتقن القرآن؟ قال: من الناس من يتقن القرآن الكريم بعد ثمانين ختمة، ومنهم من يتقنه بعد مئة وخمسين ختمة، وهذا متوسط الحفظ، وأضعفهم من يتقنه بعد ثلاثمئة ختمة.

وأذكر أن شيخًا ممن جمع القرآن بقراءاته العشر، قال: من النادر أن يحفظ الشخص الآيات ويستحضر ما قبلها، فلا يُحسن كل حافظ أن يُسأل عن الآية وما قبلها فيجيب بلا تردد، هذا قليل، لكني أعرف أن هذا تحقق لشاب يكنى بأبي موسى، وقصته: أنه سمع امرأة تقول لابنها: قم واحفظ القرآن ولا تكن كأبي موسى! فقال: لقد صرت مضرب مثل! فعزم على حفظه، وصدق الله في ذلك، فصدقه ربه، فأصبح يأتي بالآية وما قبلها وما بعدها.

وشيخي الشيخ: عبد الستار فتح الله السعيد، بلغني عنه أنه كان يحفظ القرآن بأرقام الآيات، وهذا شيء نادر! وكان من الصعب عليّ أن أسأله عن ذلك، وكنت أعد بحثًا فقلت له: يا شيخ هل بالإمكان أن تساعدني في مواضع آيات في بحث كتبته؟ فقال: نعم. ثم بدأ يذكر بعض الآيات مع ذكر رقمها في السورة! فقلت له: يا شيخ بلغني هذا عنك، لكن ما هو سر حفظك للقرآن بأرقام آياته؟ فقال لي: كنت طالبًا في الأزهر في المرحلة المتوسطة أو الثانوية، وفي يوم من الأيام سألني فلاح في قريتنا عن آية، فقال: في أي سورة؟ فأخذت المصحف ـ وكنّا في المسجد ـ فقال لي: عيب عيب! ثم قال لي: أنا فلاح، لو سألتني عن أي شجرة أخبرتك عن مكانها، فأنت ينبغي أن تتقن حفظك للقرآن، فهذه فلاحتك! فأقبلت على حفظ القرآن بأرقام الآيات بعد كلامه. والمقصود أن الله تعالى ضمن لنبيه ﷺ تثبيت الحفظ بمجرد فراغ الوحي، وقد كان النبي ﷺ حريصًا على ذلك. ومن اجتهد في حفظه يسر الله له ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٧﴾﴾، أي: «يَعلَمُ ما يَجهَرُ بِهِ العِبادُ وَما يُخفُونَهُ مِن أَقوالِهِم وَأفعالِهِم، لا يَخفَى عَلَيهِ مِن ذَلِكَ شَيءٌ»[1]، ومن ذلك علمه بتحريك النبي ﷺ شفتيه، وهذا مما يحمل على مراقبة الله فيما نأتي ونذر،

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٣٨٠).

فالإيمانُ بأنَّ الله تعالى سميع عليم يعلم حتى ما تهمس به وما تتمتم به شفتاك يمنع من أن يصدر عن المسلم كلام يسخط الله، عن عائشة ﵂. أنها قالت: لمَا جاءت المجادِلة إلى رسول الله ﷺ في غرفتها تشكو زوجها غاب عن سمعي كثير من كلامها، فلما نزلت السورة قالت: «الحَمدُ لِلهِ الَّذِي وَسِعَ سَمعُهُ الأَصواتَ، لَقَد جاءَت المُجادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَنا فِي ناحِيَةِ البَيتِ تَشكُو زَوجَها وَما أَسمَعُ ما تَقُولُ، فَأَنزَلَ الله: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا ...﴾»[١].

وإذا خلوت بريبةٍ في ظلمة ... والنفس داعية إلى الطغيانِ

فاستحي من نظر الإله وقل لها ... إن الذي خلق الظلام يراني

وقال آخر:

إذا ما خلوتَ الدهرَ يومًا فلا تقل: ... خلوتُ، ولكن قل: عليَّ رقيبُ

ولا تحسبنَّ الله يغفل ساعةً ... ولا أن ما تُخفيه عنه يغيبُ

ثم قال تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ٨﴾، النون للتعظيم، وربنا أهل لأن يُعظَّم، والعظيم إذا أعطى كان عطاؤه جزيلًا كثيرًا، فالله لا يتعاظمه ما أعطاه. والعطاء الأجلُّ عطاء الدِّين والأخلاق والمكارم، فبعض النّاس سهل العشرة، هيِّن مع أهله، ليِّن مع الناس، ميسِّر لليسرى، وهذا قد أعطي من خير العطاء، وأولى الناس بأن يبذل لهم منه أوفر نصيب والداه، وزوجه وولده، وهناك والعياذ بالله من هو ميسر للعسرى، شَرِس شَكِس! يحاذره الناس ويتقونه.

والمراد: أن الله تعالى ييسر أعمال الخير لمن عُرِف الخير من قبله، وتلك رحمته يصيب بها من يشاء من خلقه.

وقوله: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ٩﴾، قال ابن الجوزي ﵀: «وفي ﴿إِن﴾ ثلاثة أقوال:

- أحدها: أنها الشَّرطية.

---

(١) ابن ماجه (١٨٨)، وصححه الألباني في الإرواء (٧/١٧٥).

● والثاني: أنها بمعنى (قد)، فتقديره: قد نفعت الذِّكرى، قاله مقاتل.

● والثالث: أنها بمعنى (ما) فتقديره: فذكر ما نفعت الذّكرى، حكاه الماورديُّ»[١].

والصحيح أن الشرط معتبر، فقد تنفع الذكرى وقد لا تنفع، وقد تَحسُن وقد لا تحسن، وبعض الناس يذكر على كل حال، ويقول: أريد أن تبرأ ذمتي! وإبراء الذمة بموافقة الشرع، فإذا كان الشرع يحكم بألا تفعل فلا تفعل، فإن فعلت لم تبرأ ذمتك؛ لما قد يترتب من مفسدة. فلا بُدَّ أن يكون أمرك بالمعروف بالمعروف، ونهيك عن المُنكر بلا مُنكر، وعليك أن تتحرى بالذكرى ما يكون أرجى للانتفاع من الأوقات والأحوال، فإن فعلت ذلك برئت ذمتك وإن لم يسمع لك، وستظفر بمن يخشى فيسمع، وتلك هي الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة]، والحكمة كما عرَّفها ابن القيم ﷺ: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي[٢].

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾، السين للمستقبل، فالتذكر والانتفاع بالذكرى يحتاج إلى تربية وصبر وتحمل حتى يتذكر الإنسان، فلا تكتفِ بإلقاء الكلمة، فالمسألة تحتاج إلى معاهدة ليتحقق نفعها.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾، أي: ويبتعد عن الذكرى الأشقى، الذي لا يخشى ربَّه، الذي سيدخل نار جهنم العظمى يقاسي حرَّها، وقد مر معنا في سورة ﴿عَبَسَ﴾ أن رد النصح وعدم الانتفاع به من خصال المنافقين.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾، فالنار تحرق وتعذب، ولا يعقب ذلك راحة يهنؤون بها، ولا موت يُتخلص به من عذابها، ويزاد لهم من عذابها ما داموا فيها، قال ربنا:

---

(١) زاد المسير (٤٣٢/٤) بتصرف يسير.
(٢) انظر مدارج السالكين ٤٧٩/٢.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝٣٧﴾ [فاطر]، وقـال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ۝٨٨﴾ [النحل]، وقـال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ۝٩٧﴾ [الإسراء]، وثبـت عَـن أَبِي سَـعِيدٍ الخُـدرِيِّ ﷺ، قـالَ: قالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «يُـؤتَى بِالمَوتِ كَهَيئَـةِ كَبشٍ أَملَـحَ، فَيُنادِي مُنـادٍ: يـا أَهـلَ الجَنَّـةِ، فَيَشرَئِبُّونَ وَيَنظُـرُونَ، فَيَقُـولُ: هَل تَعرِفُـونَ هَـذا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَـم، هَـذا المَـوتُ، وَكُلُّهُم قَـد رَآهُ، ثُمَّ يُنـادِي: يا أَهـلَ النّـارِ، فَيَشرَئِبُّـونَ وَيَنظُرُونَ، فَيَقُـولُ: وهَـل تَعرِفُـونَ هَذا؟ فَيَقُولُـونَ: نَعَم، هَـذا المَوتُ، وَكُلُّهُـم قَـد رَآهُ، فَيُذبَحُ ثُـمَّ يَقُـولُ: يـا أَهـلَ الجَنَّـةِ خُلُـودٌ فَـلاَ مَوتَ، وَيـا أَهلَ النّـارِ خُلُـودٌ فَلاَ مَـوتَ»، ثُـمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٩﴾ [مريم][1].

---

(١) البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

الآيات (١٤ ـ ١٩)

قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

ثم قال تعالى مخبرًا عن حال المنتفع بالذكرى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾، من زكَّى نفسه، وطهَّرها، لا من تزكية النفس التي هي مدحها والثناء عليها، فهذا منهيٌّ عنه كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم].

﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾، هي الصلوات الخمس كما قال ابن عباس[1] رضي الله عنهما. وهي أفضل الأعمال، وقد جاء بيان ذلك في أحاديث كثيرة، منها:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن رجلًا أتى رسول الله ﷺ فسأله عن أفضل الأعمال، فقال رسول الله ﷺ: «**الصلاة**». قال: ثم مه؟ قال: «**ثم الصلاة**». قال: ثم مه؟ قال: «**ثم الصلاة**». قال: ثم مه؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»[2].

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾، بعد الخبر عن حال الفريقين؛ من أعرض عن الذكرى وحاد عنها، ومن تذكر فخشي وزكى نفسه، أخبر بهذه الحقيقة! فالفرق بين المآلين شاسع، لا يختار الردى لنفسه عاقل، ولكن الآفة جاءت من قِبَل إيثار هذه الدنيا العاجلة الفانية، بداعي الهوى والظلم والجهل.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم (٨/٣٨١).

(٢) رواه ابن حبان (١٧٢٢)، وحسنه شعيب الأرنؤوط رحمه الله.

في صحيح مسلم، عَن جابِرِ بن عَبدِ اللهِ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ، داخِلًا مِن بَعضِ العالِيَةِ، والنّاسُ كَنَفَتَهُ، فَمَرَّ بِجَدي أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَناوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قالَ: «**أَيُّكُم يُحِبُّ أَنَّ هَذا لَهُ بِدِرهَمٍ؟**»، فَقالُوا: ما نُحِبُّ أَنَّهُ لَنا بِشَيءٍ، وَما نَصنَعُ بِهِ؟ قالَ: «**أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُم؟**»، قالُوا: واللهِ لَو كانَ حَيًّا، كانَ عَيبًا فِيهِ، لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقالَ: «**فَواللهِ لَلدُّنيا أَهوَنُ عَلَى اللهِ، مِن هَذا عَلَيكُم**»[1]. أبعد هذا تُقدم على الآخرة! والميل إلى الدنيا آفة لا يسلم منها بالكلية إلّا من عصمه الله تعالى. ومن أمارات ذلك: أننا في صلاتنا التي يجب أن نقبل فيها على ربنا، تجد كثيرًا منّا ينصرف تفكيره فيها إلى الدنيا، وهذه آفة تعرض لعامة الناس والعلاج في الذكرى، ولعموم البلاء بها قال:

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩ ﴾، هذا الذي مرَّ من الأوامر والأخبار لفي صحف إبراهيم وموسى ﷺ، وذكر الله هذين الكتابين لأنهما من كتب أولي العزم من الرسل؛ إبراهيم وموسى عليهما سلام الله، أما الإنجيل فهو مكمل للتوراة، لأن التوراة كتاب أحكام والإنجيل كتاب مواعظ، فكتاب موسى وعيسى ﷺ يكمل كل منهما الآخر، فكتاب التوراة أحكام لبني إسرائيل وأمر ونهي وتهديد، والإنجيل موعظة وتذكير وفيه تخفيف وتخويف.

---

(١) مسلم (٢٩٥٧).

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

بين يدي سورة الغاشية

وهي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

سورة ﴿ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾.

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها اثنَتانِ وَتسعُونَ كلمة، وحروفها ثَلاث مئة وَأحد وَتسعُونَ حرفًا، وَهِي سِتٌّ وَعِشرُونَ آيَة فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[٢].

ما ورد فيها:

عن النعمان بن بشير ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾»[٣].

«وكان ﷺ يقرأ في الظهر والعصر بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾»[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٢٩٣).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٧٢).
(٣) مسلم (٨٧٨).
(٤) البزار (٤٢٦٠)، وصححه الألباني في السلسلة (١١٦٠).

موضوعاتها:

(١) تهويل يوم القيامة.

(٢) صور من العذاب الذي سينال الكافر فيه.

(٣) إكرام المؤمنين، وبيان شيء مما أُعد لهم من النعيم في الجنة.

(٤) الدلالة على بعض آيات الله الكونية.

(٥) المهمة التي عُهد بها إلى نبينا ﷺ: البلاغ.

(٦) تأكيد البعث والحساب.

مقصدها:

«تثبيت النبي ﷺ على الدعوة إلى الإسلام، وأن لا يعبأ بإعراضهم»[1].والدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ببيان حال المؤمنين والكافرين فيه.

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٢٩٤).

سورة الغاشية: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٧)

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾، الغاشية من أسماء القيامة، وما أكثر أسماء الآخرة التي وردت في القرآن! وكلها أسماء تدل على شدة عظيمة: الغاشية، والحاقة، والقارعة، والصاخة، والطامة، والآزفة، وغير ذلك، ومجرد التسمية فيها عبرة تدعو إلى العمل.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ﴿٢﴾﴾، عبَّر بالوجوه لسببين: الأول: لأن الوجه أشرف ما في الإنسان، ولذلك نُهي عن ضرب الوجه، قال نبي الله ﷺ: «**وَلا تَضرِبِ الوَجهَ**»[1]. والثاني: لأن مشاعر الإنسان تظهر على الوجه، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾ [عبس]، فعبَّر بالوجه لظهور ذلك عليه.

ومعنى خاشعة هنا: ذليلة، فبعد التجبر والطغيان الذي كانت أماراته باديةً عليهم في وجوههم حلَّت الذلة محلَّ ذلك.

---

(١) أبو داود (٢١٤٢)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٠٣١).

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾، اختلف العلماء فيها على ثلاثة أقوال:

● الأول: يكون ذلك في الآخرة، إذا علموا فيها أنهم خاسرون اجتهدوا في إيجاد مهرب لهم.

● والثاني: المراد: من كان مجتهدًا في العبادة من الرهبان وأهل الصوامع، ولم يؤمن بنبينا ﷺ. وكل من كان مجتهدًا في بدعةٍ وشَرعٍ لم يأذن به الله فيُخشى عليه من هذا الوعيد، كالخوارج، الذين يُكفِّرون أئمة الهدى، ومصابيح الدجى، وقد جاء في السنة أنهم أهل عبادة، وأن الإنسان يحقر عمله إلى عملهم، ولكنه لا يُقبَل منهم.

● والثالث: عاملة ناصبة في النار بمعالجة السلاسل والأغلال[1]. وأنى لهم أن يخرجوا منها! قال ربنا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ۝٢٠﴾ [البلد]، وقال: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ [الهمزة].

ولا تعارُضَ بين هذه الثلاثة، فتحمل الآية عليها كلِّها، فمدلول الآية يشملها، وهذه قاعدة نافعة في التفسير.

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥﴾، وآنية: حامية، وزنًا ومعنى، كانوا من أهل النعيم في الدنيا، فكفروا بالذي أنعم عليهم، فعوقبوا بنقيضه في الآخرة، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ۝٢٠﴾ [الأحقاف].

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾، والضريع: طعام لا يحصل به مقصود، ولا يندفع به محذور[2].

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (٤/٤٣٤).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٣٨٥).

الآيات (٨ ـ ١٦)

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)﴾

بعد ذكر حال أهل النار ذكر حال أهل الجنة الذين كانوا يؤمنون بالآخرة ويعدون لها، فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨)﴾، فهذه وجوه أهل الجنة الذين رضي الله عنهم، ظهر على وجوههم البهاء وأثر النعيم من رحمة الله بهم، قال ربنا: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢)﴾ [القيامة]، وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨)﴾ [عبس]، وقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤)﴾ [المطففين].

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩)﴾، راضية عما كانت عليه في الدنيا، فقد أورثها هذا العمل دار الكرامة، وفي الآية إشارة إلى إحسان العمل، فليس كل عمل يرضاه، وإنما يرضى ما أحسنه.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠)﴾، في جنان وشجر وبساتين مرتفعة، وذلك أنهم ترفعوا في الدنيا عن مقارفة الفواحش، والمحرمات، والسفاسف؛ فرفع الله مكانتهم في دار كرامته، والجزاء من جنس العمل.

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١)﴾، لا تسمع فيها لغوًا، وهو الكلام الباطل، كما قال ربنا: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢]، وقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥)﴾ [الواقعة]،

وقال: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝٣٥﴾ [النبأ]، وقال: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس]. وهم في أنفسهم لا يصدر عنهم اللغو إنما هو الحمد والذكر والتسبيح. فإن قيل: كيف يذكرون ويسبحون والجنة لا تكليف فيها؟ الجواب: عَن جابِرٍ ﷺ، قالَ: سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «**إِنَّ أَهلَ الجَنَّةِ يَأكُلُونَ فِيها وَيَشرَبُونَ، وَلا يَتفُلُونَ وَلا يَبُولُونَ وَلا يَتَغَوَّطُونَ وَلا يَمتَخِطُونَ**» قالُوا: فَما بالُ الطَّعامِ؟ قالَ: «**جُشاءٌ وَرَشحٌ كَرَشحِ المِسكِ، يُلهَمُونَ التَّسبِيحَ والتَّحمِيدَ، كَما تُلهَمُونَ النَّفَسَ**»[1]. وليس هذا تكليفًا، بل يفعلونه تلذذًا، فيتلذذون به كما يتلذذون بسائر النعيم فيها، والله أعلم.

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾، أي: فيها عيون، عُبِّر بالمفرد، والمراد الجنس. جارية لا تُحوِج إلى قصدها، بل يُصرِّفها صاحبها كيف يشاء، فهي قريبة النزع حسنة المنظر، وسُرُرُها مرتفعة بما عليها من الفُرُش اللينة والوسائد، يتكئون عليها ينظرون إلى ما في الجنة من النعيم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦﴾ [يس]، وقال: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣﴾ [المطففين]، واتكاؤهم فيها ليس لتعب، وإنما لزيادة الترفُّه والنعيم، وأكواب الشرب مهيأة مُعدَّة لذلك عندهم. والنمارق: الوسائد، قد جُعلت كل واحدة بجوار أختها، وفيها بُسُط متناثرة هنا وهناك.

---

(١) مسلم (٢٨٣٥).

الآيات (١٧ ـ ٢٦)

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾

هذا كلام مستأنفٌ غرضه تقرير ما ذكر أولًا من حديثِ الغاشيةِ ومآل الناس يوم القيامة إلى فريقين، والتقرير هنا لقدرة الله تعالى على ذلك بأدلة مشاهدة لا يسع إنكارها، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾، ذكَّرهم بما لا يغيب عنهم، فما ذكره يتأتى للإنسان أن يراه في لحظة واحدة.

ولي وقفة هنا يحتاج إليها الدعاة كثيرًا، وهي مخاطبة الناس بما يفهمون، فلا تُغرِب في حديثك، فهذه الآيات التي لُفت النظر إليها يراها كل واحد منا، فعلى الداعية وطالب العلم إذا تكلم مع الناس أن يختار العبارة السهلة التي يفهمها جميع من يخاطبهم، وربنا قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، فالغرض هو البيان لا الاستعراض بالمعرفة وخطاب النُّخَب.

وهذه الآيات تدعو إلى التفكُّر في خلق الله تعالى؛ الإبل، والسماء، والجبال، والأرض، مخلوقات عظيمة دالة على تمام قدرة الخالق ﷻ.

والدعوة إلى التفكُّر كثيرة في القرآن، قال ربنا: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠﴾؟ [الأنعام]، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٦٤﴾ [البقرة]، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١٩١﴾ [آل عمران].

وقدرة البشر على التفكير محدودة، كالبصر والسمع وغيرهما؛ فلا يجاوز الإنسان حده، ويفضي به تفكيره وتفكُّره إلى ما يخالف الكتاب والسنة. والفكر السديد لا يعارض نقلًا أبدًا، ويعبر بعض علمائنا عن ذلك بقولهم: العقل الصريح لا يعارض النقل الصحيح، والشريعة لا تأتي بمحالات العقول، لكن قد تأتي بما تحار فيه العقول ولا تدرك غوره.

ثم قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾، وهذا المعنى تكرر كثيرًا في القرآن الكريم، وفيه بيان أن مهمة الداعية هي الدلالة والإرشاد، وتبليغ رسالة الله للعباد، وهذه حقيقة الانتصار، أما هداية التوفيق فهي إليه ﷻ، قال ربنا: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝٢٠﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝٩٢﴾ [المائدة]، وقال: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة: ٩٩]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۝٤٠﴾ [الرعد]، وقال: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝٣٥﴾ [النحل]، وقال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝٨٢﴾ [النحل]، وقال: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝٥٤﴾ [النور]، وقال: ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝١٨﴾ [العنكبوت]، وقال:

﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧ ﴾ [يس]، وقال: ﴿ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٢ ﴾ [التغابن].

﴿ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢ ﴾، بجبار، لست تكرههم على الإيمان، وليس الإكراه مرادًا شرعيًا أصلًا، وإلّا فقد قال الله تعالى: ﴿ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ٤ ﴾ [الشعراء].

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣ ﴾ استثناء منقطع، والمعنى: لكن ﴿ مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ٢٤ ﴾.

ولماذا قال العذاب الأكبر، ما قال الكبير؟ لأنهم عذبوا بعذاب كبير في الدنيا، الجوع، والخوف، والأسقام، والجدب، والقتل، والسبي، وغير ذلك، لكن عذاب الآخرة أشد وأبقى وأكبر.

فإن قيل: أليس الجهاد إكراهًا للآخرين على اعتناق دين الإسلام؟

الجواب: لا، فالمجاهدون لا يُكرِهون أحدًا على الدخول في الدين، ولكن لا بُدَّ من الخضوع لأحكام الإسلام بدفع الجزية إذا رفضوا الإسلام، فيخضع للإسلام ليكون الدين كله لله. فقد كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيشٍ، أَو سَرِيَّةٍ، أَوصاهُ فِي خاصَّتِهِ بِتقوَى اللهِ، وَمَن مَعَهُ مِنَ المُسلِمِينَ خَيرًا، ثُمَّ قالَ: «**اغزُوا بِاسمِ اللهِ، فِي سَبِيلِ اللهِ، قاتِلُوا مَن كَفَرَ بِاللهِ، اغزُوا وَلا تَغُلُّوا، وَلا تَغدِرُوا، وَلا تَمثُلُوا، وَلا تَقتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ المُشرِكِينَ، فادعُهُم إِلَى ثَلاثِ خِصالٍ - أَو خِلالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ ما أَجابُوكَ فاقبَل مِنهُم، وَكُفَّ عَنهُم، ثُمَّ ادعُهُم إِلَى الإِسلامِ، فَإِن أَجابُوكَ، فاقبَل مِنهُم، وَكُفَّ عَنهُم، ثُمَّ ادعُهُم إِلَى التَّحَوُّلِ مِن دارِهِم إِلَى دارِ المُهاجِرِينَ، وَأَخبِرهُم أَنَّهُم إِن فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُم ما لِلمُهاجِرِينَ، وَعَلَيهِم ما عَلَى المُهاجِرِينَ، فَإِن أَبَوا أَن يَتَحَوَّلُوا مِنها، فَأَخبِرهُم أَنَّهُم يَكُونُونَ كَأَعرابِ المُسلِمِينَ، يَجرِي عَلَيهِم حُكمُ اللهِ الَّذِي يَجرِي**

عَلَى المُؤمِنِينَ، وَلا يَكُونُ لَهُم فِي الغَنِيمَةِ والفَيءِ شَيءٌ إلّا أَن يُجاهِدُوا مَعَ المُسلِمِينَ، فَإن هُم أَبَوا فَسَلهُمُ الجِزيَةَ، فَإن هُم أَجابُوكَ فاقبَل مِنهُم، وَكُفَّ عَنهُم، فَإن هُم أَبَوا فاستَعِن بِاللهِ وَقاتِلهُم»[1]. فغرض الجهاد إعلاء كلمة الله، وإزالة ما يحول بين الناس وبين دين الله تعالى، وليس غرضه أن يدخل الناس في الإسلام كَرهًا، ولو كان المراد إكراه الناس على الإسلام لما أقرَّت الشريعة الصلح بأخذ الجزية، ولا جوَّزت فداء الأسير ولا المنَّ عليه.

ثم قال تعالى بعد أن بيَّن وظيفة الرسول وأنها البلاغ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾، أي: إن رجوعهم إلى الله، وسيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم.

---

(١) مسلم (١٧٣١).

سُورَةُ الفَجْرِ

بين يدي سورة الفجر

وهي مكية[١].

أسماؤها:

تعرف بـ «سورة الفجر»، و«سورة ﴿وَالْفَجْرِ﴾».

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها مئة وَسبع وَثَلاثُون كلمة، وحروفها خمس مئة وَسَبعَة وَتسعُونَ حرفًا، وَهِي تسع وَعِشرُونَ آيَة فِي البَصرِيّ وَثَلاثُونَ فِي الكُوفِي والشامي واثنتانِ وَثَلاثُونَ فِي المَدَنِيين والمكي. اختلافها أَربع آيات ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾، و﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾، عدهما المدنيان والمكي وَلم يعدهما الباقُونَ. ﴿يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾، لم يعدها الكُوفِي والبصري وعدها الباقُونَ. ﴿فِي عِبَادِي﴾ عدها الكُوفِي وَلم يعدها الباقُونَ»[٢].

موضوعاتها:

«حَوَت من الأغراض: ضرب المثل لمشركي أهل مكة في إعراضهم عن قبول رسالة ربهم بمثل عاد وثمود وقوم فرعون، وإنذارهم بعذاب الآخرة، وأنهم أضاعوا شكر الله على النعمة فلم يواسوا ببعضها الضعفاء، وما زادتهم إلا حرصًا

(١) راجع: زاد المسير (٤/٤٣٧).
(٢) البيان في عدّ آي القرآن، ص(٢٧٣).

على التكثُّر منها. وأنهم يندمون يوم القيامة على أن لم يقدموا لأنفسهم من الأعمال ما ينتفعون به يوم لا ينفع نفسًا مالها ولا ينفعها إلا إيمانها وتصديقها بوعد ربها. وذلك ينفع المؤمنين بمصيرهم إلى الجنة»[١].

مقصدها:

تثبيت النبي ﷺ والمؤمنين مع وعدهم باضمحلال أعدائهم، وإبطال غرور المشركين من أهل مكة؛ إذ يحسبون أن ما هم فيه من النعيم أن الله أكرمهم، وأن ما فيه المؤمنون من الخصاصة علامة على أن الله أهانهم[٢].

---

(١) التحرير والتنوير (٣١١/٣٠) بتصرف يسير.
(٢) يراجع: التحرير والتنوير (٣١١/٣٠).

سورة الفجر: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ١٤)

﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾

﴿وَالْفَجْرِ (١)﴾، قَسَمٌ عظيم من الله ﷻ، والفجر أول النهار الذي يعقب الليل.

والنبي ﷺ قد دعا فقال: «اللهُمَّ بارِك لِأُمَّتِي فِي بُكُورِها»[1].

قيل المراد بالقسم: صلاة الفجر[2]. قال ربنا: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨)﴾ [الإسراء]، وقد ثبت في السنة أن الملائكة تشهدها. فعن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «يَتعاقَبُونَ فِيكُم مَلائِكَةٌ بِاللَّيلِ وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهارِ، وَيَجتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الفَجرِ وَصَلاَةِ العَصرِ، ثُمَّ يَعرُجُ الَّذِينَ باتُوا فِيكُم، فَيَسأَلُهُم وَهُوَ أَعلَمُ بِهِم: كَيفَ تَرَكتُم

(١) أبو داود (٢٦٠٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٣٠٠).
(٢) يراجع: زاد المسير (٤/٤٣٧).

عِبادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكناهُم وَهُم يُصَلُّونَ، وَأَتَيناهُم وَهُم يُصَلُّونَ»[١].

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾، هي العشر من ذي الحجة، وقيل: العشر الأخيرة من رمضان، لقوله: ﴿وَلَيَالٍ﴾، ولأن في هذه ليلة القدر، قال الإمام الطبري ﵀: «والصواب من القول في ذلك عندنا: أنها عشر الأضحى؛ لإجماع الحُجَّة من أهل التأويل عليه»[٢]. ولقائل أن يقول: لماذا أطلق عليها ليالٍ مع أنها أيام؟ والجواب: أن العرب تطلق الأيام على الليالي، والليالي على الأيام. وهي أيام يتضاعف فيها ثواب العمل، لما ثبت عند البخاري عَن ابنِ عَبّاسٍ ﭭ، عَن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: **«ما العَمَلُ فِي أَيّامٍ أَفضَلَ مِنها فِي هَذِهِ»**. قالُوا: وَلا الجِهادُ؟ قالَ: **«وَلا الجِهادُ، إِلّا رَجُلٌ خَرَجَ يُخاطِرُ بِنَفسِهِ وَمالِهِ، فَلَم يَرجِع بِشَيءٍ»**. وللترمذي: **«ما مِن أَيّامٍ العَمَلُ الصّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِن هَذِهِ الأَيّامِ العَشرِ»**. فَقالُوا: يا رَسُولَ اللهِ وَلا الجِهادُ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«وَلا الجِهادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفسِهِ وَمالِهِ فَلَم يَرجِع مِن ذَلِكَ بِشَيءٍ»**[٣].

ومن أراد أن يستشعر فضل هذه الأيام ويتصوَّر ذلك فليتدبر حديث أبي هُرَيرَةَ ﵁ قالَ: جاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقالَ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعدِلُ الجِهادَ؟ قالَ: **«لا أَجِدُهُ»**. قالَ: **«هَل تَستَطِيعُ إِذا خَرَجَ المُجاهِدُ أَن تَدخُلَ مَسجِدَكَ فَتَقُومَ وَلا تَفتُرَ، وَتَصُومَ وَلا تُفطِرَ؟»**، قالَ: وَمَن يَستَطِيعُ ذَلِكَ؟[٤]. ومع ما للجهاد من هذه المكانة يُبيِّن النبي ﷺ أن الطاعة في العشر ـ التي هي دون الجهاد في غير العشر ـ أفضل منه، أما الجهاد فيها فلا شيء يعدله.

قال الحافظ ابن حجر ﵀: «والذي يظهر أن السبب في امتياز عشر ذي الحجة

(١) البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).
(٢) تفسير الطبري (٣٩٧/٢٤).
(٣) البخاري (٩٦٩).
(٤) البخاري (٢٧٨٥)، ومسلم (١٨٧٨).

لمكان اجتماع أمهات العبادة فيه، وهي: الصلاة، والصيام، والصدقة، والحج، ولا يأتي ذلك في غيره»[١].

وقال ابن رجب ﵀: «وهذا يدل على أن العمل المفضول في الوقت الفاضل يلتحق بالعمل الفاضل في غيره، ويزيد عليه لمضاعفة ثوابه وأجره»[٢].

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣﴾، اختلف المفسرون في المراد بذلك، فقيل: هي الشفع في الصلاة. وقيل: الوتر: يوم عرفة، والشفع: يوم الحج الأكبر. ولعل الصواب: أنَّ كل شفع ووتر ذا شأن يعرفه الناس في العدد أو في الخلق يندرج في هذا القسم. ﴿وَالْوِتْرِ﴾، ﴿وَالْوَتْرِ﴾ قراءتان سبعيتان.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٤﴾، يجري، وفيها إشارة؛ فكما أنَّ ظلمة الليل لا تمتد، فإن أمد الظلم لا يستمر، ولكل ليل نهاية، وكما أن الفجر يشق بضيائه ظلمة الليل، فلا بد أن تولد المِنَحُ من رحم المحن، ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ٦﴾ [الشرح].

﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ٥﴾، «﴿هَلْ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ أي: لذي عقل؟ نعم، بعض ذلك يكفي، لمن كان له قلبٌ، أو ألقى السمع وهو شهيد»[٣].

فأين جواب القسم؟ «الظاهر أن المقسم به، هو المقسم عليه، وذلك جائز مستعمل، إذا كان أمرًا ظاهرًا مهمًا، وهو كذلك في هذا الموضع. فأقسم تعالى بالفجر، الذي هو آخر الليل ومقدمة النهار، لما في إدبار الليل وإقبال النهار، من الآيات الدالة على كمال قدرة الله تعالى، وأنه وحده المدبر لجميع الأمور، الذي لا تنبغي العبادة إلا له»[٤]. وقيل: جوابه: والله لتبعثن، كما جاء في آخر السورة. وقيل: لنهلكن الظالمين. وقيل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ١٤﴾[٥].

---

(١) فتح الباري (٢/٤٦٠).
(٢) لطائف المعارف، ص(٤٥٩).
(٣) تفسير السعدي، ص(٩٢٣).
(٤) تفسير السعدي، ص(٩٢٣).
(٥) زاد المسير في علم التفسير (٤/٤٣٩).

والحِجر: العقل، وسمي العقل بذلك من الحَجر، وهو المنع، فالعقل يمنع من ارتكاب القبيح.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾، هم قوم هود، وعاد اسم جدهم، وإرم أبوه، على ما قالوا. والله أعلم.

والرؤية هنا علمية. وقيل: بصرية؛ لأن آثارهم كانت موجودة، فعادٌ في الأحقاف، وهي من بلاد جنوب الجزيرة العربية، كما بيَّن الله ﷻ، وثمود في شمال المملكة، في الطريق من المدينة إلى تبوك، وقد مر بها نبينا ﷺ، وهي الآن معروفة بمدائن صالح في محافظة العلا، وأما فرعون ففي مصر وأهراماتهم شهيرة معروفة، لكن النبي ﷺ لم يرها، وهذا مما يقرب أن الرؤية علمية.

﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧﴾، المراد القوم أو القبيلة، وقيل لهم ذلك لطولهم وقوتهم، قال ربنا: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥﴾ [فصلت]. وقيل: لأن أعمدة البناء التي يقيمونها كانت شاهقة، وهذا يدل على طولهم وضخامة أجسامهم.

﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾، أي في زمانهم، وأزمنة متطاولة قبلهم.

﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩﴾، هؤلاء قوم صالح ؛، قال ربنا: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف ٧٣]، كانوا يقطعون الصخر، وينحتون الجبال، كما قال ربنا: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ۝٨٠ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ۝٨٢﴾ [الحجر].

والوادي هو وادي القرى، وهو معروف. واختلف العلماء: هل يجوز الذهاب إلى أماكن المُعذَّبين أم لا؟ والقول الراجح أنه يحرم الذهاب إليها إلا للاعتبار،

فعن ابن عمر ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا مَرَّ بِالحِجرِ قالَ: «**لا تَدخُلُوا مَساكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُم إِلّا أَن تَكُونُوا باكِينَ؛ أَن يُصِيبَكُم ما أَصابَهُم**». ثم تَقَنَّعَ بِرِدائِهِ وَهُوَ عَلَى الرَّحلِ[1]. قال النووي ﷺ: «فِيهِ: الحَثُّ على المُراقَبَة عِند المُرُور بِدِيارِ الظَّالِمِين، ومَواضِع العَذاب...فَيَنبَغِي للمارِّ فِي مِثل هَذِهِ المَواضِع المُراقَبَة، والخَوف، والبُكاء، والاعتِبار بِهِم، وَبِمَصارِعِهِم، وَأَن يَستَعِيذ بِاللهِ مِن ذَلِكَ»[2]. وقال الحافظ ابن حجر ﷺ: «وهذا يتناول مساكن ثمود وغيرهم ممن هو كصفته هم »[3].

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ١٠﴾، اختُلِف في الأوتاد، ولا يبعد أن يكون المراد: أهراماتهم؛ لأن الله سمى الجبال أوتادًا، وهي في هيئتها كالجبال. وهي على هذه الهيئة من سنوات بعيدة! وقيل غير ذلك.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ١١﴾، تمردوا، وظلموا. فماذا حدث لما طغوا؟ قال: ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ١٢﴾؛ شركًا، وظلمًا، حضارات أنتجت الطغيان، والطغيان أنتج فسادًا، والفساد أنتج عذابًا، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣﴾.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣﴾، أي: أنزل عليهم عقوبة من السماء. وبعض مُنكري الرجم قال: إن الرجم بالحجارة لا يسمى عذابًا في القرآن! ويرد عليه بآيتين:

● الأولى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]. قال القرطبي ﷺ: «معنى ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾، الرجم، والحجارة، والطُّوفانُ، والصَّيحَةُ، والرِّيحُ»[4]. فالرجم عذاب بنص الآية.

---

(١) البخاري (٤٢٣)، ومسلم (٢٩٨٠).
(٢) شرح مسلم (١١١/١٨).
(٣) فتح الباري (٣٨٠/٦).
(٤) تفسير القرطبي (٩/٧).

● والثانيـة: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾. والحديـث عـن: عاد، وثمـود، وفرعـون. وقد قـال ربنـا في عاد: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ [الحاقة]. ريـح فيها حصبـاء[١].

فصب عليهم العذاب، أي: أنزله بهم. وعبر بالسوط لأن الضرب يتكرر به.

فعلينا أن نخشى من هذه العاقبة، وإنما تكون بسبب المعاصي، فمن سلك سبيل هؤلاء لم يأمن أن يصاب بما أصيبوا به، قال ربنا: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣﴾ [هود]، وقال: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ۝٨٩﴾ [هود]، وقال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۝٤٣﴾ [القمر]. فالمعاصي سبب هذا البلاء، قال الله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس: ١٣]، وقال: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝٥٩﴾ [الكهف].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾، قال ابن عباس ﷺ: «يَسمَعُ وَيَرَى. يَعنِي: يَرصُدُ خَلقَهُ فِيما يَعمَلُونَ، وَيُجازِي كُلًّا بِسَعيِهِ فِي الدُّنيا والأُخرَى، وَسَيُعرَضُ الخَلائِقُ كُلُّهُم عَلَيهِ، فَيَحكُمُ فِيهِم بِعَدلِهِ، وَيُقابِلُ كُلًّا بِما يَستَحِقُّهُ. وَهُوَ المُنَزَّهُ عَنِ الظُّلمِ والجَورِ»[٢].

ومما يلفت النظر في هذه السورة أنه ليس فيها من أسماء الله سوى (الرب)، والرب الذي يدبر الأمر، ففيها تثبيت لقلب نبينا ﷺ بأنه منصور على عدوه، ولن يَخلُصَ إليه شر منهم، فربه يرعاه ويحفظه.

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/٢٧٨).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٣٩٧).

الآيات (١٥ ـ ٢٠)

فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

لما ذكر ﷻ أممًا بما أنعم الله عليها وبما آل إليه حالهم، ذكر الحال الغالب على الجنس البشري في أقواله وأفعاله فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾، وهذه موازين جاهلية ليست موازين إيمانية ولذلك ختمها بقوله: ﴿كَلَّا﴾، وهي كلمة ردع وزجر، فربنا قال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾، فهذا يدل على أن الإنسان يُبتلى بالخير، كما يُبتلى بالشر لينظر كيف عمله.

فيا صاحب النعمة! يا صاحب الصحة! يا صاحب المال! يا صاحب المنصب! يجب أن تتعامل مع ما أعطاك الله على أنه ابتلاء، والابتلاء اختبار، والاختبار قد ينجح الإنسان وقد يفشل، قال ربنا: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون].

فلا تحسبن أن الخير الذي أمدك الله به بسبب مكانتك عند الله! قال نبينا ﷺ: **«إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا**

من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من أحب»[(١)].

وما قسم اليوم لعبده سوف يسأله عنه غدًا: هل أدى شكره؟ وهل استعمله وفق ما شرعه؟ أو كان سبب طغيان وكفران؟ فالحذر الحذر.

ثم قال: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾، أي ضيّق رزقه، إذا حدث هذا ظن أن ربه أهانه.

﴿كَلَّا﴾، ليس الأمر كذلك، فهذه موازين لا قيمة لها عند الله تعالى، قارون كان من أغنى الناس، فهل كانت له مكانة عند الله! قال الله: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ (٧٦)﴾ [القصص]. وأيوب ﷺ ابتلي ابتلاء عظيمًا، فهل أهانه الله بذلك؟! كلا.

﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ (١٧)﴾، هذا انتقال بعد بيان سوء الأقوال إلى سوء الأفعال! واليتيم: من فقد أباه ولم يبلغ. والإكرام شيء، والإنفاق والكفالة شيء، فمن الإكرام أن لا تشعره بأن لك يدًا عنده، فيجب أن يكون اليتيم في بيتك مكان الإكرام، وعامة الناس لا يُكرِمون إلَا من له حظٌّ وجِدةٌ وجاهٌ، ويكون ذلك في الغالب من قبل الأب.

ثم ذكر من أفعالهم القبيحة: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (١٨)﴾، لا يحث بعضهم بعضًا على الإحسان إلى الفقراء. وطعام المسكين تشعر بأنه طعامه، أسنده إليه؛ تأكيدًا لحقّه فيه، فإذا أعطيته فأشعره أنه حقه، ولا تشعره بالمِنَّة.

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩)﴾، أي: الميراث، ولما: «أَي: مِن أَيِّ جِهَةٍ حَصَلَ لَهُم، مِن حَلالٍ أَو حَرامٍ»[(٢)].

---

(١) الإسماعيلي في المعجم (١١٤/١)، وصححه الألباني في السلسلة (٢٧١٤).
(٢) تفسير ابن كثير ت سلامة (٣٩٩/٨).

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾، كثيرًا، فاحشًا. وكم قتل قريب قريبه بسبب هذا المال الذي تعلقت به القلوب!

وقد ثبت عَن أَنَسٍ ﷺ أنه قالَ: دَخَلتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يومًا، وَما هُوَ إِلَّا أَنا وَأُمِّي وَأُمُّ حَرامٍ خالَتِي، إِذ دَخَلَ عَلَينا، فَقالَ لَنا: «أَلا أُصَلِّي بِكُم؟»، وَذاكَ فِي غَيرِ وَقتِ صَلاةٍ، فَقالَ رَجُلٌ مِنَ القَومِ: فَأَينَ جَعَلَ أَنَسًا مِنهُ؟ فقال: جعله يَمِينِهِ، ثُمَّ صَلَّى بِنا، ثُمَّ دَعا لَنا - أَهلَ البَيتِ - بِكُلِّ خَيرٍ مِن خَيرِ الدُّنيا والآخِرَةِ، فَقالَت أُمِّي: يا رَسُولَ اللهِ! خُوَيدِمُكَ؛ ادعُ اللهَ لَهُ؛ فَدَعا لِي بِكُلِّ خَيرٍ، كانَ فِي آخِرِ دُعائِهِ أَن قالَ: «اللهُمَّ أَكثِر مالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبارِك لَه»[1]. وهذا يدل على أن السعي إلى كثرة المال لا محظور فيه، لكن ينبغي أن يكون هذا المال في يدك، لا في قلبك، وأن تستعمله فيما يرضي عنك ربك، ولا يؤدي بك إلى الطغيان كحال كثير من أهل الدنيا.

---

(١) صحيح الأدب المفرد(٦٥).

الآيات (٢١ ـ ٣٠)

كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

عرضت هذه الآية العاقبة؛ تحذيرًا من الاغترار بحال أكثر الناس، ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾، وهذا ليس تكرارًا، وليس تأكيدًا، إنما المقصود بيان أنها تُدكُّ مرة بعد مرة.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾، ومجيء الله ﷻ مجيء يليق بجلاله، لا نعلم كنهه، ونؤمن به، بل لا نعلم كيف تجيء الملائكة، فكيف بالله ﷻ؟

لكن مجيء الملائكة يدل على النظام والضبط: ﴿صَفًّا صَفًّا﴾.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾، هذا الكافر. ويقول: لحياتي، فالحياة الحقيقية هي حياة الآخرة وليست في الدنيا. لكنه لا يتذكر ويتعظ إلّا بعد فوات الأوان!

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾، وهذا تهويل شديد تذهب فيه الألباب كل مذهب، يُقلِق قلوب المؤمنين، فيسكّنها قوله بعد ذلك:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾، ففي عباد الله أناس ينادون بهذا النداء. قيل: يكون ذلك عند الوفاة. وقيل: يوم القيامة. والقولان صحيحان.

والنفس المطمئنة التي اطمأنت في الدنيا بالرضا عن الله، والمطمئنة إلى ذِكر الله والإيمان به.

﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾، راضية بإكرام الله لها، والله رضي عنها، وهذا أعظم نعيم، فعَن أَبِي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ ﷺ، قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ لِأَهلِ الجَنَّةِ: يا أَهلَ الجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيكَ رَبَّنا وَسَعدَيك، فَيَقُولُ: هَل رَضِيتُم؟ فَيَقُولُونَ: وَما لَنا لاَ نَرضَى وَقَد أَعطَيتَنا ما لَم تُعطِ أَحَدًا مِن خَلقِكَ، فَيَقُولُ: أَنا أُعطِيكُم أَفضَلَ مِن ذَلِكَ، قالُوا: يا رَبِّ، وَأَيُّ شَيءٍ أَفضَلُ مِن ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيكُم رِضوانِي، فَلاَ أَسخَطُ عَلَيكُم بَعدَهُ أَبَدًا**»[1]. فأكبر نعيم أن يرضى عنك ربك، والله يقول: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة]، فبعد أن نعت نعيم الجنة بيَّن أن رضاءه عن عباده أكبر مما فيها من النعيم.

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾﴾، وأضافهم إليه تشريفًا لهم.

﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾، وإضافتها إليه سبحانه إضافة تشريف وتفخيم.

---

(١) البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).



بين يدي سورة البلد

وهي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

سورة ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾، وسورة ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾.

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها اثنَتانِ وَثَمانُونَ كلمة، وحروفها ثَلاث مئة وواحد وَثَلاثُون حرفًا، وَهِي عشرُون آيَة فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[٢].

موضوعاتها:

«التنويه بمكة، وبمقام النبي ﷺ بها، وبركته فيها وعلى أهلها، والتنويه بأسلاف النبي ﷺ من سكانها الذين كانوا من الأنبياء؛ مثل إبراهيم وإسماعيل، أو من أتباع الحنيفية؛ مثل عدنان ومضر، وذم سيرة أهل الشرك، وذم إنكارهم البعث وما كانوا عليه من التفاخر المبالغ فيه، وما أهملوه من شكر النعمة على الحواس، ونعمة النطق، ونعمة الفكر، ونعمة الإرشاد، فلم يشكروا ذلك بالبذل في سبل الخير، وما فرطوا فيه

---

(١) تفسير القرطبي (٥٩/٢٠).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٧٤).

من خصال الإيمان وأخلاقه، ووعيد الكافرين وبشارة الموقنين»[١].

مقصدها:

تثبيت شكر الله في القلوب، وإرساخ الإيمان به، وباليوم الآخر، ببيان حال المؤمنين والمُكذِّبين به.

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٣٤٥).

سورة البلد: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٧)

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ٧﴾

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١﴾، مكة المشرَّفة التي يُعظِّمها المشركون، ومعروف عنهم أن الواحد منهم لو وجد فيها قاتل أبيه لم يتعرَّض له، ومع ذلك يؤذون فيها نبيَّ الله ﷺ وصحبه، وهذا تناقض كبير.

ومر معنا أن هذا التعبير يراد به القسم[1].

﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢﴾، أي: وأنت حالٌّ بهذا البلد، وأنت مقيم فيه. وقيل: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢﴾ أي: إن كفار قريش يستحلون أذاك ومن معك في هذا البلد. وقيل: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢﴾، أي: حل لك ما ستصنع في هذا البلد. قال نبينا ﷺ بعد الفتح بيوم: «**إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَها اللهُ، وَلَم يُحَرِّمها النَّاسُ، فَلاَ يَحِلُّ لِامرِئٍ يُؤمِنُ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ أَن يَسفِكَ بِها دَمًا، وَلاَ يَعضِدَ بِها شَجَرَةً، فَإِن أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيها، فَقُولُوا: إِنَّ اللهَ قَد أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَم يَأذَن لَكُم، وَإِنَّما أَذِنَ لِي فِيها ساعَةً مِن نَهارٍ، ثُمَّ عادَت حُرمَتُها اليَومَ كَحُرمَتِها بِالأَمسِ، وَلِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغائِبَ**»[2]. فالمراد: أقسم بالبلد الحرام، وأقسم بحلوله

(١) عند تأملات سورة التكوير.

(٢) البخاري (١٠٤)، ومسلم (٦٨٨٠).

ﷺ به، وذلك مما يزيده شرفًا، وفي التعبير بشارةٌ بإشارةٍ إلى أن البلد الحرام سيكون حلالًا لك يومًا ما، وقد كان يوم فتح مكة.

وفي بداية سورة التين نعت البلد بالأمين، ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ٣﴾، وهذا ما لم يذكر هنا؛ لأن المقام مقام تعريف بأذيتهم للنبي ﷺ والمؤمنين.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ٣﴾، قيل: آدم ﷺ وما ولد. وقيل: كل والد وما ولد. وقيل: إبراهيم ﷺ وما ولد[1].

والتناسل الذي يكون بين المخلوقات آية من آيات الله، قال ربنا: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ٥٩﴾ [الواقعة].

ومعلوم أن اسم الموصول (ما) يستعمل لغير العاقل، فلماذا جيء بها هنا؟ قال بعضهم: لأن أكثر الخلق ليسوا بمؤمنين، ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف]، وغير المؤمن ليس عاقلًا في الحقيقة، وذلك بإقرارهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠﴾ [الملك]، فالعاقل هو الذي يؤثر سبيل النجاة؛ وهو سبيل المؤمنين على غيره. ومر معنا في سورة الفجر أن العقل سُمِّي بالحِجر؛ لحجره ومنعه من ارتكاب كل قبيح، وأقبح القبائح الإشراك بالله، ولا يسلك سبيل الإشراك إلا سفيه، قال ربنا: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ٤﴾، و﴿فِى﴾، تدل على أنه مُلابس للشدة لا ينفكُّ عنها، فالكَبَد وعاؤه، والشدائد والمواجع تحيط به من كل جانب. فلا تقلق إذا تعثرت بها في طريقك، لأن هذه طبيعة العيش في هذه الدنيا، ولا راحة لمؤمن إلا بعد أن تطأ قدماه الجنة. لكن هذا الكبد يكون للبدن بالنسبة للمؤمن الذي لا ينقطع عن ذكر

(١) زاد المسير (٤/٤٤٧).

ربه، أما قلبه فمنعم مطمئن، ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

فالمؤمن في الدنيا يعيش غريبًا، ويكابد التكليف، وهو في جهاد دائم، فقد أخرج من موطنه بخروج أبيه منه، إلى دار كثير أعداؤه فيها، ولا راحة له إلا بعد العودة إلى مقره الأول..

فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدنٍ فَإِنَّها
مَنازِلُكَ الأُولَى وَفِيها المُخَيَّمُ
وَلَكِنَّنا سَبيُ العَدُوِّ فَهَل تَرى
نَعُودُ إِلَى أَوطانِنا وَنُسَلِّمُ؟

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾﴾، أيحسب هذا الكافر أنه لا يقدر عليه أحد؟ فهو يفعل ما يشاء ولا يبالي برسالة ولا أمر أو نهي! قد أعمى ماله وجاهه بصيرته، فظن ذلك، ولو أيقن أن الله قادر عليه لما كفر به، وآذى أولياءه وخالف أمره. فالعلم بقدرة الله والإيمان بذلك يحجز عن الظلم والعدوان. قالَ أَبُو مَسعُودٍ البَدرِيُّ ﷺ: كُنتُ أَضرِبُ غُلامًا لِي بِالسَّوطِ، فَسَمِعتُ صَوتًا مِن خَلفِي، «**اعلَم، أَبا مَسعُودٍ**»، فَلَم أَفهَمِ الصَّوتَ مِنَ الغَضَبِ، قالَ: فَلَمّا دَنا مِنِّي إِذا هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَإِذا هُوَ يَقُولُ: «**اعلَم، أَبا مَسعُودٍ، اعلَم، أَبا مَسعُودٍ**»، قالَ: فَأَلقَيتُ السَّوطَ مِن يَدِي، فَقالَ: «**اعلَم، أَبا مَسعُودٍ، أَنَّ اللهَ أَقدَرُ عَلَيكَ مِنكَ عَلَى هَذا الغُلامِ**»، قالَ: فَقُلتُ: لا أَضرِبُ مَملُوكًا بَعدَهُ أَبَدًا(١).

والطغيان المعنوي أخطر على صاحبه من الحسي، فالحسي قد يزول بتأديب السلطان وغير ذلك، أما المعنوي الذي يكون بازدراء الناس واحتقارهم فهذا كيف الخلاص منه؟ ومما يؤسف له: أن يتصور بعضنا أن هذا الطغيان محصور في الكافر، بينما كم من شخص يعامل زوجه، وولده، وخادمه، وسائقه، وموظفه، بطغيان كبير!

(١) مسلم (١٦٥٩).

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾، وفيها تهديد أيضًا لأهل مكة الذين يؤذون النبي ﷺ ومن آمن به من أصحابه.

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾، يقول الكافر: أهلكت مالًا لبدًا كثيرًا متراكمًا، بعضه فوق بعض؛ لكثرته. وليس الشأن أنك أنفقت، الشأن فيم أنفقته؟ عن ابنِ مَسعُودٍ ﷺ، قالَ: سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**لاَ حَسَدَ إِلا فِي اثنَتَينِ: رَجُلٍ آتاهُ اللهُ مالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٍ آتاهُ اللهُ حِكمَةً، فَهُوَ يَقضِي بِها وَيُعَلِّمُها**»(١). وما أنفق في سبيل الله لا بُدَّ أن يجد الإنسان بركته في الدنيا والآخرة، وإنما قيل: (هلكته) هنا لبيان كثرة ما أنفق منه. قال ربنا: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠﴾ [الأنفال].

وواقع الكافرين أنهم ينفقون أموالهم للصدِّ عن سبيل الله، وفي أوجه الباطل، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۝٣٦﴾ [الأنفال]، ولو أنفقوها في أوجه الخير لم يقبل منهم، ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٤].

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۝٧﴾، أيظن هذا الكافر أن فعله خافٍ عن الله، وأن الله لم يطَّلع عليه؟ قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾ [العلق]، فهو يرى صنيعه ويعلم غرضه، وسيجازيه على ذلك، وعلى المؤمن أن يعتبر بذلك.

قال ابن المبارك لرجل: «راقِب الله تعالى»؛ فسأله عن تفسيرها فقال: «كن أبدًا كأنك ترى الله ﷻ»(٢). وسئل الحارث المحاسِبي عن المراقبة فقال: «عِلمُ القلب بقُرب الله تعالى»(٣).

---

(١) البخاري (١٤٠٩)، ومسلم (٨١٦).
(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/٢٩٧).
(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/٢٩٧).

وواجب على المسلم أن يُراقب ربه أبدًا، ويتأكد ذلك عليه في مواطن ثلاثةٍ:

● الأول: قبل التلبس بطاعة الله؛ ليكون العمل خالصًا.

● الثاني: أثناء القيام بالطاعة؛ لأداء العبادة في أحسن صورة وأكمل حال.

● الثالث: قبل المعصية؛ للكفِّ عنها.

وقد قال نبيُّنا ﷺ: «**قالت الملائكة ربِّ! ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة (وهو أبصر به) فقال: ارقُبُوه، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة؛ فإنه تركها من جَرّاي**»[١].أي: من أجلي.

وقد قال أحدهم لبعض العلماء: عظني. فقال: «لئن كنت إذا عصيت خاليًا ظننت أنَّه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت». وقال ابن القيم ﷺ: «وأرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله تعالى في الخواطر سبب لحفظها في حركات الظواهر، فمن راقب الله في سره حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته»[٢]. وذلك أنَّ الشيطان إذا لم يُستجب له في أمر معصية فإنه يدعو إلى طُرقها وذرائعها، ومبدأ ذلك فكرة يلقي بها في رُوعِك، فإذا حرس الإنسان خاطره، وألقى عنه وساوس عدوِّ الله فقد قطع عليه السبيل، وجعل بينه وبينه حاجزًا فلم يحظ بمرادِهِ منه. وقيل لبعضهم: متى يهش الراعي غنمه بعصاه عن مراتع الـهَلَكة؟ فقال: إذا علم أنَّ عليه رقيبًا[٣]. فخير للوالد أن يغرس هذه المعاني في نفس طفله، فالطفل إذا رُبِّـي على الوعيد والضرب تأتَّى له أن يعصي ربه إذا غاب عن نظر والده، ولكن من يغيب عن نظر ربه؟! فلو عرَّفناه بذلك لاستقام حاله.

---

(١) مسلم (١٢٩).

(٢) مدارج السالكين (٢/٦٦).

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/٣٩٦).

الآيات (٨ ـ ٢٠)

أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾، ألم نجعل له عينين يبصر بهما؟ ولسانًا وشفتين للنطق؟ وبيّنّا له طريق الخير وغيره؟ قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان]. ومن أراد أن يشعر بعظم نعمة العين فليغمضهما مدة وجيزة، وليحاول فيها مباشرة ما كان يقوم به من أعمال!

ثم بيّن تعالى كفران الإنسان إذ لم يسخر تلك النعم فيما أراد فقال: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾، أي مع ما سبق لم يقتحمها، وكلمة الاقتحام ذات وقع شديد، وهذه السورة جاءت فيها مثل هذه الألفاظ القوية في مدلولها، الشديدة في وقعها؛ لتهز النفوس، وتحرك مشاعر المخاطبين. والعقبة: المكان المرتفع في الجبل . والمراد: الحث على سلوك سبيل العمل الصالح.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾، تهيئة للمؤمن لمعرفة الطريق، كأنه قال: أمامك طريق صعب كالعقبة يحتاج إلى اقتحام وصبر، وبهذا تتهيأ النفوس لاجتياز

عقباته. كما قال ربنا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾، عتق المسلم من الرق. وشريعتنا تشوّفت إلى التخلُّص من الرق.

ومن اقتحام العقبة بذل الإحسان ومن أهمه الإطعام لأن قوام الحياة به، ولهذا قال: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾، والمسغبة المجاعة، فالإطعام عند شدَّةِ الجوع لليتيم الذي فقد أباه وهو من الأقارب، وللمسكين ذي المتربة، من أعظم الأعمال الصالحة، وفي ذلك تنبيهٌ على أن للمستحق القريب مزية بسبب القرب. وأما المسكين ذو المتربة فهو كما «قالَ ابنُ عَبّاسٍ ﷺ: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ هُوَ المَطرُوحُ فِي الطَّرِيقِ، الَّذِي لا بَيتَ لَهُ، وَلا شَيءَ يَقِيهِ مِنَ التُّرابِ»[1]. وقيل غير ذلك، وهذا مقدَّم لشدة حاجته. وقد ثبت عَن عَبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ ﷺ أنه قالَ: لَمَا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَدِينَةَ انجَفَلَ النَاسُ إليه، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَجِئتُ فِي النَاسِ لِأَنظُرَ إِلَيهِ، فَلَمّا استَثبَتُّ وَجهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَرَفتُ أَنَّ وَجهَهُ لَيسَ بِوَجهِ كَذّابٍ، وَكانَ أَوَّلُ شَيءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَن قالَ: «**أَيُّها النّاسُ؛ أَفشُوا السَّلامَ، وَأَطعِمُوا الطَّعامَ، وَصَلُّوا والنّاسُ نِيامٌ، تَدخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلامٍ**»[2].

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾، ﴿ثُمَّ﴾ هنا للترتيب الذكري لا الترتيب الزماني، لأنه لا يمكن أن تقبل صدقة إلا مع الإيمان بالله، قال ربنا: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤]. فالمعنى: ثم كان هذا المقتحم قبل أن يقتحم هذه

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٤٠٨).
(٢) الترمذي (١٨٥٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٦٩).

الخصال من الذين آمنوا، وأوصى بعضهم بعضًا بالصبر على مُرِّ القضاء، وبالصبر عن المعصية، وعلى الطاعة، وكان ممن أوصى بعضهم بعضًا بالتراحم فيما بينهم. فهؤلاء أصحاب الجنة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾﴾، أي: أصحاب الشمال.

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾، مغلقة عليهم، لا يخرجون منها. كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة]، وتأمل كيف قيل في حق أهل النار: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ﴾؛ لرغبتهم في الخروج منها، أما أهل الجنة فلما فيها من النعيم فإنه لا يرغب في الخروج منها أحد، بل ولا التحول عن موضعه فيها! قال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف]، لتمام رضاهم، فكان وعده لهم بأنه لن يخرجهم منها أحد؛ لئلا يخافوا من ذلك، قال الله تعالى: وقال: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر].

نسأل الله من فضله.



بين يدي سورة الشمس

وهي مكية اتفاقًا[1].

أسماؤها:

سورة «الشمس»، وسورة «﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾»[1].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها أَربع وَخَمسُونَ كلمة، وحروفها مئتان وَسِتَّة وَأَربَعُونَ حرفًا، وَهِي سِتَّ عشرَة آيَة فِي المدنِي الأول، وَيُقال فِي المَكِّيَ كَذَلِك، وَخمس عشرَة فِي عدد الباقِينَ، اختلافها آيَة ﴿فَعَقَرُوهَا﴾، عدها المدنِي الأول والمكي بِخِلاف عَنهُ، وَلم يعدها الباقُونَ»[2].

ما ورد فيها:

قَال جابِر بن عَبدِ اللهِ الأَنصارِي ﷺ، قالَ: أَقبَلَ رَجُلٌ بِناضِحَينِ وَقَد جَنَحَ اللَّيلُ، فَوافَقَ مُعاذًا يُصَلِّي، فَتَرَكَ ناضِحَهُ وَأَقبَلَ إِلَى مُعاذٍ، فَقَرَأَ بِسُورَةِ البَقَرَةِ، فانطَلَقَ الرَّجُلُ وَبَلَغَهُ أَنَّ مُعاذًا نالَ مِنهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَشَكا إِلَيهِ مُعاذًا، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يا مُعاذُ، أَفَتّانٌ أَنتَ؟ - ثَلاثَ مِرارٍ - فَلَولاَ صَلَّيتَ بِـ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾**،

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٣٦٥).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٧٥).

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَراءَكَ الكَبِيرُ والضَّعِيفُ وَذُو الحاجَةِ»[١].

موضوعاتها:

«تهديد المشركين بأنه يوشك أن يُصيبهم عذاب بإشراكهم وتكذيبهم برسالة محمد ﷺ، كما أصاب ثمودًا بإشراكهم وعُتوِّهم على رسول الله ﷺ الذي دعاهم إلى التوحيد، وقدم لذلك تأكيد الخبر بالقسم بأشياء معظمة، وذكر من أحوالها ما هو دليل على بديع صنع الله تعالى الذي لا يشاركه فيه غيره، فهو دليل على أنه المنفرد بالإلهية والذي لا يستحق غيره الإلهية، وخاصة أحوال النفوس ومراتبها في مسالك الهدى والضلال والسعادة والشقاء»[٢].

مقصدها:

الحث على تزكية النفس، والتحذير من التفريط في ذلك بموافقة المعرضين عن الله ورسوله ببيان عقوبة بعض من سلف.

---

(١) البخاري (٧٠٥).
(٢) التحرير والتنوير (٣٦٦/٣٠).

سورة الشمس: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ١٠)

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾﴾، بدأ ربنا هذه السورة بالقسم بهذا المخلوق المتوهِّج المضيء، قال ربنا: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ [النبأ]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم]، والمنة بها على العباد كبيرة، ما أكثر فوائدها للنبات والإنسان!

قال: ﴿وَضُحَاهَا﴾، «وفي المراد بضُحاها ثلاثة أقوال:

- أحدها: ضوؤها، قاله مجاهد، والزجّاج. والضحى: حين يصفو ضَوءُ الشمس بعد طلوعها.
- والثاني: النهار كلُّه، قاله قتادة، وابن قتيبة.
- والثالث: حرُّها»[1].

ثم قال: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾﴾، أي إذا تبعها، فهما جرمان يجريان يتلو هذا هذا،

---

(١) زاد المسير (٤/٤٥٠).

فإذا غابت الشمس ظهر القمر، والعكس، ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس].

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾﴾، وهذا قسم بالنهار إذا أظهر البسيطة[1]. وقيل: أظهر الشمس، فالضمير في ذلك كلّه يعود إلى الشمس[2].

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾﴾، يغشى الشمس حين تغيب، فيظلم الأفق.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾﴾، إذا جعلنا ﴿ما﴾ مصدرية كان معنى الآية: والسماء وبنائها، وإذا كانت بمعنى (مَن)، كانت بمعنى: والسماء وبانيها[3].

﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾﴾، ويقال في معنى ﴿ما﴾ هنا ما قيل فيما قبلها. والمراد: والأرض وبسطها، أو: ومن بسطها.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾﴾، خلقها سوية على الفطرة، كما قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾، ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ما مِن مَولودٍ إلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطرَةِ، فَأَبواهُ يُهَوِّدانِهِ أو يُنَصِّرانِهِ، أو يُمَجِّسانِهِ، كَما تُنتَجُ البَهيمَةُ بَهيمَةً جَمعاءَ، هَل تُحِسُّونَ فِيها مِن جَدعاءَ؟**»، ثُمَّ يَقولُ أَبو هُرَيرَةَ ﷺ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] الآيَةَ»[4].

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾، بيّن لها الخير والشر، كما قال ربنا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان]، وقال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد]. والصحيح أن المراد ما قاله ابن زيد: «جعل ذلك فيها بتوفيقه إياها للتقوى، وخذلانه إياها للفجور»[5].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤١٠/٨).
(٢) السابق.
(٣) تفسير ابن كثير (٤١١/٨).
(٤) البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).
(٥) زاد المسير (٤٥١/٤).

ثم بعد أن قدم ﷻ بذلك القسم الطويل وهو أطول قسم في القرآن جاء الجواب: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾، ومناسبة ذلك للقسم بالشمس وضيائها ما في الاستقامة والتزكية من الراحة والضياء والإشراق واطمئنان النفس. والتزكية: تطهير النفس من المعاصي، وإصلاحها بالصالحات. وعرَّفها نبينا ﷺ لما سئل: ما زكى نفسه؟ فقال: «**أن يعلم أن الله ﷻ معه حيث كان**»[1]. فهذه حقيقة التزكية: مراقبة الله، وهذا يقتضي اتباع الرسول ﷺ والعمل بشريعته ومجانبة مخالفته.

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾، والدس إخفاء فطرة الخير، والمعنى: خاب من دسَّ نفسه، قال ابن كثير رحمه الله: «أي: أَخمَلَها، وَوَضَعَ مِنها بِخِذلانِهِ إيّاها عَنِ الهُدَى، حَتَّى رَكِبَ المَعاصِيَ وَتَرَكَ طاعَةَ اللهِ ﷻ»[2].

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الصغير، ص(١١٥)، وصححه الألباني في السلسلة (١٠٤٦).
(٢) تفسير ابن كثير (٤١٢/٨).

الآيات (١١ ـ ١٥)

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

بعد أن بيَّن ربنا سبحانه أن الفلاح في تزكية النفس باتباع النبي ﷺ، والتزام شرعه، والخسران في خلاف ذلك، ضرب لهم مثلًا بقوم لم يزكوا أنفسهم! فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾، أي بسبب طغيانها، وثمود من الأمم التي أهلكها الله بذنوبها، جمعوا إلى الشرك وتكذيب رسولهم صالح عليه السلام أنواعًا من الذنوب، جماعها العناد والإصرار والاستكبار، وكان من آخر أمرهم أنهم عقروا الناقة التي جعلها الله لهم آية على صدق نبوة نبيهم لما سألوه الآية! فأخذتهم الصيحة والرجفة، فأصبحوا في دارهم جاثمين.

فهؤلاء أشقياء بُعَداء، لكنَّ قُدّارًا الذي عقرها كان أشقى القوم، ولهذا قال: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾، حذرهم من التعرُّض إلى الناقة، وسقياها، ونهوا عن الشرب في يوم شربها، كما قال سبحانه: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾، كذبوا نبيهم، قال ابن كثير رحمه الله: «﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي:

غَضِبَ عَلَيهِم، فَدَمَّرَ عَلَيهِم، ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: فَجَعَلَ العُقُوبَةَ نازِلَةً عَلَيهِم عَلَى السَّواءِ»[١]. ولا يخاف الله عاقبة أخذهم بالعذاب. ومن ذا الذي يسأله وهو الفعال لما يريد سبحانه؟

والسؤال: لماذا عمهم الله بالعذاب والذي عقرها واحد منهم؟ والجواب: لأنهم أقروه ولم ينكروا عليه، بل هم من نادوه، ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ٢٩﴾ [القمر]، ولا فرق عند الله بين من فعل المُنكر ومن دعا إليه ومن أقره، فعن عرس بن عميرة الكندي ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «**إذا عُمِلت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيَها كان كمن شهدها**»[٢]. ومن أدلة ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ٤﴾ [الحجرات]. فالذي نادى على رسول الله ﷺ واحد فقط، فتأمل كيف أشرك الله معه غيره في الذم مع أنهم لم يباشروا النداء، لكنهم لم ينكروه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾، ولم يقل: إن الذي يناديك! وأوضح منها في الدلالة على ذلك ما نحن فيه: فإن الذي عقر ناقة صالح ﷺ واحد، قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ٢٩﴾ [القمر]، وهو قُدَار بن سالف المذكور سلفًا كما قال بعضهم، ولما سكت من معه وأقروه على باطله أشركهم الله في الحكم والعقوبة، قال ربنا: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ٧٧ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ٧٨﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ١٤﴾. فترك الإصلاح سبب لنزول العقاب، ولا نجاة بعد نزوله إلا للمصلحين، فعن النعمان بن بشير ﷺ، عن النَّبيّ ﷺ، قالَ: «**مَثَلُ القائِمِ في حُدُودِ اللهِ والواقِعِ فِيها كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَصارَ بَعْضُهُم أعلاها وَبَعضُهُم أَسفَلَها، وَكانَ الَّذِينَ في أَسفَلِها إِذا اسْتَقَوا مِنَ الماءِ مَرُّوا عَلَى مَن فَوقَهُم، فَقالُوا: لَو أَنّا خَرَقنا في نَصِيبِنا خَرقًا**

(١) تفسير ابن كثير (٨/٤١٤).
(٢) أبو داود (٤٣٤٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٩).

وَلَم نُؤذِ مَن فوقَنا، فَإِن تَرَكُوهُم وَما أرادُوا هَلَكُوا جَميعًا، وَإن أخَذُوا عَلَى أيدِيهِم نَجَوا وَنَجَوا جَميعًا»[١]. والقائِمُ في حُدُودِ اللهِ تَعالىَ: القائم في دفع مخالفتها بإنكار المُنكرات وإزالتِها، والمُرادُ بالحُدُودِ: ما نَهَى اللهُ عَنهُ. وعن زينب بنت جحش ﵂، أن النبي ﷺ دخل عليها فزعا يقول: **«لا إله إلا الله! ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتِح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»**، وحلق بين أصبعيه الإبهام والتي تليها، قالت: فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: **«نعم إذا كَثُر الخَبَث»**[٢]. وعن جرير بن عبد الله ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون على أن يغيروا عليه ولا يغيرون إلا أصابهم الله منه بعقاب قبل أن يموتوا»**[٣]. وربنا يقول: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ۝١١٧﴾ [هود]. ويقول في شأن من اعتدى من يهود في السبت: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝١٦٥﴾ [الأعراف].

---

(١) البخاري (٢٤٩٣).
(٢) البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠)
(٣) أبو داود (٤٣٣٩)، وحسنه الألباني في سلسلته (٣٣٥٣).



بين يدي سورة الليل

وهي مكية في قول الجمهور[١].

أسماؤها:

سورة «الليل»، وسورة «﴿وَٱلَّيۡلِ﴾»، وتسمى بسورة «﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها إِحدَى وَسَبعُونَ كلمة، وحروفها ثَلاث مئة وَعشرَة أحرف، وَهِي إِحدَى وَعِشرُونَ آيَة فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[٢].

ما ورد فيها:

قال جابِر بن عَبدِ اللهِ الأَنصارِي ، قالَ: أَقبَلَ رَجُلٌ بِناضِحَينِ وَقَد جَنَحَ اللَّيلُ، فَوافَقَ مُعاذًا يُصَلِّي، فَتَرَكَ ناضِحَهُ وَأَقبَلَ إِلَى مُعاذٍ، فَقَرَأَ بِسُورَةِ البَقَرَةِ، فانطَلَقَ الرَّجُلُ وَبَلَغَهُ أَنَّ مُعاذًا نالَ مِنهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَشَكا إِلَيهِ مُعاذًا، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«يا مُعاذُ، أَفَتَانٌ أَنتَ؟ ـ ثَلاثَ مِرارٍ ـ فَلَولاَ صَلَّيتَ بِـ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾، ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَراءَكَ الكَبِيرُ، والضَّعِيفُ، وَذُو الحاجَةِ»**[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٣٧٧).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٧٦).
(٣) البخاري (٧٠٥).

موضوعاتها:

«احتوت على بيان شرف المؤمنين، وفضائل أعمالهم، ومذمة المشركين، ومساويهم، وجزاء كل، وأن الله يهدي الناس إلى الخير، فهو يجزي المهتدين بخير الحياتين، والضالين بعكس ذلك. وأنه أرسل رسوله ﷺ للتذكير بالله وما عنده، فينتفع من يخشى فيفلح، ويصدف عن الذكرى من كان شقيًا فيكون جزاؤه النار الكبرى، وأولئك هم الذين صدهم عن التذكر إيثار حب ما هم فيه في هذه الحياة، وأدمج في ذلك الإشارة إلى دلائل قدرة الله تعالى وبديع صنعه»[١].

مقصدها:

الترغيب في خصال البر؛ من العطاء، والتصديق بموعود الله، والتقوى، ببيان ما يترتب عليها في الآخرة من الفوز بدار الكرامة والنجاة من النار، والتحذير من ضد ذلك.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٣٧٨).

سورة الليل: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ١١)



﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾

عجبًا لمن يقرأ هذه السورة ويدَّعي أن الأمور قد تعثرت عليه! وسأبدأ الحديث عنها بحادثة عجيبة!

يقول أحد طلاب العلم: كنا قبل سنوات في مجلس من المجالس، والحضور فيه من طلاب العلم، فطُلب من أحد الحضور أن يقرأ شيئًا من القرآن، فقرأ سورة والليل، يقول: ولديَّ مشاريع، قال: فلما قرأ سورة الليل المشتملة على هذا القسم العجيب، قلت لشركائي في تلك المشاريع: أسمعتم هذه السورة؟ قالوا: نعم، وماذا تريد؟ قلت: أليس لدينا مشاريع؟ قالوا: بلى، أليست أمامنا صعوبات تعرض أحيانًا؟ قالوا: بلى، قال: بعد هذا اليوم إذا صدقتم مع الله وحققتم هذه الشروط بعد هذه الأقسام العظيمة ﴿أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦﴾، فلن يقف أمامنا عائق. ثم استرسل في النقاش معهم قائلًا: أرأيتم لو كان لدينا مشروع من هذه المشاريع فجاء أحد الأثرياء (وذكر رجلًا لا يعلم الناس عنه إلا خيرًا)، وقال لنا: سأتكفل بنفقات هذا المشروع، ولكن بشرط، ونفذنا شرطه، أكان يخذلنا؟ قالوا: لا. قال: فكيف إذًا بوعد الله ﷻ؟! ومرت

سنوات، وسمعت هذا الأخ يقول مرارًا: والله منذ تلك الليلة لم تواجهني أي مشكلة إلا العارض الذي ما يلبث أن يزول سريعًا.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ يقسم الله ﷻ بالليل إذا يغشى، أي: يغطي الأرض بظلامه.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾، بضيائه. وهكذا لا بُدَّ أن يتبع الليلَ النهار، ويمحو الضوء الظلمة، وفيه إشارة إلى أن غُمَّة صدر المؤمن، وكرب نفسه، لا بُدَّ أن يتبعهما فرج، وانشراح صدر، فليتفاءل، ولا ييأس أو يقنط من رحمة ربه.

وبدأ بالليل؛ لأن الليل هو الأصل والنهار طارئ، قال ربنا: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ۝٣٧﴾ [يس].

ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣﴾، والمراد: ومن خلق الذكر والأنثى، أي: يقسم بنفسه، هذا إذا كانت ﴿ما﴾، بمعنى (مَن)، أو كانت موصولة، وأما إذا كانت (ما) هنا مصدرية فيكون المراد القسم بخلق الذكر والأنثى، وهو قسم بفعله تعالى.

وقوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾، هو جواب القسم المتقدم، أي: إنَّ عملكم لمختلف، فمنكم من يعمل بطاعة الله، ومنكم من يعمل بالمعصية، في كل ساعة من الناس من يعمل بالطاعة، ومنهم من يكون في معصية، ومنهم من يعمل عملًا مباحًا أو مكروهًا، أو مندوبًا. أعمال متباينة، كتباين الليل والنهار، والرجل والمرأة، فسل نفسك: في أيِّ مسعىً أقمتَها؟ ومن أراد أن يعرف في الآخرة مقامه فلينظر في مقامه الذي أقام فيه نفسه في الدنيا.

﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦﴾، أي: «﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ﴾، ما أمر به من العبادات المالية، كالزكوات، والكفارات والنفقات، والصدقات، والإنفاق في وجوه الخير، والعبادات البدنية كالصلاة، والصوم ونحوهما، والمركبة منهما، كالحج والعمرة

ونحوهما، ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ ما نهي عنه، من المحرمات والمعاصي، على اختلاف أجناسها»[١].

﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾، صدق بالمجازاة على العمل الصالح بدخول الجنة. والتصديق بهذا من الإيمان بالغيب الذي مدح الله أصحابه في القرآن كثيرًا، ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة].

وهذا الوعد الكريم دخل فيه الصدِّيق الذي أنفق ماله كله في سبيل الله، وعُمر الذي أنفق نصفه، وعثمان الذي جهز جيش العسرة، ومن اشترى للأيتام نخلًا، ﷺ، وقول المفسرين: نزلت في فلان، هذا كثيرًا ما يكون من باب التفسير، أي هي شاملة لحال فلان، وقد لا يكون المقصود بها بيان سبب النزول، كما نص عليه ابن تيمية في أصول التفسير[٢].

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾، قال ترجمان القرآن: للخير[٣]. وفي الآية قول ثانٍ، وهو: للجنة، وليس خافيًا أنه لا تعارض بينهما، قال ربنا: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج]، أي: بدخول الجنة.

ومما دلت الآيات عليه: أن من صدق الله صدقه الله، وفي هذا قصة عجيبة:

عَن شَدّادِ بنِ الهادِ ﷺ، أَنَّ رَجُلًا مِنَ الأَعرابِ جاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَآمَنَ بِهِ، واتَّبَعَهُ، ثُمَّ قالَ: أُهاجِرُ مَعَكَ، فَأَوصَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ بَعضَ أَصحابِهِ، فَلَمّا كانَت غَزوَةٌ غَنِمَ النَّبِيُّ ﷺ سَبيًا، فَقَسَمَ وَقَسَمَ لَهُ، فَأَعطَى أَصحابَهُ ما قَسَمَ لَهُ، وَكانَ يَرعَى ظَهرَهُم، فَلَمّا جاءَ دَفَعُوهُ إِلَيهِ، فَقالَ: ما هَذا؟، قالُوا: قِسمٌ قَسَمَهُ لَكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَخَذَهُ فَجاءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقالَ: ما هَذا؟ قالَ: «قَسَمتُهُ لَكَ»، قالَ: ما عَلَى هَذا اتَّبَعتُكَ، وَلَكِنِّي اتَّبَعتُكَ عَلَى

(١) تفسير السعدي، ص(٩٢٦).
(٢) في مجموع الفتاوى (١٣/٣٤٠).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٨/٤١٧).

أَن أُرمَى إِلَى هاهُنا، وَأَشارَ إِلَى حَلقِهِ بِسَهمٍ، فَأَمُوتَ فَأَدخُلَ الجَنَّةَ فقالَ: «**إِن تَصدُقِ اللهَ يَصدُقكَ**»، فَلَبِثُوا قَلِيلًا ثُمَّ نَهَضُوا فِي قِتالِ العَدُوِّ، فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ يُحمَلُ قَد أَصابَهُ سَهمٌ حَيثُ أَشارَ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَهُوَ هُوَ؟**»، قالُوا: نَعَم، قالَ: «**صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ**»، ثُمَّ كَفَنَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي جُبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَدَّمَهُ فَصَلَّى عَلَيهِ، فَكانَ فِيما ظَهَرَ مِن صَلاتِهِ: «**اللهُمَّ هَذا عَبدُكَ خَرَجَ مُهاجِرًا فِي سَبِيلِكَ فَقُتِلَ شَهِيدًا أَنا شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ**»[1].

وهذا دليل على شكر الله، فمن اختار طريق الصالحات أعانه الله، ويسر له الخير، كما قال ربنا: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ١٧﴾ [محمد]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩﴾ [يونس].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ١٠﴾، هذا ضد الأول، بخل بماله، وبخل بجاهه، وبعمله، واستغنى بالدنيا عن الآخرة، وكذب بالجزاء في الآخرة، فهذا ييسر لطريق الشر، ولا يظلم ربك أحدًا، فربنا لا يضل أحدًا إلّا إن كان أهلًا للضلالة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥]، وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. قال ابن كثير رحمه الله: «وَالآياتُ فِي هَذا المَعنَى كَثِيرَةٌ دالَّةٌ عَلَى أَنَّ اللهَ، عز وجل، يُجازِي مَن قَصَدَ الخَيرَ بِالتَّوفِيقِ لَهُ، وَمَن قَصَدَ الشَّرَّ بِالخِذلانِ. وَكُلُّ ذَلِكَ بِقَدَرٍ مُقدَّرٍ، والأَحادِيثُ الدّالَّةُ عَلَى هَذا المَعنَى كَثِيرَةٌ»[2].

﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾، إذا كان من أهل النار لن يفيده ماله بشيء، ولن يكون معه شيء منه في الآخرة، وليس ما تركه مالًا له، بل ينتقل هذا المال إلى ورثته، فالمراد: المال الذي جمعه وتركه وحازه غيره، وكان سببًا في ضلاله، لن ينفعه في الآخرة إذا تقحم النار. قال ربنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٣٦﴾ [المائدة]، وقال:

---

(١) النسائي (١٩٥٣)، وصححه الألباني في أحكام الجنائز، ص(٦١).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٤١٧).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ ﴾ [المنافقون]، وقال عن أبي لهب:

﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ ﴾ [المسد].

الآيات (١٢ ـ ٢١)

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾، هذا وعد من الله تعالى، ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾، وفي المراد به قولان:

● الأول: بيان الحق من الباطل، والحلال من الحرام، فالهداية هنا هداية إرشاد.

● والثاني: من سلك طريق الهدى وصل إلى الله، وألهمه الهدى، كما قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩][1]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت].

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾، يعني الآخرة والأولى ملك لله، يحكم فيهما بما يشاء كونًا وشرعًا، وقدم الآخرة لأن ملكه فيها أظهر؛ إذ لا ينازعه منازع أو يخالف أمره أحد، فيوم القيامة يظهر أن الملك حقًا لله وحده، ويظهر أن الذين خالفوا حكمه في الدنيا لم يكن ذلك من حقهم بل هم مؤاخذون عليه مجزيون به محاسبون على مخالفتهم، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر].

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾، نارًا توهج عياذًا بالله. ثبت عَن النُّعمانِ بنِ بَشِيرٍ

---

(١) يراجع: تفسير ابن كثير (٨/٤٢١).

ﷺ، قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَخطُبُ فَقالَ: «أَنذَرتُكُمُ النّارَ، أَنذَرتُكُمُ النّارَ، أَنذَرتُكُمُ النّارَ» فَما زالَ يَقولُها حَتَّى لَو كانَ فِي مَقامِي هَذا، لَسَمِعَهُ أَهلُ السُّوقِ، حَتَّى سَقَطَت خَمِيصَةٌ كانَت عَلَيهِ عِندَ رِجلَيهِ[1]. فالإنذار من النار مطلب تحتاجه النفوس لتستقيم.

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦﴾، والأشقى: الشقي، «قال أبو عبيدة: والأَشقَى بمعنى الشقيّ. والعرب تضع (أفعَل)، في موضع (فاعل)، قال طرفة:

تَمَنَّى رِجالٌ أن أَمُوتَ وإن أمت   فتلك سبيلٌ لستُ فيها بأوحدِ

فالشقي: الكافر. قال ربنا: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ١٠٦﴾ [المؤمنون].

﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، تعريف بالأشقى الذي سلف ذكره. وتولى: أعرض.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ١٧﴾، أي: التقي كما مر معنا، فلا يدخل النار تقي. وقد قال ابن كثير في تفسير هذه الآية كلمة يجدر بنا أن نثبتها، ونشيعها، قال: «وَقَد ذَكَرَ غَيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرِينَ أَنَّ هَذِهِ الآياتِ نَزَلَت فِي أَبِي بَكرٍ الصِّدِّيقِ، ﷺ، حَتَّى إِنَّ بَعضَهُم حَكَى الإِجماعَ مِنَ المُفَسِّرِينَ عَلَى ذَلِكَ. وَلا شَكَّ أَنَّهُ داخِلٌ فِيها، وَأَولَى الأُمَّةِ بِعُمُومِها، فَإِنَّ لَفظَها لَفظُ العُمُومِ، وَهُوَ قَولُهُ تَعالَى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ١٩﴾، وَلَكِنَّهُ مُقَدَّمُ الأُمَّةِ، وَسابِقُهُم فِي جَمِيعِ هَذِهِ الأَوصافِ وَسائِرِ الأَوصافِ الحَمِيدَةِ؛ فَإِنَّهُ كانَ صِدِّيقًا، تَقِيًّا، كَرِيمًا، جَوادًا، بَذّالًا لِأَموالِهِ فِي طاعَةِ مَولاهُ، وَنُصرَةِ رَسُولِ اللهِ، فَكَم مِن دَراهِمَ وَدَنانِيرَ بَذَلَها ابتِغاءَ وَجهِ رَبِّهِ الكَرِيمِ، وَلَم يَكُن لِأَحَدٍ

(١) الدارمي (٢٨٥٤)، وصححه الألباني في المشكاة (٥٦٨٧).

مِـنَ النّـاسِ عِندَهُ مِنَّةٌ يَحتـاجُ إِلَى أَن يُكـافِئَهُ بِهـا، وَلَكِـن كانَ فَضلُهُ وَإِحسـانُهُ عَلَى السّـاداتِ والرُّؤَسـاءِ مِن سـائِرِ القَبائِـلِ؛ وَلِهَذا قـالَ لَهُ عُروَةُ بنُ مَسـعُودٍ - وَهُوَ سَـيِّدُ ثَقِيـفٍ، يَـومَ صُلحِ الحُدَيبِيَـةِ - : أَمـا واللهِ لَـولا يَـدٌ لَكَ كانَت عِنـدِي لَم أَجـزِكَ بِها لَأَجبتُـكَ. وَكانَ الصِّدِّيـقُ قَـد أَغلَـظَ لَهُ فِي المَقالَـةِ، فَـإِذا كانَ هَـذا حالُهُ مَعَ سـاداتِ العَـرَبِ وَرُؤَسـاءِ القَبائِـلِ، فَكَيـفَ بِمَـن عَداهُـم»؟[1]، وإذا نظرنـا إلى قوله سـبحانه: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣]. فيكـون أبـو بكـر هـو أتقى هـذه الأُمَّة، وأكرمهـا عنـد الله تعـالى بعد رسـول الله ﷺ.

﴿ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾، ينفـق؛ ليتطهـر مـن الذنوب، قال تعـالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. وهـذا يـدل على كبـير أثر الصدقـة في التطهير مـن الذنوب.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾، تصـدق، وليـس بينـه وبين مـن أنفق عليهم منفعـة، وإنما يتصدق لا يريد شـيئًا سـوى وجه الله. أولئـك مـن أوجـب الله على نفسـه أن يرضيهـم بعطائـه، نسـأل الله مـن فضله وإحسانه.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٤٢٢).

سُورَةُ الضُّحَىٰ

بين يدي سورة الضحى

وهي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

«سورة الضحى»، و«سورة ﴿وَالضُّحَىٰ﴾»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها أَربَعُونَ كلمة ككلم والعادِيات، وحروفها مئة واثنانِ وَسَبعُونَ حرفًا، وَهِي إِحدَى عشرَة آيَة فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[٢].

سبب نزولها:

عن جُندَبِ بنِ عَبدِ الله ﷺ، قالَ: احتَبَسَ جِبرِيلُ ﷺ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقالَتِ امرَأَةٌ مِن قُرَيشٍ: أَبطَأَ عَلَيهِ شَيطانُهُ، فَنَزَلَت: ﴿وَالضُّحَىٰ ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣﴾»[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٩٣/٣٠).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٧٧).
(٣) البخاري (٤٩٨٣).

ما ورد فيها:

قال جابِر بن عَبدِ اللهِ الأنصارِي ﷺ: **أَقبَلَ رَجُلٌ بِناضِحَينِ وَقَد جَنَحَ اللَّيلُ، فوافَقَ مُعاذًا يُصَلِّي، فَتَرَكَ ناضِحَهُ وَأَقبَلَ إِلَى مُعاذٍ، فَقَرَأَ بِسُورَةِ البَقَرَةِ، فانطَلَقَ الرَّجُلُ، وَبَلَغَهُ أَنَّ مُعاذًا نالَ مِنهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَشَكا إِلَيهِ مُعاذًا، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يا مُعاذُ، أَفَتَّانٌ أَنتَ؟ ـ ثَلاثَ مِرارٍ ـ فَلَولاَ صَلَّيتَ بِـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَراءَكَ الكَبِيرُ، والضَّعِيفُ، وَذُو الحاجَةِ»**[1].

موضوعاتها:

«إبطال قول المشركين؛ إذ زعموا أن ما يأتي من الوحي للنبي ﷺ قد انقطع عنه. وزاده بشارة بأن الآخرة خير له من الأولى على معنيين في الآخرة والأولى. وأنه سيعطيه ربه ما فيه رضاه، وذلك يغيظ المشركين. ثم ذكره الله بما حفه به من عنايته في صباه وفي فتوته وفي وقت اكتهاله. وأمره بالشكر على تلك النعم بما يناسبها من نفع لعبيده وثناء على الله بما هو أهله»[2].

مقصدها:

تثبيت قلب النبي ﷺ، بعدما قلق لانقطاع الوحي.

---

(١) البخاري (٧٠٥).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/٣٩٤).

سورة الضحى: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٥)

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١﴾، هذا قسم من الله ﷻ، وفي المراد بالضحى أقوال، «قيل: ضوء النهار. وقيل: صدر النهار. وقيل: أول ساعة من النهار. وقيل: النهار كلُّه»[1]، والضحى يستعمل في ذلك كله.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾، أقسم بالليل إذا غطى الكونَ ظلامُه وسكن.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾، هذا جواب القسم، و﴿مَا وَدَّعَكَ﴾: ما هجرك. ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾: ما أبغض.

وانقطاع الوحي عن النبي ﷺ لم يكن من جراء أمر بدر منه، ومع ذلك حزن حزنًا شديدًا، فكيف بمن ينقطع عن القرآن بمحض اختياره! تجد في الناس من يمكث أيامًا وأسابيع وأشهرًا ولم يقرأ وِرده من القرآن! سألت يومًا أحد حُفّاظ كتاب الله: متى تختم؟ قال: أختم كل ثلاثة أشهر! أما يخشى الإنسان أن ينزع منه القرآن؟ والله يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم

(١) زاد المسير (٤/٤٥٧).

مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المزمل]، هذه بعض أهم الأسباب التي يمكن أن تصرف عن القرآن، المرض، والسفر لطلب الرزق، والجهاد في سبيل الله، ومع الانشغال بهذه الأمور قال ربنا لأهلها: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، فأي شيء بعد ذلك يسوغ هجر القرآن؟! ألا يخشى هاجر القرآن أن يكون خصمًا لرسول الله ﷺ يوم يشكو إلى ربه ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفرقان]؟

وإن مما يؤسف عليه أن يُضيِّع بعض الناس ساعات طويلة مع الجوال، والفضائيات، والإعلام الجديد، ولا يقدر أن يُنفق عشر هذا الوقت مع كتاب الله! فأي خذلان وحرمان هذا؟!

ولستُ أشكُّ أن بعض الناس لو أنفق وقته الذي يقضيه في مواقع التواصل الاجتماعي على تلاوة القرآن الكريم لختم كل ثلاث ليالٍ!

ومن النكات التي يحسن ذكرها هنا: هو أن هذه السورة نزلت لإيناس رسول الله ﷺ، ولمحو آثار همه الذي أحاط بقلبه، فبدأ بالضحى، وفيه الإشراق، والنور، وذلك يبعث التفاؤل، ثم ثنَّى بحالٍ تكون فيها السكينة، ثم أعقب ذلك بالكلمة اللطيفة.

وقوله: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾، المراد به أن ما أعده الله تعالى لنبيه ﷺ في الآخرة خير له من الدنيا وما فيها. ومما دلت الآية عليه: أن له في الدنيا خيرًا، لكن ما أُعد له في الآخرة أفضل بما لا يخطر على بال، وهذا ما يدل اسم التفضيل عليه. قال ربنا: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل].

وقد دلت السنة على أن المؤمن إذا دُفن فإنه لا يُحبُّ أن يعود إلى الدنيا؛ لما يكرمه الله به في قبره، فكيف بما أعده الله له في الجنة؟ وكيف بما للنبي ﷺ فيها؟! فعن أنس

بن مالك ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «ما مِن عَبدٍ يَموتُ، لَهُ عِندَ اللهِ خَيرٌ، يَسُرُّهُ أَن يَرجِعَ إِلَى الدُّنيا، وَأَنَّ لَهُ الدُّنيا وَما فِيها، إِلّا الشَّهِيدَ؛ لِما يَرَى مِن فَضلِ الشَّهادَةِ، فَإِنَّهُ يَسُرُّهُ أَن يَرجِعَ إِلَى الدُّنيا، فَيُقتَلَ مَرَّةً أُخرَى»[1].

وقد أكَّد ربنا هذا المعنى في مواضعَ من القرآن، قال ربنا: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]، وقال: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ٣٥﴾ [الزخرف]، وقال: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ١٧﴾ [الأعلى].

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ٥﴾، والعطاء في الآية لم يحدَّد، لكن ما يكون من الله فلا بُدَّ أن تقر العين به؛ فإنه الكريم، الغني.

وبيَّن ربنا أن هذا العطاء سيُدخل الرضا في قلب النبي ﷺ.

وليس من دليل يدل على أن هذا العطاء خاص بالآخرة، بل سيعطيه في الدنيا وفي الآخرة ما يكون سببًا لخلوص الرضا إلى قلبه.

---

(١) البخاري (٢٧٩٥)، ومسلم (١٨٧٧).

الآيات (٦ ـ ١١)

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

بعد أن طمأن ربنا نبينا ﷺ ذكَّره بنعمه التي تدل على رعايته، وإحاطته بعنايته، فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾، فالنبيُّ ﷺ تُوفِّيَ أبوه وهو في بطن أمه، وتوفيت أمُّه وله من العمر ست سنوات، فهو ﷺ يتيم ولطيم، واللطيم الذي مات أبواه، فكفله بعدهما جده عبد المطلب، ولما تُوفِّيَ كفله عمه أبو طالب، وبقي معه حتى بعثه الله، وكان عمه يحوطه بعد بعثته.

فقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾؛ أي: آواك، وأيدك بمن يكفلك، ورباك فأحسن تربيتك.

ومن أمعن النظر في سيرة نبينا ﷺ المباركة علم أنَّه ابتلي ابتلاء شديدًا منذ الصغر، وتجرع من أنواع المرارات كلها؛ ليجد أهل البلاء جميعًا فيه الأسوة الحسنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾، هذه الآية تفسرها آية أخرى، وهي قول ربنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]. ومعلوم أن النبي ﷺ كان على التوحيد، يعبد الله وحده، فقد قالت أمنا عائشة ...: «كانَ أَوَّلُ ما بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الوَحيِ الرُّؤيا الصّادِقَةَ في النَّومِ، فَكانَ لا يَرَى رُؤيا إلّا جاءَت مِثلَ فَلَقِ الصُّبحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيهِ الخَلاءُ، فَكانَ يَخلُو بِغارِ حِراءٍ يَتَحَنَّثُ فِيهِ ـ وَهُوَ التَّعَبُّدُ ـ اللَّيالِيَ أُولاتِ العَدَدِ، قَبلَ أَن يَرجِعَ إِلَى

أَهلِـهِ وَيَـتَزَوَّدُ لِذَلِـكَ، ثُمَّ يَرجِـعُ إِلَى خَدِيجَـةَ فَيَـتَزَوَّدُ لِمِثلِها»[1]. ولم يسـجد ﷺ لصنم قـط. لكـن لـم يكـن له علـم بالشرائـع الـتي تقـرب إلى الله، وتفاصيـل الأعمال الـتي يحبهـا الله ويرضاها، وهـذا يدلنـا على أن العقل وحده لا يمكـن أن يغني عن الشرائـع، وأنـه لا بُـدَّ للبشرية منهـا لتتحقـق الهداية لهم.

ثم قال: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ ٨ ﴾، أي: فقيرًا فأغناك. وممن سخره الله لذلك أم المؤمنين خديجة ، وأرضاها، فقد ثبت عن عائشة ، قالت: كانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا ذَكَرَ خَدِيجَةَ أَثنَى عَلَيها، فَأَحسَنَ الثَّناءَ، قالَت: فَغِرتُ يومًا، فَقُلتُ: ما أَكثَرَ ما تَذكُرُها حَمراءَ الشِّدقِ! قَد أَبدَلَكَ اللهُ ﷻ بِها خَيرًا مِنها! قالَ: «**ما أَبدَلَنِي اللهُ ﷻ خَيرًا مِنها، قَد آمَنَت بِي إذ كَفَرَ بِي النّاسُ، وَصَدَّقَتنِي إذ كَذَّبَنِي النّاسُ، وَواسَتنِي بِمالِها إذ حَرَمَنِي النّاسُ، وَرَزَقَنِي اللهُ ﷻ وَلَدَها إذ حَرَمَنِي أَولادَ النِّساءِ**»[2]. وهذا وفاء كريم لا يستغرب من معدنه ﷺ! فأين خديجة ، من هذا الحوار بينه وبين أحب الناس إليه؟ وكم مضى عليها! ولا يزال يذكر يدها، ولا يذكر ما أصلحه لها من مالها ﷺ.

وفي الآية من اللطائف: أن الخير يُنسب إلى الله، وأما غيره فلا ينسب إليه، مع إيماننا بأنه لا يقع في الكون شيء إلا بقدره، قال ربنا: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا ﴾، ولم يُنسب ذلك إلى ربنا، أما الخير فنسب إليه، فقال: ﴿ فَهَدَىٰ ﴾، وهذا ما جاء على لسان الجن كما أخبر الله عنهم: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠ ﴾ [الجن]، وعلمنا خليل الرحمن هذا الأدب لما قال: ﴿ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ ﴾ [الشعراء]، فنسب المرض إلى نفسه، والشفاء إلى ربه.

وتأمل في أسلوب الإقناع الذي اشتملت عليه هذه السورة، فلإبطال دعوى المشركين كانت هذه الأسئلة المقنعة: ألم أحسن إليك؟ ألم أجبر كسر قلبك قبل نزول الوحي عليك؟ ألم أرحم يُتمك؟ ألم أُغنِك؟ وهذا قبل نزول الوحي عليك، أفأخذلك

---

(١) مسلم (١٦٠).
(٢) أحمد (٢٤٨٦٤)، وصححه شعيب الأرنؤوط في تخرج المسند (٤١/٣٥٦).

بعده؟! فما أحسن هذا الأسلوب! وما أحوجنا إليه مع أولادنا وزوجاتنا!

وفي الآية: تعداد نعم الله، فلا يقال: نعم الله علينا لا تعد ولا تحصى، يمكنك أن تحاول عد بعضها، فالنفي للإحصاء لا للعد، ألست تقول: أنعم الله عليَّ بالإيمان، والصحة، والعافية، والمال؟ فهذا تعداد لبعضها، وهذا من شكرها، لكن مهما حاولت إحصاءها فلا سبيل إلى ذلك، قال ربنا: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فالمنفي فيها: إحصاؤها، لا عدُّها.

وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾؛ أي: «لا تُـذِلَّهُ، وَتَنهَـرهُ، وَتُهِنهُ، وَلَكِن أحسِـن إلَيـهِ، وَتَلَطَّـف بِهِ. قـالَ قَتادَةُ: كُـن لِليَتِيـمِ كالأَبِ الرَّحِيمِ»(١).

لكن: هل معنى ذلك أنه لا يضرب لو كانت المصلحة في ضربه؟ لا، وفي الحديث: «**مُرُوا أَولادَكُم بِالصَّلاةِ وَهُم أَبناءُ سَبعِ سِنِينَ، واضرِبُوهُم عَلَيها، وَهُم أَبناءُ عَشرٍ، وَفَرِّقُوا بَينَهُم فِي المَضاجِعِ**»(٢). فالتأديب شيء، والقهر شيء آخر.

وقد ثبت عَن أَنَسِ بنِ مالِكٍ ﷺ، قالَ: كَثِيرًا ما كُنتُ أَسمَعُ النَّبِيَّ ﷺ يَدعُو بِهَؤُلاَءِ الكَلِماتِ: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ، والحَزَنِ، والعَجزِ، والكَسَلِ، والبُخلِ، وَضَلَعِ الدَّينِ، وَقَهرِ الرِّجالِ**»(٣). فكيف لو وقع هذا الذي استعاذ منه النبي ﷺ على يتيم ضعيف؟!

وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾، يشمل كل سائل معروف، سواء سأل مالًا أو سأل عن علم، أو شفاعة فيما تقدر عليه، وقد تعتذر عن تحقيق طلبه لكن لا تنهره، ولو أساء في طلبه، بل ترفق به وتلطف.

والمراد بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾، الإخبار بها على سبيل شكر الله عليها. ومن الشكر أيضًا إعمال ما جاء في حديث الترمذي: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَن يَرَى أَثَرَ نِعمَتِهِ**

---

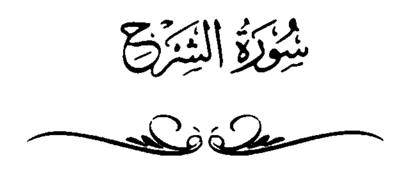
(١) تفسير ابن كثير (٨/٤٢٧).
(٢) أبو داود (٤٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٦٢).
(٣) صحيح الأدب المفرد (٥٢٢).

عَلَى عَبدِهِ»[١].

ومن هدايات هذه السورة: أن الأزمات والشدائد من أخصب ميادين تخريج القادة والعظماء والمصلحين، تأمل في المعاناة التي مر بها يوسف ﷺ حتى أصبح عزيز مصر، والشدائد التي عانى منها موسى ﷺ حتى أصبح من أولي العزم من الرسل، والمعاناة الكبرى التي عانى منها نبي الله ﷺ فأصبح سيد البشر، إذًا: الشدائد والمعاناة من أبرز ما يصقل مواهب القادة، وإن كانت النبوات وبعض المواهب لا تكتسب غير أن الله ﷻ ييسر لها أسبابًا تجعل المحل لائقًا للموهبة الربانية، وعلى المسلم أن يظن بربه الخير في كل ما قدَّر له.

---

(١) الترمذي (٢٨١٩)، وهو في السلسلة الصحيحة (١٢٩٠).



بين يدي سورة الشرح

وهي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

تسمى بسورة: «﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾»، و«﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾»، و«الشرح»، و«الانشراح»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها سبع وَعِشرُونَ كلمة، وحروفها مئة وَثَلاثَة أحرف، وَهِي ثَمانِي آيات فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[٢].

موضوعاتها:

«احتوت على ذكر عناية الله تعالى لرسوله ﷺ بلطف الله له وإزالة الغم والحرج عنه، وتيسير ما عسر عليه، وتشريف قدره لينفس عنه، فمضمونها شبيه بأنه حُجَّة على مضمون سورة الضحى؛ تثبيتًا له بتذكيره سالف عنايته به وإنارة سبيل الحق وترفيع الدرجة ليعلم أن الذي ابتدأه بنعمته ما كان ليقطع عنه فضله، وكان ذلك

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٤٠٧).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٧٨).

بطريقة التقرير بماض يعمله النبي ﷺ، وأتبع ذلك بوعده بأنه كلما عرض له عسر فسيجد من أمره يسرًا كدأب الله تعالى في معاملته فليتحمل متاعب الرسالة ويرغب إلى الله طلبًا لعونه»[١].

مقصدها:

تثبيت النبي ﷺ، ووعده بالمخرج عند كل ضيق يمر به.

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٤٠٨).

سورة الشرح: تأملات ووقفات

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾، المراد: صدر النبي ﷺ، وفُسِّر هذا بما كان من شق صدره، وفُسِّر أيضًا بالشرح المعنوي. فعَن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ ؓ قال: إن أَبا هُرَيرَةَ كانَ جريئًا عَلَى أَن يَسأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَن أَشياءَ لا يَسأَلُهُ عَنها غَيرُهُ، فَقالَ: يا رَسُولَ اللهِ، ما أولُ ما رَأَيتَ مِن أَمرِ النُّبُوَّةِ؟ فاستَوَى رَسُولِ اللهِ ﷺ جالِسًا وَقالَ: «لَقَد سألتَ يا أَبا هُرَيرَةَ، إِنِّي لَفِي الصَّحراءِ ابنُ عَشرِ سِنِينَ وَأَشهُرٍ، وَإذا بِكَلامٍ فَوقَ رَأسِي، وَإذا رَجُلٌ يَقُولُ لِرَجُلٍ: أَهُوَ هُوَ؟ قالَ: نَعَم. فاستَقبَلانِي بِوُجُوهٍ لَم أَرَها لِخَلقٍ قَطُّ، وَأَرواحٍ لَم أَجِدها مِن خَلقٍ قَطُّ، وَثِيابٍ لَم أَرَها عَلَى أَحَدٍ قَطُّ. فَأَقبَلا إِلَيَّ يَمشِيانِ، حَتَّى أَخَذَ كُلُّ واحِدٍ مِنهُما بعَضُدي، لا أَجِدُ لِأَحَدِهِما مَسًّا، فَقالَ أَحَدُهُما لِصاحِبِهِ: أَضجِعهُ. فَأَضجَعانِي بِلا قَصر وَلا هَصر. فَقالَ أَحَدُهُما لِصاحِبِهِ: افلِق صَدرَهُ. فَهَوَى أَحَدُهُما إِلَى صَدرِي فَفَلَقَهُ فِيما أَرَى بِلا دَمٍ وَلا وَجَعٍ، فَقالَ لَهُ: أَخرِجِ الغِلّ والحَسَد. فَأَخرَجَ شَيئًا كَهَيئَةِ العَلَقَةِ ثُمَّ نَبَذَها فَطَرَحَها، فَقالَ لَهُ: أَدخِلِ الرَّأفَةَ والرَّحمَةَ، فَإِذا مِثلُ الَّذِي أَخرَجَ شِبهُ الفضة، ثم هز إِبهامَ رِجلِي اليُمنَى فَقالَ: اغدُ واسلَم. فَرَجَعتُ بِها أَغدو،

رِقَّةً عَلَى الصَّغِيرِ، وَرَحمَةً لِلكَبِيرِ»(١). قال ابن كثير رحمه الله: «﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ يَعني: أَما شَرَحنا لَكَ صَدرَكَ، أَي: نَوَّرناهُ وَجَعَلناهُ فَسيحًا رَحِيبًا واسِعًا كَقَولِهِ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وَكَما شَرَحَ اللهُ صَدرَهُ كَذَلِكَ جَعَلَ شَرعه فَسِيحًا واسِعًا سَمحًا سَهلًا لا حَرَجَ فِيهِ وَلا إِصرَ وَلا ضِيق. وَقِيلَ: المُرادُ بِقَولِهِ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ شَرحُ صَدرِهِ لَيلَةَ الإسراءِ... وَلَكِن لا مُنافاةَ، فَإِنَّ مِن جُملَةِ شَرحِ صَدرِهِ الَّذِي فُعِل بِصَدرِهِ لَيلَةَ الإسراءِ، وَما نَشَأَ عَنهُ مِنَ الشَّرحِ المَعنَوِيِّ أَيضًا، واللهُ أَعلَمُ»(٢).

فالمراد: وسَّعتُ صدرك، وملأتُه انبساطًا ورضىً، وأول ذلك الشرح الأول الحسي لصدره ﷺ.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾، الوزر: الذنب. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر: هو قول أكثر علماء الإسلام، وجميع الطوائف... وهو أيضًا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل لم يُنقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول»(٣).

ولا يظنَّنَّ أحدٌ أنهم قد يخطئون في أمر يتعلق بتبليغ الرسالة! قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن الآيات الدالة على نبوة الأنبياء دلت على أنهم معصومون فيما يخبرون به عن الله ﷻ، فلا يكون خبرهم إلا حقًّا، وهذا معنى النبوة، وهو يتضمن أن الله ينبئه بالغيب، وأنه ينبئ الناس بالغيب، والرسول مأمور بدعوة الخلق وتبليغهم رسالات ربه»(٤).

وقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾؛ أي: أقضَّه، وأتعبه. وهذا يدل على أن الذنوب ثقيلة، وإذا كانت هذه المعاصي الصغيرة تكاد تثقله، حتى يسقط، فماذا نقول

---

(١) زوائد المسند (١٣٩/٥) وقال الهيثمي في المجمع (٢٢٢/٨) «رجاله ثقات، وثقهم ابن حبان».
(٢) تفسير ابن كثير (٤٢٩/٨).
(٣) مجموع الفتاوى (٣١٩/٤).
(٤) مجموع الفتاوى (٧/١٨).

للذين يرتكبون الكبائر، ولا يحسون بها؟! وقد قال ابن مسعود ﷺ: «إِنَّ المُؤمِنَ لَيَرَى ذَنبَهُ كَأَنَّهُ تَحتَ صَخرَةٍ يَخافُ أَن تَقَعَ عَلَيهِ، وَإِنَّ الكافِرَ لَيَرَى ذَنبَهُ كَأَنَّهُ ذُبابٌ مَرَّ عَلَى أَنفِهِ»(١).

ولا إخال أحدًا لم يجرِّب ثقل الذنب، كم من عاصٍ استلذَّ بالمعصية، فإذا زالت لذتها أثقل ظهره حسرتها والندم بسببها!

ثم قال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾، وهذه فيها معانٍ تحمل الآية عليها كلها، فمن ذلك: أنه يُذكر بالخير على ألسنة كثيرة، وأن الله قرن اسمه باسمه في مواضع عديدة.

قال حَسّان بن ثابتٍ ﷺ:

أَغَرُّ عَلَيهِ لِلنُّبُوَّةِ خاتَمٌ ... مِنَ اللهِ نُورٌ يَلوحُ وَيشهَد

وَضَمَّ الإِلهُ اسمَ النَّبِيِّ إِلَى اسمِهِ ... إِذا قالَ فِي الخَمسِ المؤذنُ: أشهدُ

وَشَقَّ لَهُ مِن اسمِهِ ليُجِلَّه ... فَذُو العَرشِ محمودٌ وهَذا مُحَمَّدُ(٢)

فقرن اسمه مع اسم الله في النداء، وفي الذكر الذي يقال بعد الفراغ من الوضوء، وفي الشهادتين بوابة الدخول إلى الإسلام. ودخل في معنى الآية: أن الله رفع ذكره بالنبوة، ويراد بها كذلك: ثناء الله عليه في كتابه وفي الكتب السابقة(٣).

ورفع الذكر شرف مطلوب، ووراءه خير كثير، ولهذا كان من دعاء الخليل ﷺ: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۝٨٤﴾ [الشعراء]. أي: واجعل لي ثناء حسنًا، وذكرًا جميلًا في الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة.

وأقول: مساكين هؤلاء الذين يتصورون أن بإمكانهم خفض من رفعه الله تعالى!

جاءَت سَخينةُ كي تُغالِبَ رَبَّها ... فَلَيُغلَبَنَّ مُغالِبُ الغَلاَّبِ!

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾ «بشارة عظيمة، أنه كلما وُجِد عسرٌ

(١) النسائي في الكبرى (١١٨٤٦).
(٢) معالم التنزيل للبغوي (٨/٤٦٤).
(٣) زاد المسير (٤/٤٦١).

وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر، فأخرجه؛ كما قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [الطلاق]. وكما قال النبي ﷺ: «**وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرًا**»[1]. وتعريف (العسر) في الآيتين، يدل على أنه واحد، وتنكير (اليسر) يدل على تكراره، فلن يغلب عسرٌ يسرين. وفي تعريفه بالألف واللام، الدالة على الاستغراق والعموم يدل على أن كل عسر -وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ- في آخره التيسير ملازم له»[2].

فعلى المكروب أن يثق في الله تعالى، ويحسن الظن به. ثبت عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال النبي ﷺ: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي**»[3]. والمعنى: «أعامله على حسب ظنه بي، وأفعل به ما يتوقعه مني من خير أو شر»[4].

وقد قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «والذي لا إله غيرُه ما أُعطي عبدٌ مؤمن شيئًا خيرًا من حسن الظن بالله ﷻ، والذي لا إله غيره لا يحسن عبد بالله ﷻ الظن إلا أعطاه الله ﷻ ظنَّه؛ ذلك بأنَّ الخيرَ في يده»[5].

ومن الأسباب التي يتحقق بها اليسر بعد العسر: الدعاء، وكثرة ذكر الله تعالى. ومن أسباب ذلك: التيسير على الناس، فالجزاء من جنس العمل، وفي الصحيح، عن أبي هُرَيرَةَ ﷺ قالَ: قامَ أَعرابِيٌّ فبالَ فِي المَسجِدِ، فَتَناوَلَهُ النَاسُ، فَقالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «**دَعُوهُ، وَهَرِيقُوا عَلَى بَولِهِ سَجلًا مِن ماءٍ، أَو ذَنُوبًا مِن ماءٍ، فَإِنَّما بُعِثتُم مُيَسِّرِينَ، وَلَم تُبعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»[6]. فيسلك المرء سبيل التيسير في معاملاته مع والديه وزوجه وولده وصديقه والناس جميعًا؛ ليسر الله أمره.

---

(١) أخرجه الخطيب في التاريخ (١٠/٢٨٧)، وهو في السلسلة الصحيحة (٢٣٨٢).
(٢) تفسير السعدي، ص(٩٢٩).
(٣) البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).
(٤) تحفة الأحوذي (٧/٥٣).
(٥) ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله، ص(٨٣).
(٦) البخاري (٢٢٠).

ومن أعظم أسباب ذلك: الصلاة.

قال ربنا: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة]. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة].

وإن الصبر لمفتاح عظيم لذلك، ومن عجائب الأخبار في ذلك حادثة ذكرها الطبري فقال: «كنت بمكة فِي سنة أربعين ومائتين فرأيت خراسانيًا ينادي: معاشر الحاج من وجد هِميانًا[1] فيه ألف دينار فرده علي أضعف الله لَهُ الثواب. فقام إِلَيهِ شيخ من أهل مكة كبير من موالي جعفر بن محمد، فَقالَ لَهُ: يا خراساني، بلدنا فقير أهله، شديد حاله، أيامه معدودة، ومواسمه منتظرة، فلعله بيد رجل مؤمن يرغب فيما تبذله لَهُ حلالًا يأخذه ويرده عليك. قالَ الخراساني: وكم يريد؟ قالَ العُشر؛ مئة دينار. قالَ: لا والله لا أفعل، ولكن أحيله عَلَى الله ﷻ. قالَ: وافترقا. فوقع لي أن الشيخ صاحب القريحة والواجد للهميان فاتبعته، فكان كما ظننت، فنزل إِلَى دار خلقة الباب والمدخل، فسمعته يقول: يا لبابة! قالت لَهُ: لبيك يا أبا غياث. قالَ: وجدت صاحب الهميان ينادي عَلَيهِ مطلقًا فقلت لَهُ: قيِّده بأن تجعل لواجده شيئًا، فَقالَ: كم؟ فقلت: عشره، فَقالَ: لا، ولكنا نحيله عَلَى الله ﷻ، فأي شيء نعمل؟ ولا بد لي من رده، فقالت لَهُ: نقاسي الفقر معك منذ خمسين سنة ولك أربع بنات، وأختان، وأنا، وأمي، وأنت تاسع القوم، استنفقه واكسنا، ولعل الله يغنيك فتعطيه، أو يكافئه عنك ويقضيه. فَقالَ لها: لست أفعل، ولا أحرق حشاشي بعد ست وثمانين سنة. ثم سكت القوم وانصرفت. فلما كانَ من الغد عَلَى ساعات من النهار سمعت الخراساني يقول: يا معشر الحاج! وفد الله من الحاضر والبادي، من وجد هميانًا فيه ألف دينار فرده أضعف الله لَهُ الثواب. فقام إليه الشيخ وقال: يا خراساني! قد قلتُ لك بالأمس ونصحتُك، وبلدنا والله فقير قليل الزرع والضرع، وقد قلتُ لك أن تدفع إِلَى واجده

(١) الهيمان: الكيس الذي تجعل فيه الدراهم والنفقة ويُشدُّ على الوسط. انظر: القاموس مادة (همين)، ولسان العرب: مادة (همي).

مئة دينار، فلعله أن يقع بيد رجل مؤمن يخاف الله ﷻ فامتنعتَ، فقل لَهُ عشرة دنانير منها، فيرده عليك، ويكون لَهُ فِي العشرة دنانير ستر وصيانة. قالَ: فَقالَ لَهُ الخراساني: لا نفعل ولكن نحيله عَلَى الله ﷻ، قالَ: ثُمَّ افترقا. فلما كانَ من الغد سمعتُ الخراساني ينادي ذلك النداء بعينه، فقام الشيخ فَقالَ له: يا خراساني، قلت أول أمس العشر منه، وقلت لك عشر العشر أمس، واليوم أقول لك عشر العشر يشتري بنصف دينار قربة يستقي عَلَيها للمقيمين بمكة بالأجرة وبالنصف الآخر شاة يحلبها ويجعل ذلك لعياله غذاء، قالَ: لا نفعل، ولكن نحيله عَلَى الله ﷻ، قالَ: فجذبه الشَّيخ وقال: تعال خذ هميانك، ودعني أنام الليل، وأرحني من محاسبتك. فَقالَ لَهُ: امش بين يدي. فمشى الشيخ وتبعه الخراساني وتبعتُهما، فدخل الشيخ، فما لبث أن خرج وقال: ادخل يا خراساني، فدخل ودخلت، فأخرج له الهميان، وقال: هَذا هميانك؟ فنظر إليه وقال: هَذا همياني، قالَ: ثم حل رأسه من شد وثيق، ثم صب المال في المنتظم في حجر نفسه وقلبه مرارا، وقال: هَذِهِ دنانيرنا، وأمسك فم الهميان بيده الشمال ورد المال بيده اليمين فيه، وشده شدًّا سهلًا ووضعه عَلَى كتفه، ثم أراد الخروج، فلما بلغ باب الدار رجع، وقال للشيخ: يا شيخ! مات أبي رحمه الله، وترك من هَذا ثلاثة آلاف دينار، فَقالَ لِي أخرج ثلثها ففرقه عَلَى أحق الناس عندك، وبع رحلي، واجعله نفقة لحجك! ففعلت ذلك وأخرجت ثلثها ألف دينار وشددتها فِي هَذا الهميان، وما رأيت منذ خرجت من خراسان إِلَى ها هنا رجلًا أحق به منك، خذه بارك الله لك فيه، ثم ولى وتركه. فوليتُ خلف الخراساني، فعدا أبو غياث فلحقني وردني، وَكانَ شيخًا مشدود الوسط بشريط معصب الحاجبين، ذكر أن لَهُ ستًّا وثمانين سنة، فَقالَ لي: اجلس، فقد رأيتك تتبعني فِي أول يوم وعرفت خبرنا بالأمس واليوم، سَمِعتُ أَحمَدَ بنَ يُونُسَ اليَربُوعِيَّ يَقُولُ: سَمِعتُ مالِكًا يَقُولُ: سَمِعتُ نافِعًا يَقُولُ: عَن عَبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لعمر وعلي: **«إذا أتاكما بهدية بِلا مَسأَلَةٍ وَلا استِشرافِ نَفسٍ فاقبَلاها وَلا تَرُدّاها فَتَرُدّاها**

عَلَى اللهِ ﷻ»، وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ مِنَ اللهِ والهَدِيَّةُ لِمَن حَضَرَ، ثُمَّ قالَ: يا لُبابَةُ، الهِميان وادعِي فُلانَةَ وَفُلانَةَ وصاح ببناته وأخواته، وقال: ابسطوا حُجُورَكُم. فَبَسَطتُ حِجرِي، وَما كانَ لَهُنَّ قَمِيصٌ لَهُ حِجرٌ يَبسُطونَهُ فَمَدُّوا أَيدِيَهُم، وَأَقبَلَ يَعُدُّ دِينارًا حَتَّى إذا بَلَغَ العاشِرَ إِلَيَّ قالَ: ولك دينارا، حَتَّى فَرَغَ الهِميانُ، وَكانَت أَلفًا، فَأَصابَنِي مِائَةُ دِينارٍ، فَتَداخَلَنِي مِن سُرُورِ غِناهُم أَشَدَّ مِمّا داخلني مِن سُرُورٍ أَصابَنِي بِالمِائَةِ دِينارٍ، فَلَمّا أَرَدتُ الخروج قال لي: يا فَتَى، إِنَّكَ لَمُبارَكٌ، وَلا رَأَيتُ هَذا المالَ قَطُّ، وَلا أَمَّلتُهُ، وَأَنِّي لأَنصَحُكَ أَنَّهُ حَلالٌ فاحتَفِظ بِهِ، واعلَم أَنِّي كُنتُ أَقُومُ وَأُصَلِّي الغَداةَ فِي هَذا القَمِيصِ الخَلِقِ، ثُمَّ أَنزِعُهُ فَتُصَلِّي واحِدَةٌ واحِدَةٌ، ثُمَّ أَكتَسِبُ إِلَى ما بَينَ الظُّهرِ والعَصرِ، ثُمَّ أَعُودُ فِي آخِرِ النَّهارِ بِما قَد فَتَحَ اللهُ ﷻ لي من أقط وتمر وكرات، وَمِن بُقُولٍ نُبِذَت، ثُمَّ أَنزِعُهُ فَيَتَداوَلنَهُ فَيُصَلِّينَ فِيهِ المَغرِبَ وَعِشاءَ الآخِرَةِ، فَنَفَعَهُنَّ اللهُ بِما أَخَذنَ، وَنَفَعَنِي وَإِيّاكَ بِما أَخَذنا، وَرَحِمَ اللهُ صاحِبَ المالِ فِي قَبرِهِ، وَأَضعَفَ ثَوابَ الحامِلِ لِلمالِ وَشَكَرَ لَهُ. قالَ ابن جرير الطبري: فودعته وكتبت بها العلم سنين أتقوت بها، وأشتري منها الورق، وأسافر وأعطي الأجرة، فلما كانَ بعد سنة ست وخمسين سألت عن الشيخ بمكة فقيل إنه قد مات بعد ذَلِكَ بشهور، ووجدت بناته ملوكًا تحت ملوك، وماتت الأختان وأمهن، وكنت أنزل عَلَى أزواجهن وأولادهن، فأحدثهم بذلك، فيستأنسون بي ويكرموني، ولقد حدثني محمد بن حيان البَجَلِيّ فِي سنة تسعين ومائتين أنه لم يبق منهم أحد. فبارك الله لهم فيما صاروا إليه ورحمة الله عليهم أجمعين»[١].

فصبر عن الحرام، وعفَّ عن دينار واحد لا حق له فيه، فعوضه الله ألفًا وخيرًا عظيمًا، وهذه عاقبة الصبر التي وعد الله بها، وإن مع العسر يسرًا.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧﴾، والنبي ﷺ ما كان ينشغل بأمور الدنيا، فمن أي شيء يفرغ؟ من أمور الآخرة، كلما انتهى من عبادة شرع في عبادة أخرى.

---

(١) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك (١١/٢٩٠ ـ ٢٩٣).

قال ربنا: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦٢﴾ [الأنعام]. فإذا فرغت أيها الحريص على آخرتك من عمل فلا تجلس، ابدأ عملًا آخر مما يبلغ بك رضاء الله. كما قال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر].

﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ٨﴾، اطلب الخير الذي يرغب فيه من الله لا من غيره، واجعل رغبتك إلى الله وحده. ثبت عَنِ ابنِ مَسعُودٍ ﷺ، أنه قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَن أَصابَتهُ فاقَةٌ، فَأَنزَلَها بِالنّاسِ، لَم تُسَدَّ فاقَتُهُ، وَمَن أَنزَلَها بِالله فَيُوشِكُ اللهُ لَهُ بِرِزقٍ عاجِلٍ أَو آجِلٍ»**[1].

---

(١) الترمذي (٢٣٢٦)، وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٧٨٧).

سُورَةُ التِّينِ

بين يدي سورة التين

وهي مكية على الصحيح[١]. ومما يؤيده: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ٣﴾؛ لأنها لو كانت مدنية لقيل: وذاك البلد الأمين، فلما أشير إلى مكة باسم الإشارة (هذا)، علمنا أنها مكية؛ لأنه يشار به إلى القريب. ولأن موضوعها موضوع السور المكية.

أسماؤها:

تسمى بسورة «﴿وَٱلتِّينِ﴾»، وسورة «التين»، بدون واو[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها أَربع وَثَلاثُونَ كلمة، وحروفها مئة وَخَمسُونَ حرفًا، وَهِي ثَمانِي آيات فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[٢].

ما ورد فيها:

عن البَراء بن عازِبٍ ﷺ قالَ: «سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ فِي العِشاءِ بِـالتَّينِ والزَّيتُونِ، فَما سَمِعتُ أَحَدًا أَحسَنَ صَوتًا مِنهُ»[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٤١٩/٣٠).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٧٩).
(٣) البخاري (٧٥٤٦)، ومسلم (٤٦٤).

موضوعاتها:

«احتوت هذه السورة على التنبيه بأن الله خلق الإنسان على الفطرة المستقيمة؛ ليعلموا أن الإسلام هو الفطرة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وأن ما يخالف أصوله بالأصالة أو بالتحريف فساد وضلال، ومتبعي ما يخالف الإسلام أهل ضلالة. والتعريض بالوعيد للمُكذِّبين بالإسلام. والإشارة بالأمور المقسم بها إلى أطوار الشرائع الأربعة، إيماء إلى أن الإسلام جاء مصدقًا لها، وأنها مشاركة أصولها لأصول دين الإسلام. والتنويه بحسن جزاء الذين اتبعوا الإسلام في أصوله وفروعه. وشملت الامتنان على الإنسان بخلقه على أحسن نظام في جثمانه ونفسه»[1].

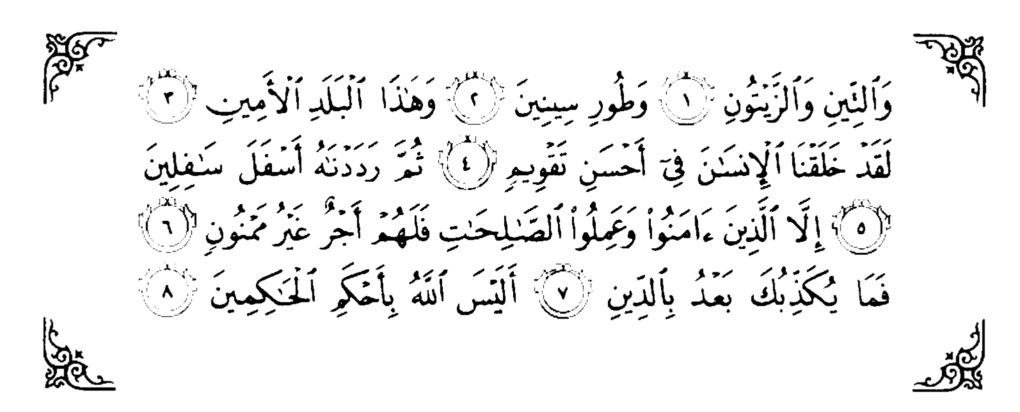
مقصدها:

بيان أنه لا نجاة في الآخرة إلا لأهل الإيمان والتقوى.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٤٢٠).

سورة التين: تأملات ووقفات



بُدئت السورة بالقَسَم، فقال الله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾، وهذا قسم بمخلوقات أربعة، ولا يجوز لأحد أن يقسم بغير الله تعالى كما مر آنفًا. وبين هذه الأربعة علاقة؛ ففي القسم بشجرتي التين والزيتون إشارة إلى بلدهما، وهو الشام، والشام بلد الأنبياء، والطور كلَّم الله فيه موسى ﷺ، ومكة بلد نبينا ﷺ. فجمع الله بين أماكن هؤلاء الأنبياء ﷺ.

ونعتُ مكة بالأمن يدل على أهمية هذه النعمة، ومما يدل لذلك أمور، منها:

أنَّ نعمة الأمن أعظم من نعمة الرزق:

ولذلك قُدمت عليها في الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة]. فبدأ بالأمن قبل الرزق لسببين:

● الأول: لأن استتباب الأمن سبب للرزق، فإذا شاع الأمن واستتبَّ ضرب الناس في الأرض، وهذا مما يدرُّ عليهم رزق ربهم ويفتح أبوابه، ولا يكون ذلك إذا فُقد الأمن.

● الثاني: لأنه لا يطيب طعام ولا يُنتفع بنعمة رزق إذا فقد الأمن.

فمَن مِنَ الناس أحاط به الخوف من كل مكان، وتبدد الأمن من حياته ثم وجد لذة بمشروب أو مطعوم؟!

وامتنَّ الله في القرآن على عباده بهذه النعمة:

فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: ٥٧].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت]. وقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥].

وامتنَّ الله بها على أصحاب نبيه ﷺ، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال].

والأمن مطلب الناس جميعًا:

فإبراهيم ﷺ دعا الله أن يجعل بلده آمنًا، قال ربنا: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم].

ويوسف ﷺ طلب من والديه دخول مصر مخبرًا باستتباب الأمن بها، ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يوسف].

ولما خاف موسى أعلمه ربه أنه من الآمنين ليهدأ رُوعه، وتسكن نفسه: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القصص].

ولما رحم النبي ﷺ أهل مكة يوم فتحها ذكرهم بما ينالون به الأمن؛ مما يدل على أهميته لدى المؤمنين والكافرين، فقال: «**من دخَل دارَ أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقَى**

السِّلاحَ فهو آمن، ومن دخل المسجدَ فهو آمن»(١).

والعبادة لا يتأتى القيام بها على وجهها إلا في ظل الأمن:

فالصلاة قال الله عنها: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء]، فقوله: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: أدوها بكمالها وصفتها التامة. ومن شروط وجوب الحج: الأمن، فإذا وجد الإنسان نفقة الحج ولم يكن الطريق إليه آمنًا فلا يجب عليه الحج قولًا واحدًا، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦]. ولما أخبر الله نبيَّه ﷺ بأنهم سيدخلون البيت الحرام ويؤدون نسكهم بعدما صدهم المشركون عنه قرن ذلك بالأمن فقال: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح].

وإن انتشار الدعوة الإسلامية المباركة يكون في وقت الأمن أكثر من غيره من الأوقات، قال الله تعالى عن موسى ؏: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [يونس].

---

(١) مسلم (١٧٨٠).

ولكن لما أغرق الله فرعون ودمَّر ما كان يصنعه وقومه دخل كثير من الناس في دين الله، ففي حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب لما رأى النبي ﷺ في منامه سوادًا عظيمًا قال: **«وَرَأَيتُ سَوادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَرَجَوتُ أَن تَكُونَ أُمَّتِي، فَقِيلَ: هَذا مُوسَى وَقَومُهُ»**[1].

وتأمل كيف أن النبي ﷺ لما خرج إلى الحديبية كان معه خمسمئة وألف من أصحابه، فلمّا انعقد الصُّلح وكان من بنوده: وقف الحرب عشر سنوات يأمن فيها الناس، دخل كثير منهم في دين الله، فبعد عامين وبضعة أشهر خرج مع النبي ﷺ لفتح مكة عشرة آلاف من المسلمين.

ونعمة الأمن أعظم من نعمة الصحة. قال الرازي ﷺ: «سُئل بعض العلماء: الأمن أفضل أم الصحة؟ فقال: الأمن أفضل، والدليل عليه أن شاة لو انكسرت رجلها فإنها تصح بعد زمان، ثم إنها تقبل على الرعي والأكل. ولو أنها ربطت في موضع وربط بالقرب منها ذئب فإنها تمسك عن العلف ولا تتناوله إلى أن تموت، وذلك يدل على أن الضرر الحاصل من الخوف أشد من الضرر الحاصل من ألم الجَسَد»[2].

ومما يدل على أهميته قول نبينا ﷺ: **«مَن أَصبَحَ مِنكُم آمِنًا فِي سِربِهِ، مُعافًى فِي جَسَدِهِ، عِندَهُ قُوتُ يَومِهِ فَكَأَنَّما حِيزَت لَهُ الدُّنيا»**[3].

ولأهمية الأمن أكرم الله به أولياءه في دار كرامته؛ لأنه لو فقد فُقد النعيم معه، قال رب العالمين: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦﴾ [الحجر]. وقال: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ٥٥﴾ [الدخان]، وقال: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾ [سبأ].

---

(١) البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠).
(٢) التفسير الكبير (١٩/١٠٤).
(٣) الترمذي (٢٣٤٦)، وهو في الصحيحة (٢٣١٨).

ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾، هذا جواب القسم، أي: خلقنا الإنسان في أحسن هيئة، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء].

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥﴾، وهذه فيها قولان: قيل: المراد بذلك أرذل العمر، كما قال ربنا: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٠]. وقيل: النار. فخلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم خسر ذلك التقويم والهيئة الحسنة بدخول النار التي تفسد كل شيء فيه[١]. وهذا الثاني هو الراجح، وعلى القول الأول يكون المعنى: إلا الذين عملوا الصالحات فأجرهم يمضي لهم وإن تركوا كثيرًا من العبادات بسبب تقدُّم العمر، فأجرهم ثابت، كما قال نبينا ﷺ: «**إِذا مَرِضَ العَبدُ، أَو سافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثلُ ما كانَ يَعمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**»[٢]، فأجرهم لا ينقطع، ولذا قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾. أي: مقطوع.

ثم قال: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧﴾، والخطاب للكافر المكذب: بعد أن خلقه الله في أحسن تقويم ما الذي يدعوه ليكفر به ويجحد نعمته؟

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾، أليسَ اللهُ بأحكَم من فصَلَ بين عبادِه وقضى بينهم؟ والحديث الذي فيه قول: بلى، بعد هذه الآية لا يثبت[٣].

ومن علم أن الله أحكم الحاكمين انقاد إليه، وعمل بشرعه، وسلم له أمره، فلم ينزعج مما قدره عليه، لأنه يعلم أن عاقبة أمره لا تكون إلا خيرًا، قال نبينا ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمرِ المُؤمِنِ، إِنَّ أَمرَهُ كُلَّهُ خَيرٌ، وَلَيسَ ذاكَ لِأَحَدٍ إِلّا لِلمُؤمِنِ،**

---

(١) يراجع: زاد المسير (٤/٤٦٤ ـ ٤٦٥).
(٢) البخاري (٢٩٩٦).
(٣) ضعيف الجامع (٤٤٤٦).

إن أَصابَتهُ سَرّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيرًا لَهُ، وَإن أَصابَتهُ ضَرّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيرًا لَهُ»[١].
ولذا قال ربنا: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، وهذه آية تكررت أربع مرات في القرآن الكريم، في البقرة (٢١٦)، و(٢٣٢)، وفي سورة آل عمران (٦٦)، وفي النور (٢٤). ومن علم ذلك أيقن أن خيرة الله له خير، وإن لم يعلم، فإن الله يعلم. فبعض الأشياء نكرهها وهي خير، مما يوضح ذلك: قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة]. فهذا حال المجاهد قبل أن يخوض غمار الحرب، فما حاله بعد أن يخوضها ويفوز بالشهادة في سبيل الله؟ قال أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما مِن عَبدٍ يَموتُ لَهُ عِندَ اللهِ خَيرٌ يَسُرُّهُ أَن يَرجِعَ إِلَى الدُّنيا وَأَنَّ لَهُ الدُّنيا وَما فِيها، إِلّا الشَّهيدَ لِما يَرَى مِن فَضلِ الشَّهادَةِ، فَإِنَّهُ يَسُرُّهُ أَن يَرجِعَ إِلَى الدُّنيا فَيُقتَلَ مَرَّةً أُخرَى**»[٢]. عجيب! كان يكره القتال، فلما نظر إلى إكرام الله للشهداء تمنى أن يعود إلى الدنيا ليُقتل مرة أخرى!

---

(١) مسلم (٢٩٩٩).
(٢) البخاري (٢٧٩٥)، ومسلم (١٨٧٧).



بين يدي سورة العلق

وهي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

سورة «﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾»، وسورة العلق، وسورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، و«﴿ٱقۡرَأۡ﴾»، و«اقرأ والعلق». وسماها بعض المفسرين بسورة «القلم»، ولا يخفى أنه اسم لسورة «ن»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها اثنَتانِ وَسَبعُونَ كلمة، وحروفها مئتان وَثَمانُونَ حرفًا، وَهِي ثَمانِي عشرَة آيَة فِي الشَّامي وتسع عشرَة فِي الكُوفِي والبصري وَعِشرُونَ فِي المَدَنِيين والمكي، واختلافها آيتان ﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ﴾، عدها المدنيان والمكي وَلم يعدها الباقُونَ، و﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ﴾، لم يعدها الشَّامي وعدَّها الباقُونَ»[٢].

سبب نزولها:

عَــن أَبِي هُرَيــرَةَ ﷺ، قــالَ: قالَ أَبــو جَهلٍ: هَـل يُعفِّرُ مُحَمَّـدٌ وَجهَهُ بَـينَ أَظهُرِكُم؟ فَقِيــلَ: نَعَـم، فَقــالَ: والـلَّاتِ والعُـزَّى لَئِن رَأَيتُـهُ يَفعَـلُ ذَلِـكَ لَأَطَـأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَو

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٤٣٣).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٨٠).

لَأُعفِّرَنَّ وَجهَهُ فِي التُّرابِ، قالَ: فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، قالَ: فَما فَجِئَهُم مِنهُ إِلَّا وَهُوَ يَنكُصُ عَلَى عَقِبَيهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيهِ، قالَ: فَقِيلَ لَهُ: ما لَكَ؟ فَقالَ: إِنَّ بَينِي وَبَينَهُ لَخَندَقًا مِن نارٍ وَهَولًا وَأَجنِحَةً، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَو دَنا مِنِّي لاختَطَفَتهُ المَلائِكَةُ عُضوًا عُضوًا**» قالَ: فَأَنزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ١٣﴾ يَعنِي أَبا جَهلٍ[1].

ما ورد فيها:

عن أبي هريرة ﷺ قال: «سجدنا مع النبي ﷺ في: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾»[2].

وقال عُروَةُ بنُ الزُّبَيرِ ﷺ: إِنَّ عائِشَةَ، زَوجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخبَرَتهُ أَنَّها قالَت: كانَ أَوَّلَ ما بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الوَحيِ الرُّؤيا الصّادِقَةَ فِي النَّومِ، فَكانَ لا يَرَى رُؤيا إِلَّا جاءَت مِثلَ فَلَقِ الصُّبحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيهِ الخَلاءُ، فَكانَ يَخلُو بِغارِ حِراءٍ يَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيالِيَ أُولاتِ العَدَدِ، قَبلَ أَن يَرجِعَ إِلَى أَهلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثلِها، حَتَّى فَجِئَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غارِ حِراءٍ، فَجاءَهُ المَلَكُ، فَقالَ: اقرَأ، قالَ: «**ما أَنا بِقارِئٍ**»، قالَ: «**فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهدَ، ثُمَّ أَرسَلَنِي، فَقالَ: اقرَأ، قالَ: قُلتُ: ما أَنا بِقارِئٍ، قالَ: فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهدَ، ثُمَّ أَرسَلَنِي، فَقالَ: اقرَأ، فَقُلتُ: ما أَنا بِقارِئٍ، فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهدَ، ثُمَّ أَرسَلَنِي، فَقالَ:** ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ٥﴾»[3].

---

(١) مسلم (٢٧٩٧).
(٢) مسلم (٥٧٨).
(٣) البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

وعَـن جابِـرٍ ﷺ أَنَّهُ قـالَ: صَـلَّى مُعاذُ بـنُ جَبَـلٍ الأَنصـارِيُّ لِأَصحابِهِ العِشـاءَ. فَطَـوَّلَ عَلَيهِـم؛ فانـصَرَفَ رَجُـلٌ مِنَـا. فَصَـلَّى فَأُخـبِرَ مُعاذٌ عَنـهُ؛ فَقـالَ: إِنَّـهُ مُنافِقٌ، فَلَمَّـا بَلَـغَ ذَلِـكَ الرَّجُـلَ دَخَلَ عَلَى رَسُـولِ اللهِ ﷺ فَأَخبَرَهُ مـا قالَ مُعاذٌ؛ فَقـالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتُرِيـدُ أَن تَكُـونَ فَتّانًـا يـا مُعـاذُ؟ إِذا أَمَمـتَ النّاسَ فاقـرَأ بِـ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، وَ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، وَ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾»[1].

موضوعاتها:

«تلقـين محمـد ﷺ الكلام القـرآني وتلاوتـه؛ إذ كان لا يعرف التـلاوة من قبل. والإيمـاء إلى أن علمـه بذلـك مُيـسَّر لأن الله الذي ألهـم البشر العلـم بالكتابة قادر على تعليـم من يشـاء ابتداء. وإيماء إلى أن أمته سـتصير إلى معرفة القـراءة والكتابة والعلـم. وتوجيهـه إلى النظـر في خلـق الله الموجـودات وخاصة خلقه الإنسـان خلقًا عجيبًـا مسـتخرجًا مـن علقـة فذلـك مبـدأ النظـر. وتهديـد مَـن كـذَّب النبي ﷺ وتعـرض ليصـده عـن الصـلاة والدعـوة إلى الهـدى والتقـوى. وإعلام النـبي ﷺ أن الله عالـم بأمـر من يناوئونـه وأنه قامعهـم وناصرٌ رسـولَه»[2].

مقصدها:

«تثبيت الرسول ﷺ على ما جاءه من الحق، والتقرب إلى الله، وأن لا يعبأ بقوة أعدائه؛ لأن قوة الله تقهرهم»[3].

---

(١) مسلم (٤٦٥).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/٤٣٤).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/٤٣٤).

سورة العلق: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٥)

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾، معلوم أن نبينا ﷺ لا يقرأ ولا يكتب، ومعنى لا يقرأ: لا يتهجى الحروف، وإلا فهو يقرأ ما حفظه بالتلقين، كما قيل له: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. ومما يعضد ذلك: أن النبي ﷺ قال لعلي ﷺ: «اكْتُب يا عَلِيُّ: هَذا ما صالَحَ عَلَيهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ»، قالُوا: لَو نَعلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ ما قاتَلناكَ! فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «امحُ يا عَلِيُّ، اللهُمَّ إِنَّكَ تَعلَمُ أَنِّي رَسُولُكَ، امحُ يا عَلِيُّ واكتُب: هَذا ما صالَحَ عَلَيهِ مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ اللهِ»، فأبى ذلك علي، فقال: «أرني مكانها»، فمحاها[1]. ورفض علي ﷺ، وذلك يدل على أن الأدب قد يقدم على الطاعة، وهو أسُّها.

قال ربنا ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت]، فالأمية في حقه ﷺ كمال؛ لأنها دافعة لتهمة التلقي عن كتب أهل الكتاب، وما يعتري الأمي من نقص مدفوع عنه ﷺ بما هو أبلغ، ألا وهو الوحي.

---

(١) أحمد (٣١٨٧)، وحسنه الشيخ شعيب الأرنؤوط (٥/٢٦٣).

قال ابن كثير ﵀: «وَهَكَذا كانَ، صَلَواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ دائِمًا أَبَدًا إِلَى يَومِ القِيامَةِ، لا يُحسِنُ الكِتابَةَ وَلا يَخُطُّ سَطرًا وَلا حَرفًا بِيَدِهِ، بَل كانَ لَهُ كُتّابٌ يَكتُبُونَ بَينَ يَدَيهِ الوَحيَ والرَّسائِلَ إِلَى الأَقالِيمِ، وَمَن زَعَمَ مِن مُتَأَخِرِي الفُقَهاءِ كالقاضِي أَبِي الوَلِيدِ الباجِيِّ وَمَن تابَعَهُ أَنَّهُ ﷺ كَتَبَ يَومَ الحُدَيبِيَةِ: «هَذا ما قاضَى عَلَيهِ مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ اللهِ»، فَإِنَّما حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ رِوايَةٌ فِي صَحِيحِ البُخارِيِّ: «ثُمَّ أَخَذَ فَكَتَبَ»، وَهَذِهِ مَحمُولَةٌ عَلَى الرِّوايَةِ الأُخرَى: «ثُمَّ أَمَرَ فَكَتَبَ»، وَلِهَذا اشتَدَّ النَّكِيرُ بَينَ فُقَهاءِ المَغرِبِ والمَشرِقِ على من قال بقول الباجي، وتبرؤوا مِنهُ، وَأَنشَدُوا فِي ذَلِكَ أَقوالًا وَخَطَبُوا بِهِ فِي مَحافِلِهِم: وَإِنَّما أَرادَ الرَّجُلُ ـ أَعنِي الباجِيَّ، فِيما يَظهَرُ عَنهُ ـ أَنَّهُ كَتَبَ ذَلِكَ عَلَى وَجهِ المُعجِزَةِ، لا أَنَّهُ كانَ يُحسِنُ الكِتابَةَ، وَما أَورَدَهُ بَعضُهُم مِنَ الحَدِيثِ أَنَّهُ لَم يَمُت، ﷺ حَتَّى تَعَلَّمَ الكِتابَةَ، فَضَعِيفٌ لا أَصلَ لَهُ»[1]، ولذلك لا يلتفت إلى قول من يزعم أنه يكتب، أو يتكلم بأكثر من لغة، فكل هذا باطل مردود بالكتاب والسنة، وأقوال السلف من الصحابة ﵃ وأكابر من بعدهم.

والرب: الخالق، المالك، المدبر. والربوبية: إفراد الله بأفعاله.

ومما دلت الآية عليه بإشارتها: أهمية قراءة القرآن، فهذا أول ما نزل، وقد قال نبينا ﷺ: «**لاَ حَسَدَ إلاَّ في اثنَتَينِ: رَجُلٌ آتاهُ اللهُ القُرآنَ، فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آناء اللَّيلِ وَآناءَ النَّهارِ، وَرَجُلٌ آتاهُ اللهُ مالًا، فَهُوَ يُنفِقُهُ آناءَ اللَّيلِ وَآناءَ النَّهارِ**»[2].

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾، والعلق: الدم المتجمد العالق بالرحم.

ووُصف الله تعالى في هذه الآيات بالكرم، ومن كرمه وإفضاله: تعليمه لنا الوحي وما تضمنه من المعارف والعلوم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/٢٨٥ ـ ٢٨٦).
(٢) البخاري (٥٠٢٦)، ومسلم (٨١٥).

الآيات (٦ ـ ١٩)

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡۤ وَٱقۡتَرِب ۩ ١٩﴾

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦﴾؛ أي: لا يجوز أن يكون الإنسان هكذا، أن يكفر بمن أنعم عليه، وعلَّمه ما لم يكن يعلم، قال ربنا: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل].

والطغيان: مجاوزة الحد.

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾، ذكر سببًا من أسباب الطغيان في هذه الآية، وهو ظن الاستغناء، وهذا وهم في حق أولئك، ولهذا قال: ﴿أَن رَّءَاهُ﴾، فالكافر يعد نفسه كذلك وليس ذا بصحيح، فاستغناؤهم عن الله ليس متحققًا، ولا يزال العبد مفتقرًا إلى ربه في كل حركة وسكنة، لكن كثير من الخلق كفور، فإذا ضُيِّق عليه ارعوى، ولهذا كان المشركون يلجؤون إلى الله تعالى في الملمات، ويزول عنهم الطغيان! كما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ٦٥﴾ [العنكبوت]، فإذا جاء الأمن عادوا إلى سيرتهم السيئة الأولى! وكم من إنسان إذا وجد مالًا ظنَّ أنه قد استغنى به عن ربه، فتولد في نفسه طغيان عريض! قال ربنا عن إمام

من أئمة هذا الباب: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص].

ومن أسباب الطغيان:

● إيثار الحياة الدنيا والرضا بها، ونسيان الآخرة، والتغافل عنها، قال ربنا: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات].

● ومن الأسباب: الإعراض عن أحكام الله وتشريعاته، فهذا مما يورث الطغيان، والانحراف، قال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤].

فعلينا أن نفتّش قلوبنا لئلا يكون فيها شيءٌ من الطغيان، وأن نعلم أن الافتقار إلى الله هو أخص خصائص العبودية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾﴾، تهديد للطغاة؛ فهم صائرون إلى الله تعالى، والله مجازيهم بطغيانهم.

ومن فوائد هذه الآية: أن تذكُّرَ الآخرة مما يمنع النفس من السير في طريق الطغاة، وتذكُّرها عاصم من ذنوب كثيرة، ولهذا فإنك تجد أن الله تعالى إذا نهى عن كثير من الأشياء ذكَّر باليوم الآخر الذي يحمل تذكره على اجتنابها، قال ربنا: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقال: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [التوبة].

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾، وهذه نزلت في أبي جهل كما مر معنا. والعبد نبينا ﷺ، وهذا يدل على شرف من انتسب إلى عبودية الله تعالى، فربنا سبحانه نعت نبينا ﷺ بنعت العبودية في أسمى أحواله، وأرفع مقاماته، قال ربنا تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف]، وقال: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد: ٩]. وفي الحديث: **«لَا تُطرُونِي، كما أَطرَت النَّصارَى ابنَ مَريَمَ، فإنَّما أنا عَبدُهُ، فَقُولُوا: عَبدُ اللهِ، وَرَسُولُهُ»**(١).

ثم قال: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾، أرأيت إن كان مستقيمًا على دين الله، آمرًا غيره بذلك، أينهى هذا عن الصلاة ويمنع منها؟ وهذا تعجيب من صنيع فرعون هذه الأُمَّة بنبينا ﷺ.

---

(١) البخاري (٣٤٤٥).

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤﴾، إن كذب من يأمر بالحق، وكفر، وأعرض عنه، ألا يعلم أن الله مطلع عليه! وفي هذا تحذير من العقوبة، فالله تعالى مطلع شاهد سوف يحاسبه بعلم على ما بدر منه.

ومن أهم دروس هذه الآية: أن لمراقبة الله تعالى أثرًا كبيرًا في البعد عن معصية الله، ولهذا زجر هنا عن الحرام بما يفيد اطلاعه ومراقبته.

ومما يدل على ذلك قصة رواها نبينا ﷺ، قال: «انطَلَقَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ مِمَّن كانَ قَبلَكُم حَتَّى آواهُمُ المَبيتُ إلى غارٍ فَدخلُوهُ، فانحَدرَت صَخرَةٌ مِنَ الجَبَلِ فَسَدَّت عَلَيهِمُ الغارَ، فَقالُوا: إنَّهُ لاَ يُنجِيكُم مِن هذِهِ الصَّخرَةِ إلاَّ أَن تَدعُوا اللهَ بصالِحِ أعمالِكُم. قالَ رجلٌ مِنهُم: اللهُمَّ كانَ لِي أَبَوانِ شَيخانِ كبيرانِ، وكُنتُ لا أغبِقُ قبلَهُما أهلًا ولاَ مالًا، فَنَأَى بِي طَلَب الشَّجَرِ يومًا فلم أَرِح عَلَيهما حَتَّى ناما، فَحَلَبتُ لَهما غَبُوقَهُما فَوَجَدتُهما نائِمَينِ، فكَرِهتُ أَن أُوقِظَهُما وَأَن أغبِقَ قبلَهُما أهلًا أو مالًا، فَلَبِثتُ - والقَدَحُ عَلَى يَدِي - أنتَظِرُ استِيقاظَهُما حَتَّى بَرِقَ الفَجرُ والصِّبيَةُ يَتَضاغَونَ عِندَ قَدَمَيَّ، فاستَيقَظا فَشَرِبا غَبُوقَهُما. اللهُمَّ إن كُنتُ فَعَلتُ ذلِكَ ابتِغاءَ وَجهِكَ فَفَرِّج عَنّا ما نَحنُ فِيهِ مِن هذِهِ الصَّخرَةِ، فانفَرَجَت شَيئًا لا يَستَطيعُونَ الخُروجَ مِنهُ. وقالَ الآخر: اللهُمَّ إنَّهُ كانَت لِيَ ابنَةُ عَمٍّ، كانَت أَحَبَّ النّاسِ إلَيَّ - وفي رواية: كُنتُ أُحِبُّها كأَشَدِّ ما يُحِبُّ الرِّجالُ النساءَ - فأَرَدتُها عَلَى نَفسِها فامتَنَعَت مِنِّي، حَتَّى أَلَمَّت بها سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ فَجاءَتنِي فَأَعطَيتُها عِشرِينَ وَمِئةَ دِينارٍ عَلَى أَن تُخَلِّيَ بَيني وَبَينَ نَفسِها فَفعَلَت، حَتَّى إذا قَدَرتُ عَلَيها قالت: اتَّقِ اللهَ وَلاَ تَفُضَّ الخاتَمَ إلاَّ بِحَقِّهِ، فانصَرَفتُ عَنها وَهيَ أَحَبُّ النّاسِ إلَيَّ وَتَرَكتُ الذَّهَبَ الَّذِي أعطَيتُها. اللهُمَّ إن كُنتُ فَعَلتُ ذلِكَ ابتِغاءَ وَجهِكَ فافرُج عَنّا ما نَحنُ فيهِ، فانفَرَجَتِ الصَّخرَةُ، غَيرَ أَنَّهُم لا يَستَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنها. وَقالَ الثالِثُ: اللهُمَّ استَأجَرتُ أُجَراءَ وَأَعطَيتُهُم أجرَهُم غيرَ رَجُلٍ واحدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرتُ أجرَهُ حَتَّى كَثُرَت مِنهُ الأموالُ، فَجاءَنِي بَعدَ حِينٍ، فَقالَ: يا عبدَ اللهِ، أَدِّ إِلَيَّ أجرِي،

فَقُلتُ: كُلُّ ما تَرَى مِن أجرِكَ: مِنَ الإبلِ والبَقَرِ والغَنَمِ والرَّقيقِ، فقالَ: يا عبدَ اللهِ، لاَ تَستَهزِىء بِي! فَقُلتُ: لاَ أستهزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فاستاقَهُ فَلَم يترُك مِنهُ شَيئًا. اَللّهُمَّ إن كُنتُ فَعَلتُ ذلِكَ ابتِغاءَ وَجهِكَ فافرُج عَنّا ما نَحنُ فِيهِ، فانفَرَجَتِ الصَّخرَةُ فَخَرَجُوا يَمشُونَ»[1]. فانظر إلى أثر مراقبة الله تعالى في العصمة من الذنب، وفي تحقيق الفرج واليسر بعد العسر، ومن ترك شيئًا لله عوَّضه الله خيرًا منه.

ومن فوائد الآيات أيضًا أن الصد عن العبادات سبيل من لا خلاق له في الآخرة، وقد ذم الله تعالى المنافقين لما زهدوا في الطاعة فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة].

﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ﴿١٦﴾﴾، أي: لن يتحقق له مراده، ولن يجد سبيلًا إلى رسول الله ﷺ. وقوله: ﴿لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ لنأخذن بها أخذًا شديدًا، والناصية: مقدم الرأس. فيؤخذ بها إلى النار، ويفعل ذلك بناصيته؛ إذلالًا له.

ومن اللطائف في هذه الآيات فتح باب التوبة لهذا الكافر العنيد، ﴿لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ﴾، فإن انتهى غفر له، كما قال ربنا: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة]، وقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال].

---

(١) البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾، والمراد: صاحبها، فهو كاذب مذنب، والناصية مجمع الفكر خيرًا أو شرًا.

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨ ﴾، ثبت عَنِ ابنِ عَبّاسٍ ﵄: كانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي، فَجاءَ أَبُو جَهلٍ فَقالَ: أَلَم أَنهَكَ عَن هَذا؟ أَلَم أَنهَكَ عَن هَذا؟ أَلَم أَنهَكَ عَن هَذا؟ فانصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ فَزَبَرَهُ، فَقالَ أَبُو جَهلٍ: إِنَّكَ لَتَعلَمُ ما بِها نادٍ أَكثَرُ مِنِّي، فَأَنزَلَ اللهُ: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨ ﴾ فَقالَ ابنُ عَبّاسٍ: واللهِ لَو دَعا نادِيَهُ لَأَخَذَتهُ زَبانِيَةُ اللهِ»[1]. فالزبانية «مَلائِكَةُ العَذابِ»[2].

ويحسن التنبيه هنا إلى أن بعض الناس يطلق هذه الكلمة على طغاة البشر! وهذا لا يليق، فيقولون: اللَّهُمَّ دمر فلانًا وزبانيته! والزبانية ملائكة كرام، فيقال: دمِّره وجنوده، أو وحزبه، ونحو ذلك.

﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ١٩ ﴾، أي: ليس الأمرُ كما يظنُّ أبو جهلٍ فيما قاله من اعتزازِه بكثرةٍ من ينصره. ثم أرشده إلى ما يحقق القرب من الله، ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾، فالصلاة من أعظم ما يقرب إلى الله تعالى. وفي الحديث: «**أَقرَبُ ما يَكُونُ العَبدُ مِن رَبِّهِ، وَهُوَ ساجِدٌ**»[3]، وهي كذلك من أعظم ما يستعان بها على الطغاة، وفي التخلص من الهموم والأحزان، وضيق الصدر، ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ٩٩ ﴾ [الحجر].

(١) الترمذي (٣٣٤٩)، وهو في السلسلة الصحيحة (٢٧٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/٤٣٨).
(٣) مسلم (٤٨٢).

سُورَةُ القَدْرِ

بين يدي سورة القدر

«وهي مكية في قول الجمهور، وهو قول جابر بن زيد ويروى عن ابن عباس. وعن ابن عباس أيضًا والضحاك أنها مدنية، ونسبه القرطبي إلى الأكثر. وقال الواقدي: هي أول سورة نزلت بالمدينة، ويرجحه أن المتبادر أنها تتضمن الترغيب في إحياء ليلة القدر وإنما كان ذلك بعد فرض رمضان بعد الهجرة»(١).

أسماؤها:

تعرف باسمين: «سورة ﴿ٱلْقَدْرِ﴾»، و«سورة ﴿لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾»(٢).

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها ثَلاثُونَ كلمة، وحروفها مئة واثنا عشر حرفًا، وَهِي سِتُّ آيات فِي المَكِّيِّ والشامي، وَخمس فِي عدد الباقِينَ، واختلافها آية ﴿لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ الثَّالِث، عدها المَكِّيّ والشامي وَلم يعدها الباقُونَ»(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٤٥٥).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/٤٥٥).
(٣) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٨١).

موضوعاتها:

«التنويه بفضل القرآن وعظمته بإسناد إنزاله إلى الله تعالى، والرد على الذين جحدوا أن يكون القرآن منزلًا من الله تعالى، ورفع شأن الوقت الذي أنزل فيه، ونزول الملائكة في ليلة إنزاله، وتفضيل الليلة التي توافق ليلة إنزاله من كل عام، ويستتبع ذلك تحريض المسلمين على تحيُّن ليلة القدر بالقيام والتصدُّق»[١].

مقصدها:

رفعُ همة المؤمنين للعناية بكتاب رب العالمين.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٤٥٥).

سورة القدر: تأمُّلاتٌ ووقفات

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥﴾

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾، المراد: القرآن، وفي هذا أربع فوائد:

● الأولى: فضل ليلة القدر؛ لأن الله أنزل فيها القرآن.

● الثانية: فضل القرآن الكريم.

وذلك من وجهين:

(١) أنه أسند إنزاله إليه سبحانه.

(٢) أنه جاء بضميره دون اسمه لاشتهاره.

● الثالثة: أنَّ ليلة القدر في رمضان خلافًا لمن زعم غير ذلك، قال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥].

● الرابعة: علوُّ الله تعالى، فنزول الأشياء منه وصعودها إليه دليل على علوه على خلقه.

ومعلوم أن القرآن نزل مفرقًا كما قال ربنا: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾ [الإسراء]، فما معنى أنه نزل في ليلة القدر؟ قال ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أُنزِلَ القُرآنُ جُملَةً إِلَى سَماءِ الدُّنيا فِي لَيلَةِ القَدرِ، ثُمَّ نَزَلَ بَعدَ ذَلِكَ فِي عِشرِينَ سَنَةً،

قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان]، وقال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء]»[1].

وقيل: ابتداء نزول القرآن كان في ليلة القدر، ثم نزل مفرقًا بعد ذلك، ولا منافاة بين القولين.

فإن قيل: لماذا سُميت بليلة القدر؟

فالجواب: لما يكون فيها من التقدير، قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [الدخان].

قال ابن كثير ﷺ: «وقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ أي: في ليلة القدر يُفصل من اللوح المحفوظ إلى الكَتَبة أمرُ السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روي عن ابن عمر، وأبي مالك، ومجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف»[2].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾﴾، وسبق معنا أن كل سؤال بـ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾، فإجابته مبيَّنة، وهو سؤال غرضه التفخيم.

﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾، وليس كألف شهر كما يكتب بعض الناس، بل خير من ألف شهر، وألف شهر تعادل ثلاثة وثمانين سنة وأربعة أشهر. فالعبادة في ليلة القدر خير من العبادة في ألف شهر خلت منها، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨].

أما وقت هذه الليلة فقد ثبت في السنة ما يدل على أنها ليلة إحدى وعشرين، وأنها ليلة ثلاث وعشرين، وخمس وعشرين، وسبع وعشرين، وتسع وعشرين، وآخر ليلة من رمضان. وثبت في الصحيح، عَن عائِشَةَ ﷺ، قالَت: كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ

(١) النسائي في الكبرى (١١٣٧٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/٢٤٦).

يُجاوِرُ فِي العَشرِ الأَواخِرِ مِن رَمَضانَ وَيَقُولُ: «**تَحَرَّوا لَيلَةَ القَدرِ فِي العَشرِ الأَواخِرِ مِن رَمَضانَ**»[١]. وهذا يدل على أنها متنقلة في العشر الأخيرة من رمضان كما يقول المحققون من أهل العلم، وهناك من قال: إنها ثابتة في ليلة سبع وعشرين وهو قوي، لكن الأول أرجح.

فعلى المسلم أن يجتهد في العشر كلها أكثر من غيرها كما كان يفعل رسول الله ﷺ.

وقد ثبت في صحيح البخاري، عن عُبادَة بن الصّامِتِ ﷺ أنه قال: إنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَرَجَ يُخبِرُ بِلَيلَةِ القَدرِ، فَتَلاحَى رَجُلانِ مِن المُسلِمِينَ، فَقالَ:«**إِنِّي خَرَجتُ لِأُخبِرَكُم بِلَيلَةِ القَدرِ، وَإِنَّهُ تَلاحَى فُلانٌ وَفُلانٌ فَرُفِعَت، وَعَسَى أَن يَكُونَ خَيرًا لَكُم، التَمِسُوها فِي السَّبعِ والتِّسعِ والخَمسِ**»[٢].

وتلاحى: تخاصم، وفيه شؤم الخصومات، وحرص النبي ﷺ على الخير لأمته، وعدم علمه الغيب، وعدم الكفر بالمعصية، وأنَّ الخير فيما يختاره الله.

قال الرازي ﷺ في تفسيره: «المسألة الخامسة: أنه تعالى أخفى هذه الليلة لوجوه أحدها: أنه تعالى أخفاها، كما أخفى سائر الأشياء، فإنه أخفى رضاه في الطاعات حتى يرغبوا في الكل، وأخفى الإجابة في الدعاء ليبالغوا في كل الدعوات، وأخفى الاسم الأعظم ليعظموا كل الأسماء، وأخفى في الصلاة الوسطى ليحافظوا على الكل، وأخفى قبول التوبة ليواظب المكلف على جميع أقسام التوبة، وأخفى وقت الموت ليخاف المكلف، فكذا أخفى هذه الليلة ليعظموا جميع ليالي رمضان. وثانيها: كأنه تعالى يقول: لو عينت ليلة القدر، وأنا عالم بتجاسركم على المعصية، فربما دعتك الشهوة في تلك الليلة إلى المعصية، فوقعت في الذنب، فكانت معصيتك مع علمك أشد من معصيتك لا مع علمك، فلهذا السبب أخفيتها عليك»[٣].

---

(١) البخاري (٢٠٢٠)، ومسلم (١١٦٩).
(٢) البخاري (٤٩).
(٣) التفسير الكبير للرازي (٢٢٩/٣٢).

وأما علامات ليلة القدر فقد ثبت في معجم الطبراني الكبير عَن واثِلَةَ بن الأَسقَعِ ﷺ، عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ، قالَ: «**لَيلَةُ القَدرِ بَلجَةٌ**[١]**، لا حارَّةٌ وَلا بارِدَةٌ، وَلا يُرىَ فِيها بنجمٍ، وَمِن عَلامَةِ يَومِها تَطلُعُ الشَّمسُ لا شُعاعَ لَهَا**»[٢]، لكن هل هذه العلامات مطردة في كل ليلة أو في ليلة معينة مضت؟ ثم هل هي مختصة بليلة القدر أو قد تحصل في غيرها؟ كل ذلك محتمل فالتعويل بعد توفيق الله تعالى على الاجتهاد والعمل في عامة ليالي العشر.

ومن أهم ما ينبغي فعله فيها:

(١) القيام:

لحديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**مَن قامَ لَيلَةَ القَدرِ إِيمانًا واحتِسابًا؛ غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنبِهِ**»[٣].

(٢) الدعاء:

لقول عائشة ﷺ: يا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيتَ إن عَلِمتُ أَيُّ لَيلَةٍ لَيلَةُ القَدرِ ما أَقُولُ فِيها؟ قالَ: «**قُولِي: اللهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفوَ؛ فاعفُ عَنِّي**»[٤].

وهذا الحديث دليل على أن الله قد يكرم بعض عباده بأن يعرفهم ليلة القدر.

(٣) المحافظة على الفرائض:

والمحافظة على الفرائض مطلوب في كل وقت، ولما كانت الفرائض أحب الأعمال إلى الله كانت المحافظة عليها في ليلة القدر من آكد الأعمال، قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**وَما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبدِي بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمّا افتَرَضتُ عَلَيهِ**»[٥].

---

(١) مشرقة.
(٢) الطبراني في الكبير (٥٩/٢٢)، وهو في صحيح الجامع (٥٤٦٩).
(٣) البخاري (١٩٠١).
(٤) الترمذي (٣٥١٣)، وهو في السلسلة الصحيحة (٣٣٣٧).
(٥) البخاري (٦٥٠٢).

(٤) المحافظة على الفجر والعشاء في جماعة:

لحديث مسلم الذي حدث به عثمان بن عفان ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَن صَلَّى العِشاءَ فِي جَماعَةٍ فَكَأَنَّما قامَ نِصفَ اللَّيلِ، وَمَن صَلَّى الصُّبحَ فِي جَماعَةٍ فَكَأَنَّما صَلَّى اللَّيلَ كُلَّهُ**»[١].

(٥) الاجتهاد في العبادة عمومًا:

فعن عائِشَةَ ﷺ قالَت: «كانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا دَخَلَ العَشرُ شَدَّ مِئزَرَهُ، وَأَحيا لَيلَهُ، وَأَيقَظَ أَهلَهُ»[٢].

(٦) الاعتكاف:

وبه يتمكن الإنسان من التشمير عن ساعد الجد في طاعة الله، ولذا «كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعتَكِفُ فِي كُلِّ رَمَضانٍ في العشر الأخيرة»[٣].

وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾، الروح هو جبريل ﷺ، وعطفه على الملائكة من باب عطف الخاص على العام؛ لبيان مكانته.

ولم يُبَيَّن لنا هذا الأمر الذي تنزل به الملائكة، فمِن هنا بمعنى الباء، ولكن ما كان من الله فلا بُدَّ أن يكون خيرًا وبركةً.

﴿سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾، «وفي معنى السلام قولان: أحدهما: أنه لا يحدث فيها داءٌ ولا يُرسَل فيها شيطان، قاله مجاهد. والثاني: أن معنى السلام: الخير والبركة، قاله قتادة. وكان بعض العلماء يقول: الوقف على ﴿سَلَـٰمٌ﴾، على معنى تنزّل الملائكة بالسلام»[٤].

---

(١) مسلم (٦٥٦).
(٢) البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤).
(٣) البخاري (٢٠٢٥).
(٤) زاد المسير في علم التفسير (٤/٤٧٣).

وختامًا أنبه إلى ما أحدثه بعض أهل العدّ! ومن ذلك ادعاء بعضهم بأن كلمة ﴿هِيَ﴾ السابعة والعشرون في السورة، ولذلك فإن ليلة القدر هي ليلة سبع وعشرين فهذا مما لا ينبغي الالتفات إليه، ولا دليل في كونها كذلك على أن الليلة هي السابعة والعشرون! بل ترتيب هذا على هذا مجرد تحكم،كمن يزعم أن ﴿لَيْلَةِ﴾ هي الكلمة الرابعة فتكون الليلة هي ليلة أربع وعشرون! أو يقول هي تسع وعشرون لأن لفظ ﴿لَيْلَةِ﴾ الثاني هو التاسع! فكل ذلك تحكُّم، والله تعالى لم يجعل لأرقام الكلمات اعتبارًا أو دلالة في الشريعة.

سُورَةُ البَيِّنَةِ

بين يدي سورة البينة

«اختلف في أنها مكية أو مدنية»[١]، وقد جزم غير واحد من المحققين بأنها مدنية وهو الأظهر.

أسماؤها:

لها ستة أسماء: لم يكن، والقيِّمة، والبيِّنة، وأهل الكتاب، والبرية، والانفكاك[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها أَربع وَتسعُونَ كلمة، وحروفها ثَلاث مئة وَسِتَّة وَتسعُونَ حرفًا، وَهِي تسع آيات فِي البَصرِيِّ والشامي بِخِلاف عَنهُ وثمان فِي عدد الباقِينَ، اختلافها آية: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، عدها البَصرِيُّ والشامي على خلاف عَنهُ فِي ذَلِك وَلم يعدها الباقُونَ»[٢].

ما ورد فيها:

عَن أَنَسٍ ﷺ، قالَ: قالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأُبَيٍّ: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَن أَقرَأَ عَلَيكَ القُرآنَ» قالَ أُبَيٌّ: آللهُ سَمَّانِي لَكَ؟ قالَ: «اللهُ سَمَّاكَ لِي». فَجَعَلَ أُبَيٌّ يَبكِي، قالَ قَتادَةُ: فَأُنبِئتُ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَيهِ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾[٣]، وهذا مما يدل على أن السورة مدنية.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٤٦٧).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٨٢).
(٣) البخاري (٤٩٥٩)، ومسلم (٧٩٩).

موضوعاتها:

«توبيخ المشركين وأهل الكتاب على تكذيبهم بالقرآن والرسول ﷺ، والتعجيب من تناقض حالهم إذ هم ينتظرون أن تأتيهم البينة فلما أتتهم البينة كفروا بها، وتكذيبهم في ادعائهم أن الله أوجب عليهم التمسك بالأديان التي هم عليها، ووعيدهم بعذاب الآخرة،وا لتسجيل عليهم بأنهم شر البرية، والثناء على الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ووعدهم بالنعيم الأبدي، ورضى الله عنهم، وإعطائه إياهم ما يرضيهم، وتخلَّل ذلك تنويهٌ بالقرآن وفضله على غيره باشتماله على ما في الكتب الإلهية التي جاء بها الرسول ﷺ من قبل وما فيه من فضل وزيادة»[1].

مقصدها:

تحذير المؤمنين من سلوك سبيل المغضوب عليهم والضالين؛ فإنه لا يورث إلا العذاب في الآخرة.

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٤٦٨).

سورة البينة: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٥)

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، هذه الآية تتحدث عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، يخبر ربنا عن حالهم قبل بعثة نبينا ﷺ، أنهم لا ينفكون عما هم فيه من الكفر إلا إذا جاءتهم البينة، والبينة العلامة الجلية الواضحة، وهي رسولٌ من الله تعالى، وقد كانوا في انتظار خروجه.

﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾، يتلو ما اشتملت عليه الصحف من المكتوب فيها، والمراد: القرآن الكريم، قال ابن الجوزي ﷫: «يدل على ذلك أنه كان يتلو القرآن عن ظهر قلبه، لا من كتاب»[1]. وهي مطهرة من كل باطل، والظاهر أنها المكتتبة في الملأ الأعلى لا المصاحف فإنها لم تجمع بعد، ولم تكن أول الأمر صحفًا.

---

(١) زاد المسير (٤/٤٧٥).

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ٤﴾، ولما جاءت البينة تفرق أهل الكتاب في أمر نبينا ﷺ، فمنهم من آمن به كعبد الله بن سلام ﷺ، ومنهم من كفر، كما قال ربنا: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ [البقرة]. ومن كفر منهم اختلفوا في أمره، فمنهم من يقول: ساحر، ومنهم من يقول: مجنون، وبعضهم قال: إنما يُعلِّمه بشر، فاختلفوا فيه اختلافًا عريضًا. قال ربنا: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ٩﴾ [الذاريات].

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ٥﴾، أي: إنما جاءهم هذا الرسول الكريم الذي كفروا به بما أمرهم الله به في كتبهم، من توحيد الله، وصرف العبادة له دونما سواه، والصلاة، والزكاة، فهذا هو الدين المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، أُمروا به، وبُعث بمثله من كفروا به.

قال ابن كثير ﷺ: «وَقَدِ استَدَلَّ كَثِيرٌ مِنَ الأَئِمَّةِ، كالزُّهرِيِّ والشَّافِعِيِّ، بِهَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ عَلَى أَنَّ الأَعمالَ داخِلَةٌ فِي الإِيمانِ؛ وَلِهَذا قالَ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ٥﴾»[1].

والشرائع الربانية جميعها جاءت بالتوحيد والصلاة والزكاة ومما يدل على ذلك:

قول ربنا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل ٣٦]، وقول ربنا لموسى ﷺ: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ١٤﴾ [طه]، وقول عيسى ﷺ: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ٣١﴾ [مريم].

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٤٥٧).

وقد أخبر الله تعالى بأن الدين القويم هو التوحيد وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ولهذا قال: ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾، والإسلام دين قويم وسط، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «وأرى أن الله تعالى ذِكره إنما وصفهم بأنهم وسَط؛ لتوسطهم في الدين، فلا هُم أهل غُلوٍّ فيه، غلوَّ النصارى الذين غلوا بالترهُّب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هُم أهلُ تقصير فيه، تقصيرَ اليهود الذين بدَّلوا كتابَ الله، وقتلوا أنبياءَهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسط، واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبَّ الأمور إلى الله أوسطُها»[1].

وقال ابن القيم رحمه الله: «فدين الله بين الغالي فيه، والجافي عنه، وخير الناس: النمط الأوسط، الذين ارتفعوا عن تقصير المفرطين، ولم يلحقوا بغلوِّ المعتدين، وقد جعل الله سبحانه هذه الأُمَّة وسطًا، وهي الخيار، العدل؛ لتوسطها بين الطرفين المذمومين، والعدل هو: الوسط بين طرفي الجور، والتفريط، والآفات إنما تتطرق إلى الأطراف والأوساط محمية بأطرافها، فخيار الأمور أوساطها»[2].

والوسطية افترى عليها كثير من الناس في هذا الزمان، فادعى كثيرون أن التقصير وسطية، وأطلقها بعضهم على من تنازل عن مبادئ الإسلام وما جاء به، ومن المهم أن يقال: معيار الوسطية نصوص الشرع، فمن تمسك بها فهو الوسطي، ومن قصر فيها فهو المفرط، ومن زاد فهو الغالي.

---

(١) تفسير الطبري (١٤٢/٣).
(٢) إغاثة اللهفان (١٨٢/١).

الآيات (٦ ـ ٨)

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

بعد أن بيَّن تفرُّق أهل الكتاب، وبيَّن الدين القويم، ذكر مآل من خالفه فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾، شرُّ من خلق الله تعالى، شرٌّ من الخنازير، والكلاب، والحيات. قال ربنا: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة]، وقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال]، وقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنفال]. فهؤلاء شر البرية لشركهم بالله، مسالمهم ومحاربهم. وفي المقابل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾، بإيمانهم وأعمالهم، فالرفعة إنما تنال بالعمل الصالح، قال ربنا: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾، وعدهم الله بجنته ورضوانه، والثاني أجل من الأول، فلا شيء يعدل نيل رضوانه تعالى، فما النجاة من النار، وما دخول الجنة إلّا أثر

من آثاره، ولا البقاء فيها إلّا لذلك. قال ربنا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة]. أي: ورضوان من الله أكبر وأعظم مما هم فيه من النعيم. وعَن أَبِي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ ﷺ، قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ لِأَهلِ الجَنَّةِ: يا أَهلَ الجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيكَ رَبَّنا وَسَعديك، فَيَقُولُ: هَل رَضِيتُم؟ فَيَقُولُونَ: وَما لَنا لا نَرضَى وَقَد أَعطَيتَنا ما لَم تُعطِ أَحَدًا مِن خَلقِكَ، فَيَقُولُ: أَنا أُعطِيكُم أَفضَلَ مِن ذَلِكَ، قالُوا: يا رَبِّ، وَأَيُّ شَيءٍ أَفضَلُ مِن ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيكُم رِضواني، فَلا أَسخَطُ عَلَيكُم بَعدَهُ أَبَدًا**»(١).

وربنا يقول: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ [التوبة]، والمعنى: يحلف المنافقون الأيمان الكاذبة، ويقدمون الأعذار الملفقة؛ ليُرضُوا المؤمنين، والله ورسوله أحق وأولى أن يُرضُوهما بالإيمان بهما وطاعتهما، إن كانوا مؤمنين حقًّا، ففي الآية دليل على أن المؤمن عليه أن يبذل جهده لنيل رضوان ربه. وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد]، فعلى المسلم أن يجتهد في طلب مرضاة الله تعالى، وسبيل ذلك ما جاء في آخر السورة: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾، قال ابن كثير ﷺ: «هَذا الجَزاءُ حاصِلٌ لِمَن خَشِيَ اللهَ واتَّقاهُ حَقَّ تقواهُ، وَعَبَدَهُ كَأَنَّهُ يَراهُ، وَقَد عَلِمَ أَنَّهُ إِن لَم يَرَهُ فَإِنَّهُ يَراهُ»(٢)، وأحق الناس بأن يخشوا ربهم هم العلماء، لما لخشيتهم من أثر في صلاح البلاد والعباد، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، والله المستعان.

---

(١) البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٤٥٨).



بين يدي سورة الزلزلة

وهي مكية على الصحيح من قولي العلماء[١].

أسماؤها:

«الزلزلة»، و«﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾»، و«الزلزال»، و«﴿زُلْزِلَتِ﴾»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها خمس وَثَلاثُونَ كلمة، وحروفها مئة وَتِسعَة وَأَربَعُونَ حرفًا، وَهِيَ ثَمانِي آيات فِي المدنِي الأول والكوفي وتسع فِي عدد الباقِينَ، اختلافها آيَة ﴿أَشْتَاتًا﴾؛ لم يعدها المدنِي الأول والكوفي وعدها الباقُونَ»[٢].

ما ورد فيها:

عَن مُعاذِ بنِ عَبدِ اللهِ الجُهَنِيِّ، أَنَّ رَجُلًا، مِن جُهَينَةَ أَخبَرَهُ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ «يَقرَأُ فِي الصُّبحِ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ فِي الرَّكعَتَينِ كِلتَيهِما»[٣].

ولا يقال: نسي؛ فالأصل في أفعاله أنها للتشريع.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٤٨٩).

(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٨٣).

(٣) أبو داود (٨١٦)، وصححه الألباني في صفة الصلاة (٢/٤٣٥).

وعن أبي أمامة ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ يوتر بتسع، حتى إذا بَدُنَ وكَثُرَ لحمه؛ أوتر بسبع، وصلى ركعتين وهو جالس، فقرأ بـ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾، و ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾»[1]، ووردت فيها أخبار أخرى لكن في ثبوتها نظر.

موضوعاتها:

«إثبات البعث، وذكر أشراطه وما يعتري الناس عند حدوثها من الفزع. وحضور الناس للحشر وجزائهم على أعمالهم من خير أو شر».

مقصدها:

التحريض على فعل الخير واجتناب الشر.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٣١٣)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط (٣٦/٦٥١).

سورة الزلزلة: تأملات ووقفات

﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ٣ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ٥ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾

﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ١﴾، أي: رُجَّت رجًّا شديدًا. وهو زلزال عام، ليس كزلازل الدنيا التي تكون في ناحية دون أخرى، والتي تخضع للقياس بمقياس ريختر!

﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ٣﴾، أخرجت الموتى، وكلٌّ في تلك الساعة سيطرح هذا السؤال: ما لها؟!

وذكر الله تعالى هذا المشهد في آية أخرى، قال ربنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ [الحج].

﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ٤﴾، تخبر بما عُمل عليها من خير أو شر، وتشهد على كل أحد بما عمل، وهذا يدعو لتحقيق مراقبة الله تعالى، فالأرض تشهد، وتشهد الجوارح، وتشهد الصحف، فأين المفر من ذلك؟

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾، تصرفها ذلك بأمر الله ووحيه إليها، وهو أمرها أن تنشق عنهم، وأن تشهد عليهم[1]. كما قال ربنا: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝١١٧﴾ [البقرة]، وقال: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٧﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النحل]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٦٨﴾ [غافر].

وتأمل في استجابة الأرض لوحي الله، ونحن نقرأ أمره الشرعي، وبين أيدينا ما أوحاه إلى نبينا ﷺ، فأين نحن من أمره ونهيه؟

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦﴾، يرجعون من موقف الحساب متفرقين، لينظروا إلى أعمالهم وما ترتب عليها من الجزاء. ولذلك ختمت السورة بترغيب: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾، وتهديد: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾، والذرة النملة الصغيرة.

ودلت هذه الآية على أن العمل يوزن في الآخرة، والنصوص قاضية بوزن العمل، والعامل، وصحائف الأعمال.

أما وزن العمل فللآيتين الأخيرتين من هذه السورة.

وبدليل حديث أبي هريرة ﵁، قال النبي ﷺ: «كَلِمَتانِ حَبِيبَتانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتانِ عَلَى اللِّسانِ، ثَقِيلَتانِ فِي المِيزانِ: سُبحانَ اللهِ وَبِحَمدِهِ، سُبحانَ اللهِ العَظِيمِ»[2].

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٤٦١).
(٢) البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

وحديث أبي الدرداء ﷺ، قال نبينا ﷺ: «**ما مِن شَيءٍ أَثقَلُ فِي المِيزانِ مِن حُسنِ الخُلُقِ**»(١).

ويوزن: العامل.

ودليل ذلك: حديث أبي هريرة ﷺ أن النَّبي ﷺ قال: «**إِنَّهُ لَيَأتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَومَ القِيامَةِ لا يَزِنُ عِندَ اللهِ جَناحَ بَعُوضَةٍ**»(٢).

وحديث ابنِ مَسعُودٍ ﷺ، أَنَّهُ كانَ يَجتَنِي سِواكًا مِنَ الأَراكِ، وَكانَ دَقِيقَ السّاقَينِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكفَؤُهُ، فَضَحِكَ القَومُ مِنهُ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مِمَّ تَضحَكُونَ؟**»، قالُوا: يا نَبِيَّ اللهِ، مِن دِقَّةِ ساقَيهِ، فَقالَ: «**والَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ، لَهُما أَثقَلُ فِي المِيزانِ مِن أُحُدٍ**»(٣).

وتوزن: صحف الأعمال.

لحديث عَبدِ اللهِ بنَ عَمرِو بنِ العاصِ ﷺ، قال: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ ﷺ يَستَخلِصُ رَجُلًا مِن أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلائِقِ يَومَ القِيامَةِ، فَيَنشُرُ عَلَيهِ تِسعَةً وَتِسعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُنكِرُ مِن هَذا شَيئًا؟ أَظَلَمَتكَ كَتَبَتِي الحافِظُونَ؟ قالَ: لا يا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَلَكَ عُذرٌ، أَو حَسَنَةٌ؟ فَيُبهَتُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لا، يا رَبِّ. فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِندَنا حَسَنَةً واحِدَةً، لا ظُلمَ اليَومَ عَلَيكَ، فَتُخرَجُ لَهُ بِطاقَةٌ، فِيها: أَشهَدُ أَن لا إِلَهَ إِلّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: أَحضِرُوهُ، فَيَقُولُ: يا رَبِّ، ما هَذِهِ البِطاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلّاتِ؟ فَيُقالُ: إِنَّكَ لا تُظلَمُ. فَتُوضَعُ السِّجِلّاتُ فِي كِفَّةٍ، والبطاقة في كفة، فَطاشَتِ السِّجِلّاتُ، وَثَقُلَتِ البِطاقَةُ، وَلا يَثقُلُ شَيءٌ**»(٤).

---

(١) أحمد (٢٧٥١٧)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط في تخريجه.
(٢) البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).
(٣) أحمد (٣٩٩١)، وحسنه الشيخ شعيب الأرنؤوط.
(٤) أحمد (٦٩٩٤)، وقال الشيخ شعيب ﷺ: إسناده قوي.

والعلم بوزن الأعمال وإحصاء مثاقيل الذر يدعو إلى الحرص على كل طاعة والحذر من كل سيئة، يقول أحد طلاب العلم: نفعني الله بهذه الآية: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ ﴾، فإذا ضعفت عن عمل طاعة، وتثاقلت لكونها نافلة، قلت: ربما تكون هذه هي الذرة التي يرجح بها ميزاني في الآخرة، فأنشط وأعملها، وإن كانت معصية قلت: أخشى أن تكون هي الذرّة التي يرجح بها ميزان السيئات؛ فأخاف وأتركها.. وقد أحسن في تدبُّره الآية، وفقه الله وسدده وجزاه خيرًا.



بين يدي سورة العاديات

وفي كونها مدنية أو مكية قولان[١].

أسماؤها:

«العاديات»، و«﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾»، بإثبات الواو، وبحذفها[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«وكَلِمُها أَربَعُونَ كلمة ككلم ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، وحروفها مئة وَثَلاثَة وَسِتُّونَ حرفًا، وَهِي إحدَى عشرَة آيَة فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[٢].

موضوعاتها:

«ذم خصال تفضي بأصحابها إلى الخسران في الآخرة، وهي خصال غالبة على المشركين والمنافقين. ووعظ الناس بأن وراءهم حسابًا على أعمالهم بعد الموت ليتذكره المؤمن ويهدد به الجاحد. وأكد ذلك كله بأن افتتح بالقسم، وأدمج في القسم التنويه بخيل الغزاة أو رواحل الحجيج»[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٤٩٧).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٨٤).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/٤٩٨).

مقصدها:

التحذير من بعض خصال الكافرين[٣].

سورة العاديات: تأملات ووقفات

وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾﴾، «الضبح: الصَّوتُ الَّذِي يُسمَعُ مِنَ الفَرَسِ حِينَ تَعدُو»[1]، وقيل: هذا قسم بالخيل التي تعدو في سبيل الله.

﴿فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾﴾، قسم بالخيل التي يخرج من حوافرها شرر بسبب احتكاكها بالأرض والحصى.

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾﴾، قسم بالخيل حال إغارتها صبحًا في سبيل الله تعالى.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾﴾، قسم بها إذا جرت وأثارت الغبار.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾، قسم بالخيل التي يقتحم راكبها وسط العدو بها.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾، هذا جواب القسم، والكنود: الجحود، ومناسبة ذكر الخيل قبلها لأن فيها وفاءً، فكأنه قيل: أفتكون الخيل مع صاحبها أحسن من حالك منك مع ربك أيها الجحود!

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٤٦٥).

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ٧﴾، «قالَ قَتادَةُ وَسُفيانُ الثَّورِيُّ: وَإِنَّ اللهَ عَلَى ذَلِكَ لِشَهِيدٌ. وَيُحتَمَلُ أَن يَعُودَ الضَّمِيرُ عَلَى الإنسانِ، قالَهُ مُحَمَّدُ بنُ كَعبٍ القُرَظِيُّ، فَيَكُونُ تَقدِيرُهُ: وَإِنَّ الإنسانَ عَلَى كَونِهِ كَنُودًا لَشَهِيدٌ، أَي: بِلِسانِ حالِهِ»(١).

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾، يحب المال حبًّا جمًّا، وواجبنا أمام الغرائز أن نوجهها ولا نكبتها، فلو جمعت مالًا ثم أنفقت منه في سبيل الله أصابك خير كثير. فأن يسعى الإنسان لجمع المال ليعف نفسه ووالده وزوجه ولده فهذا سعي مبارك، وهو في سبيل الله. وقد ثبت عَن عامِرِ بنِ سَعدِ بنِ أَبِي وَقّاصٍ، عَن أَبِيهِ ﷺ، قالَ: كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعُودُنِي عامَ حَجَّةِ الوَداعِ مِن وَجَعٍ اشتَدَّ بِي، فَقُلتُ: إِنِّي قَد بَلَغَ بِي مِنَ الوَجَعِ وَأَنا ذُو مالٍ، وَلاَ يَرِثُنِي إِلّا ابنَةٌ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَي مالِي؟ قالَ: «لاَ» فَقُلتُ: بِالشَّطرِ؟ فَقالَ: «لاَ» ثُمَّ قالَ: «الثُّلُثُ والثُّلُثُ كَبِيرٌ - أَو كَثِيرٌ - إِنَّكَ أَن تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغنِياءَ، خَيرٌ مِن أَن تَذَرَهُم عالَةً يَتَكَفَّفُونَ النّاسَ، وَإِنَّكَ لَن تُنفِقَ نَفَقَةً تَبتَغِي بِها وَجهَ اللهِ إِلّا أُجِرتَ بِها، حَتَّى ما تَجعَلُ فِي فِي امرَأَتِكَ»(٢). فديننا لا يحارب المال، قال نبينا ﷺ: «نِعمَ المالُ الصّالِحُ لِلمَرءِ الصّالِحِ»(٣). ولا يمنع المسلم من تملك المال، وإنما الممنوع أن يملكك المال، فيكنزه ولا ينفق منه حقَّه المفروض، بل يحبسه ولعًا به، فهذا هو مذموم متوعد صاحبه، ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ٢﴾ [الهمزة].

ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ٩﴾، أخرج ما فيها من الأموات للبعث والحساب.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ١٠﴾، أبرز ما كانوا يخفونه في أنفسهم.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ١١﴾، عليم بأمرهم، وسيجازون على فعلهم.

(١) تفسير ابن كثير (٨/٤٦٧).
(٢) البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨).
(٣) أحمد (١٧٧٦٣)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط ؒ.

وبمناسبة القسم بأحوال الخيل في هذه السورة، قد قال نبينا ﷺ: «**الخَيلُ معقُودٌ فِي نَواصِيها الخَيرُ؛ الأَجرُ والمَغنَمُ إلَى يَومِ القِيامَةِ**»[١]، وهذا كناية عن بقاء الجهاد، وفيه فضل آلته، ومن أنفسها الخيل في الماضي ولعله يكون لها في القابل شأن.

وثبت عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**الخَيلُ لِثلاثَةٍ: لِرَجُلٍ أجرٌ، وَلِرَجُلٍ سِترٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزرٌ، فَأَمّا الَّذِي لَهُ أَجرٌ: فَرَجُلٌ رَبَطَها فِي سَبِيلِ اللهِ، فَأَطالَ فِي مَرجٍ أَو رَوضَةٍ، فَما أَصابَت فِي طِيَلِها ذَلِكَ مِنَ المَرجِ أَوِ الرَّوضَةِ كانَت لَهُ حَسَناتٍ، وَلَو أَنَّها قَطَعَت طِيَلَها فاستَنَّت شَرَفًا أَو شَرَفَينِ كانَت أَرواثُها وَآثارُها حَسَناتٍ لَهُ، وَلَو أَنَّها مَرَّت بِنَهرٍ، فَشَرِبَت مِنهُ وَلَم يُرِد أَن يَسقِيَها كانَ ذَلِكَ حَسَناتٍ لَهُ، وَرَجُلٌ رَبَطَها فَخرًا وَرِئاءً، وَنِواءً لِأَهلِ الإسلامِ فَهِيَ وِزرٌ عَلَى ذَلِكَ**»[٢].

ومن الأحاديث التي رغبت في اتخاذ خيل الجهاد حديث تَمِيمٍ الدّارِيِّ ﷺ، قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنِ ارتَبَطَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ عالَجَ عَلَفَهُ بِيَدِهِ، كانَ لَهُ بِكُلِّ حَبَّةٍ حَسَنَةٌ**»[٣].

ولا ريب أن هذه الأقسام دليل على فضل عبادة الجهاد، فما نالت الخيل شرف القسم بها إلا لخوضها غمار الحرب والقتال في سبيل الله، وهذا دليل على فضل هذه العبادة.

وقد قال الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)﴾ [التوبة]. وسبب نزولها عَن زَيدِ بنِ سَلّامٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبا سَلّامٍ قالَ: حَدَّثَنِي النُّعمانُ بنُ بَشِيرٍ قالَ: كُنتُ عِندَ مِنبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقالَ رَجُلٌ: ما أُبالِي أَن لا

---

(١) البخاري (٣١١٩)، ومسلم (١٨٧١).
(٢) البخاري (٢٨٦٠).
(٣) ابن ماجه (٢٧٩١)، وهي في صحيح الجامع (٦٠٠٨).

أَعمَلَ عَمَلًا بَعدَ الإِسلامِ إِلّا أَن أُسقِيَ الحاجَّ، وَقالَ آخَرُ: ما أُبالِي أَن لا أَعمَلَ عَمَلًا بَعدَ الإِسلامِ إِلّا أَن أَعمُرَ المَسجِدَ الحَرامَ، وَقالَ آخَرُ: الجِهادُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفضَلُ مِمّا قُلتُم. فَزَجَرَهُم عُمَرُ وَقالَ: لا تَرفَعُوا أَصواتَكُم عِندَ مِنبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَومُ الجُمُعَةِ، وَلَكِن إِذا صَلَّيتُ الجُمُعَةَ دَخَلتُ فاستَفتَيتُهُ فِيما اختَلَفتُم فِيهِ. فَأَنزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآيَةَ إِلَى آخِرِها...»[1].

والجهاد دليل صدق الإيمان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)﴾ [الحجرات].

وهو فعل الأنبياء، وأولياء الله الصالحين، ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨)﴾ [التوبة].

وفي الحديث: «إِذا تَبايَعتُم بِالعِينَةِ، وَأَخَذتُم أَذنابَ البَقَرِ، وَرَضِيتُم بِالزَّرعِ، وَتَرَكتُم الجِهادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيكُم ذُلًّا لا يَنزِعُهُ حَتَّى تَرجِعُوا إِلَى دِينِكُم»[2].

---

(١) مسلم (١٨٧٩).

(٢) أبو داود (٣٤٦٢)، وهو في السلسلة الصحيحة برقم (١١).

سُورَةُ القَارِعَةِ

بين يدي سورة القارعة

وهي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

ليس لها سوى اسم «﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُهَا سِتٌّ وَثَلاثُونَ كلمة، وحروفها مئة واثنانِ وَخَمسُونَ حرفًا، وَهِي ثَمانِي آيات فِي البَصرِيِّ والشامي وَعشر فِي المَدَنِيين والمكي وَإِحدَى عشرَة فِي الكُوفِي، اختلافها ثَلاث آيات: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ الأولى، عدها الكُوفِي وَلم يعدها الباقُونَ، ﴿ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، و﴿خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، لم يعدهما البَصرِيُّ والشامي وعدهما الباقُونَ»[٢].

موضوعاتها:

«ذكر فيها إثبات وقوع البعث وما يسبق ذلك من الأهوال. وإثبات الجزاء على الأعمال، وأن أهل الأعمال الصالحة المعتبرة عند الله في نعيم، وأهل الأعمال السيئة

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٥٠٩).
(٢) البيان في عدّ آي القرآن، ص(٢٨٥).

التي لا وزن لها عند الله في قعر الجحيم»[١].

مقصدها:

الترغيب في الفوز في الآخرة، والتحذير من الكفر الذي هو سبب لخسارتها.

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٥٠٩).

سورة القارعة: تأملات ووقفات

﴿ٱلْقَارِعَةُ ١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ١١﴾

﴿ٱلْقَارِعَةُ ١﴾، وسميت القيامة بالقارعة لأنها تقرع القلوب بأهوالها.

﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ٣﴾، وهذا الاستفهام يشوِّق لمعرفة حقيقتها، ويهوِّل من شأنها؛ فإذا ذكر ما بعده كان أرسخ في الذهن مما لو ذكر بدونه، وهو أسلوب قرآني نبوي مستخدم في الأمور المهمة التي يراد تقريرها، مثال ذلك: ما ثبت عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**أَلا أَدُلُّكُم عَلَى ما يَمحُو اللهُ بِهِ الخَطايا، وَيرفَعُ بِهِ الدَّرَجاتِ؟**» قالُوا: بَلَى يا رَسُولَ اللهِ، قالَ: «**إِسباغُ الوُضُوءِ عَلَى المَكارِهِ، وَكَثرَةُ الخُطا إِلَى المَساجِدِ، وانتِظارُ الصَّلاةِ بَعدَ الصَّلاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّباطُ**»[1]. فهذا يرسَخ في أذهانهم أكثر مما لو قيل لهم ابتداء: إسباغ الوضوء كفارة للسيئات، ورفعة في الدرجات.

---

(١) مسلم (٢٥١).

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ٤ ﴾، «أي: فِي انتِشارِهِم وَتَفرُّقِهِم، وَذَهابِهِم وَمَجِيئِهِم، مِن حَيرَتِهِم مِمّا هُم فِيهِ، كَأَنَّهُم فَراشٌ مَبثُوثٌ. كَما قالَ فِي الآيَةِ الأُخرَى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ٧﴾ [القمر]»(١). وهذه الآية تبطل قول من قال: القارعة الصاعقة، لأن الحديث عن أهوال يوم القيامة.

والمرء في هذه الدنيا لو قام من نومه وقد ضج أناس حوله لحادث قام فزعًا، ولم يعد إليه اتزانه إلا بعد حين، فكيف بأهوال الآخرة؟

فإن قيل: هذا حال من يخرج من قبره، يقوم على تلك الحال، فكيف بمن أكلته السباع، وحرقته النيران، وابتلعته البحار؟ كلهم يجتمعون لا يضيع منهم أحد. قال ربنا: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ٤٧﴾ [الكهف]، يحشر المأكول وينشأ مرة أخرى كما يحشر آكله وينشأ.

وسبق معنا أن كل سؤال بـ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾، فإن إجابته مبيَّنة.

وبيانها هنا من أول قوله: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾، إلى آخر السورة. أما إذا جاء السؤال بلفظ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، فلا يُبيِّن جوابه، ويكون ما موضوعه من الجملة الغيب الموكول علمه إلى الله تعالى.

وقوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ٥﴾، العهن الصوف، والمنفوش البالي الذي أصبح ضعيف التماسك، كما قال ربنا: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ٧٨ ﴾ [الأنبياء]، أي: عَدَت غنم أحدهما على زرع الآخر، وانتشرت فيه ليلًا فأتلفت الزرع. والصوف المنفوش يكون أكبر حجمًا وأخف وزنًا من المتراكب المتروك دون نفش.

ثم أخبر أنه في ذلك اليوم المهول تثقل موازين أناس وتخف موازين آخرين! ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ٧ ﴾، أي تحقق لهم الرضا بحالهم،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤٦٨/٨).

وقرَّت به أعينهم. كما قال ربنا: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ٩﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤﴾ [المؤمنون].

فماذا يثقل الموازين من الأعمال؟

من ذلك: تعظيم لا إله إلا الله، ومحبتها، والقيام بما تقتضيه وتدل عليه.

فعن عَبدَ اللهِ بنَ عَمرِو بنِ العاصِ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِن أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلائِقِ يَومَ القِيامَةِ فَيَنشُرُ عَلَيهِ تِسعَةً وَتِسعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنكِرُ مِن هَذا شَيئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لا يا رَبِّ، فَيَقُولُ أَفَلَكَ عُذرٌ؟ فَيَقُولُ: لا يا رَبِّ. فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِندَنا حَسَنَةً؛ فَإِنَّهُ لا ظُلمَ عَلَيكَ اليَومَ، فَتَخرُجُ بِطاقَةٌ فِيها: أَشهَدُ أَن لا إِلَهَ إِلّا اللهُ وَأَشهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولُ: احضُر وَزنَكَ. فَيَقُولُ يا رَبِّ ما هَذِهِ البِطاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلّاتِ؟ فَقالَ: إِنَّكَ لا تُظلَمُ. فَتُوضَعُ السِّجِلّاتُ فِي كَفَّةٍ، والبِطاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطاشَت السِّجِلّاتُ وَثَقُلَت البِطاقَةُ، فَلا يَثقُلُ مَعَ اسمِ اللهِ شَيءٌ**»[١].

ومنها: ذكر الله تعالى.

فعَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، عَن النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «**كَلِمَتانِ خَفِيفَتانِ عَلَى اللِّسانِ، ثَقِيلَتانِ فِي المِيزانِ، حَبِيبَتانِ إِلَى الرَّحمَنِ: سُبحانَ اللهِ العَظِيمِ، سُبحانَ اللهِ وَبِحَمدِهِ**»[٢].

وثبت عَن جُوَيرِيَةَ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِن عِندِها بُكرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبحَ وَهِيَ فِي مَسجِدِها، ثُمَّ رَجَعَ بَعدَ أَن أَضحَى وَهِيَ جالِسَةٌ، فَقالَ: «**ما زِلتِ عَلَى الحالِ الَّتِي فارَقتُكِ عَلَيها؟**»، قالَت: نَعَم. قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَقَد قُلتُ بَعدَكِ أَربَعَ كَلِماتٍ ثَلاثَ**

---

(١) أحمد (٦٦٩٩)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط في تخريج المسند.

(٢) البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

مَرّاتٍ لَو وُزِنَت بِما قُلتِ مُنذُ اليَومِ لَوَزَنَتهُنَّ: سُبحانَ اللهِ وَبِحَمدِهِ عَدَدَ خَلقِهِ، وَرِضا نَفسِهِ، وَزِنَةَ عَرشِهِ، وَمِدادَ كَلِماتِهِ»[١].

وقال ﷺ: «والحمد لله تملأ الميزان»[٢].

وفي حديث آخر: «بَخٍ بَخٍ خَمسٌ ما أَثقَلَهُنَّ فِي المِيزانِ: لا إِلَهَ إِلّا اللهُ، واللهُ أَكبَرُ، وَسُبحانَ اللهِ، والحَمدُ للهِ، والوَلَدُ الصّالِحُ يُتَوَفَّى فَيَحتَسِبُهُ والِداهُ»[٣].

ومنها: حسن الخلق.

لحديث أبي الدرداء ﷺ، قال نبينا ﷺ: «ما مِن شَيءٍ أَثقَلُ فِي المِيزانِ مِن حُسنِ الخُلُقِ»[٤].

ومنها: اتباع الجنائز.

فعَن أُبَيٍّ ﷺ، عَن النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «مَن تَبِعَ جَنازَةً حَتَّى يُصَلَّى عَلَيها وَيُفرَغَ مِنها فَلَهُ قِيراطانِ، وَمَن تَبِعَها حَتَّى يُصَلَّى عَلَيها فَلَهُ قِيراطٌ، والَّذِي نَفسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَثقَلُ فِي مِيزانِهِ مِن أُحُدٍ»[٥].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾، خفت: لم ترجح في الميزان، وهذا يجعلنا نتأمل في كل عمل نقوم به: هل ينفع في ميزان الله أم لا؟ وأعظم ما يخف به الميزان، ويذهب قيمة العمل الكثير: الرياء، وضعف الإخلاص، ودخول الشرك على العمل.

وسميت النار أمه؛ لملازمته لها، كما يلازم الطفل أمه لا ينفك عنها. وهي هاوية سحيقة بعيد قعرها، وهو يهوي إلى ما شاء الله تعالى من قعرها بحسب عمله.

---

(١) مسلم (٢٧٢٦).
(٢) مسلم (٢٢٣).
(٣) أحمد (١٥٦٦٢)، وقال عنه محقق المسند الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.
(٤) أحمد (٢٧٥١٧)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط في تخريجه.
(٥) أحمد (٢٠٢٥٦)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط في تخريجه.

ومدة الهُوِيّ بينت في السنة، فعَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، قالَ: كُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إذ سَمِعَ وَجبَةً، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَدرُونَ ما هَذا؟»، قالَ: قُلنا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قالَ: «**هَذا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النّارِ مُنذُ سَبعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهوِي فِي النّارِ الآنَ، حَتَّى انتَهَى إلَى قَعرِها**»[1].

ثم قال تعالى منذرًا من تلك الهاوية ومعرفًا بها: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ١١﴾، نار حارة، شديدة الحر، نسأل الله السلامة منها.

(١) مسلم (٢٨٤٤).



بين يدي سورة التكاثر

وهي مكية على الصحيح[١].

أسماؤها:

لها ثلاثة أسماء: ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾، و﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾، والمقبرة[٢].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها ثَمان وَعِشرُونَ كلمة، وحروفها مئة وَعِشرُونَ حرفًا، وَهِيَ آيات ثمانية فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[٣].

ما ورد فيها:

قرأ النبي ﷺ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، ثم قال: **«يقول ابن آدم: مالي مالي، وإنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»**[٤].

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٥١٧).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/٥١٧).
(٣) البيان في عدّ آي القرآن، ص(٢٨٦).
(٤) صحيح ابن حبان (٦٩٩).

موضوعاتها:

«اشتملت على التوبيخ على اللهو عن النظر في دلائل القرآن ودعوة الإسلام، بإيثار المال والتكاثر به، والتفاخر بالأسلاف، وعدم الإقلاع عن ذلك إلى أن يصيروا في القبور كما صار من كان قبلهم، وعلى الوعيد على ذلك. وحثهم على التدبُّر فيما ينجيهم من الجحيم. وأنهم مبعوثون ومسؤولون عن إهمال شكر المنعم العظيم»[١].

مقصدها:

التحذير من التشاغل عن الآخرة بالدنيا وملهياتها.

---

(١) التحرير والتنوير (٥١٨/٣٠).

سورة التكاثر: تأملات ووقفات

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾، في الأموال والأولاد[1]. وقد ألهيا أكثر الناس عن الله تعالى والدار الآخرة، بل ألهيا كثيرًا من المسلمين عما ينفعهم في آخرتهم، كالقرآن الكريم تلاوة وتدبُّرًا وتعلمًا، ففسدت دنياهم وما ينتظرهم بعدها أشد! قال ربنا: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٢٧﴾ [طه].

والتكاثر صيغة مفاعلة، فكان بعضهم يكاثر بعضًا، يقول ما قاله الكافر صاحب الجنتين: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤﴾ [الكهف].

وفي زمننا هذا هناك من يُكاثر بعدد السيارات، أو بعدد البيوت، وكم ممن شغل في هذا الزمان عما ينفعه في آخرته بمشاغل الدنيا؛ بالإنترنت، والإعلام الجديد، ومواقع التواصل، وبالألعاب، وبغير ذلك!

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٤٧٣).

والإلهاء يكون بالقلب، فإذا انشغل أحد بشيء بجوارحه وقلبه فهذا هو الإلهاء، أما إذا حصل ذلك بالجوارح دون القلب فهو انشغال وليس إلهاءً، وقد يطلق على كل ذلك إلهاء.

ولا ينبغي التلهي بشيء من أمور الدنيا عن ذكر الله تعالى، قال ربنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]. وللعلماء في المقصود من ذكر الله هنا أقوال: قيل: الصلاة، والفرائض، والجهاد، وقيل: حضهم بذلك على إدامة الذكر[١].

فمطلوب من المسلم ألا ينشغل عن الإكثار من ذكر الله، فليس الشأن أن تذكر الله، وإنما أن تكثر منه ولا تتلهى عنه بشيء من صوارف الدنيا، والقِران بين الذكر والإكثار منه في القرآن كثير، قال ربنا: لزكريا ﷺ: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران]. وقال الكليم ﷺ: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه]. وقال ربنا تعالى لنبينا ﷺ: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف]. وقال: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإنسان]. وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥]. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب]. وقال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة]. وقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ

---

(١) زاد المسير (٤/٢٨٩).

وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج]. وقال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء]. وقال: ﴿وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب]. وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وإنما جاء الأمر بالإكثار منه لأنه سبيل المؤمنين، فالمنافق يذكر الله، ولكنه مقلٌّ منه، وقد لا يريد به وجه ربه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء].

فكل من شُغل عن آخرته بشيء فإنه يخشى عليه من هذه الآية. قال ابن عبد البر ﷺ: «سَمِعتُ أَبا مُحَمَّدٍ عَبدَ اللهِ بنَ مُحَمَّدِ بنِ أَسَدٍ، ﷺ يَقُولُ: سَمِعتُ حَمزَةَ بنَ مُحَمَّدِ بنِ عَلِيٍّ الكِنانِيَّ قالَ: خَرَّجتُ حَدِيثًا واحِدًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِن مِائَتَي طَرِيقٍ أَو مِن نَحوِ مِائَتَي طَرِيقٍ، شَكَّ أَبُو مُحَمَّدٍ قالَ: فَداخَلَنِي مِن ذَلِكَ مِنَ الفَرَحِ غَيرُ قَلِيلٍ وَأُعجِبتُ بِذَلِكَ قالَ: فَرَأَيتُ لَيلَةً مِنَ اللَّيالِي يَحيَى بنَ مَعِينٍ فِي المَنامِ فَقُلتُ لَهُ: يا أَبا زَكَرِيّا خَرَّجتُ حَدِيثًا واحِدًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِن مِائَتَي طَرِيقٍ قالَ: فَسَكَتَ عَنِّي ساعَةً ثُمَّ قالَ: أَخشَى أَن يَدخُلَ هَذا تَحتَ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾». لأن طريقًا واحدًا يكفي[1]؛ أي طريقًا صحيحًا. وقد حضرت مناقشة رسالة علمية، وكان الطالب قد خرَّج حديثًا من عدة طرق، فقال له أحد المناقشين: لماذا فعلت هذا مع أنَّ الحديث في الصحيح؟ هل الغرض استعراض القدرة على التخريج؟! فأُحرج الطالب.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾، أي: حتى قُبرتم فيها. ومما يدل لذلك حديث عن ابن عباس ﷺ، أن رسول الله ﷺ دخل على أعرابي يعوده، فقال: «**لا بأس عليك، طهور إن**

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/١٠٣٤).

شاء الله». فقال الأعرابي: ذاك طهور؟! كلا؛ بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، كيما تُزِيره القبور! فقال النبي ﷺ: «فنعم إذًا»[١].

ومن دلالات هذه الآية: أن مكث الناس في قبورهم قليل، كالزيارة، والزائر لا يطيل المكث، ولا بُدَّ أن يرتحل عن المكان، وبعد زيارة القبور البعث والنشور، ثم القرار إما في جنة وإما في نار، نسأل الله السلامة منها.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾، ما كان ينبغي أن يلهيكم التكاثر عن طاعة الله تعالى، والثانية توكيد، متضمن زيادة وعيد وتهديد.

قال ابن جرير ﵀: «﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾: يعني: حتى صرتم إلى المقابر فدُفِنتم فيها؛ وفي هذا دليل على صحة القول بعذاب القبر؛ لأن الله تعالى ذكره، أخبر عن هؤلاء القوم الذين ألهاهم التكاثر، أنهم سيعلمون ما يلقون إذا هم زاروا القبور وعيدًا منه لهم وتهدُّدا. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»... عن علي، قال: نزلت ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ في عذاب القبر»[٢]. لأنه جعل المراد: كلا ستعلمون عاقبة ذنبكم إذا دفنتم في المقابر وعذبتم فيها. فهذه من أدلة القرآن على عذاب القبر.

وإن مما يؤسف عليه أن يقال: لم يرد ذكر عذاب القبر في القرآن الكريم! وقد تبيَّن لك أن هذه السورة دليل عليه، ومن أدلة القرآن الكريم على ذلك أيضًا:

قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۝٤٥ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر].

قال ابن كثير ﵀: «﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾، وهو الغرق في اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحًا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا

(١) صحيح الأدب المفرد (٣٩٩).
(٢) تفسير الطبري (٢٤/٥٨٠).

كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، أي: أشده ألمًا وأعظمه نكالًا. وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور»[1].

وعرض الروح على العذاب عذاب، كما في الآية، ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾.

وفي حديث عبد الله بن عمر ﭭ، أن النبي ﷺ قال: «**إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة**»[2].

والغُدوَة ما بين صلاة الغَداةِ وطُلُوع الشَّمس.

والعَشِيُّ: من زوال الشَّمس إلى المغرب، أَو من صلاة المغرب إلى العَتَمَةِ.

ومن الأدلة في القرآن على عذاب القبر قول ربنا: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ١٠١﴾ [التوبة].

قال مجاهد ﵀: «﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾، بالجوع، وعذاب القبر. قال: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، يوم القيامة». وهو قول قتادة، والربيع بن أنس»[3].

ومن أدلة القرآن على العذاب في البرزخ قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ٢٥﴾ [نوح].

والفاء العاطفة تدل على الترتيب والتعقيب كما لا يخفى.

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ٥﴾، أي: لو علمتم حقَّ العلم أنكم مبعوثون لما ألهاكم التكاثر عن طلب الآخرة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٠٣/٤).
(٢) البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).
(٣) ينظر: تفسير الطبري (٤٤٢/١٤).

وعلم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، درجات للإدراك تتفاوت في قوتها، وهذا مثال يوضح الفرق بينها: لو أن كافرًا سمع بالنار وصدق لكنه لم ينقد، فتصديقه بها علم اليقين، فإذا رآها فهذا عين اليقين، وإذا دخلها فهذا حق اليقين. ولهذا قال ابن كثير ﵀: «لما قال الخليل للنمروذ: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، أحب أن يترقى من علم اليقين في ذلك إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾»[1].

ثم قال: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧﴾، وهذا قسم بأن الناس سيرون النار في الآخرة بأعينهم، أما المؤمن فيجتازها على الصراط، وأما الكافر فله بعد رؤيتها ملابسة وملازمة لها.

﴿لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾، فنعيم الدنيا ابتلاء ليتزود به العبد إلى آخرته، فهو مسؤول عما أوتي فيها، وعن النعم التي تيسرت له وتهيأت؛ ماذا عمل فيها؟

عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﵁، قالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذاتَ لَيلَةٍ، فَإذا هُوَ بِأَبِي بَكرٍ وَعُمَرَ، فَقالَ: «ما أخرَجَكُما مِن بُيُوتِكُما هَذِهِ السّاعَةَ؟» قالا: الجُوعُ يا رَسُولَ اللهِ، قالَ: «وَأَنا، والَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ، لَأَخرَجَنِي الَّذِي أخرَجَكُما، قُومُوا»، فَقامُوا مَعَهُ، فَأَتَى رَجُلًا مِنَ الأَنصارِ فَإذا هُوَ لَيسَ فِي بَيتِهِ، فَلَمّا رَأَتهُ المَرأَةُ، قالَت: مَرحَبًا وَأَهلًا، فَقالَ لَها رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَينَ فُلانٌ؟» قالَت: ذَهَبَ يَستَعذِبُ لَنا مِنَ الماءِ، إذ جاءَ الأَنصارِيُّ، فَنَظَرَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصاحِبَيهِ، ثُمَّ قالَ: الحَمدُ للهِ ما أَحَدٌ اليَومَ أَكرَمَ أَضيافًا مِنِّي، قالَ: فانطَلَقَ، فَجاءَهُم بِعِذقٍ فِيهِ بُسرٌ وَتَمرٌ وَرُطَبٌ، فَقالَ: كُلُوا مِن هَذِهِ، وَأَخَذَ المُديَةَ، فَقالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إيّاكَ، والحَلُوبَ»، فَذَبَحَ لَهُم، فَأَكَلُوا مِنَ الشّاةِ وَمِن ذَلِكَ العِذقِ وَشَرِبُوا، فَلَمّا أَن شَبِعُوا وَرَوُوا، قالَ رَسُولُ اللهِ

(١) تفسير ابن كثير (٦٨٩/١).

ﷺ لِأَبِي بَكرٍ، وَعُمَرَ: «والَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ، لَتُسأَلُنَّ عَن هَذا النَّعِيمِ يَومَ القِيامَةِ، أَخرَجَكُم مِن بُيُوتِكُمُ الجُوعُ، ثُمَّ لَم تَرجِعُوا حَتَّى أَصابَكُم هَذا النَّعِيمُ»[1].

فالواجب شكر الله على نعمه، والعمل فيها بطاعته، والله المستعان.

---

(١) مسلم (٢٠٣٨).



بين يدي سورة العصر

وهي مكية في قول الجمهور[١].

أسماؤها:

لها اسمان: سورة «العصر». وسورة «﴿وَٱلْعَصْرِ﴾»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها أَربع عشرَة كلمة، وحروفها ثَمانِيَة وَسِتُّونَ حرفًا، وَهِي ثَلاث آيات فِي جَمِيع العدَد. واختلافها آيتان: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾؛ لم يعدها المدنِي الأَخير وعدها الباقُونَ، ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾؛ عدها المدنِي الأَخير وَلم يعدها الباقُونَ»[٢].

ما ورد فيها:

عن أبي مدينة الدارمي ﷺ، قال: «كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾، ثم يسلم أحدهما على الآخر»[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٥٢٧).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٨٧).
(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (١١/٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٦٤٨).

وقد قال الإمام الشافعي ﷺ: «لو تدبر الناس هذه السورة، لوسعتهم»[١].

موضوعاتها:

«اشتملت على إثبات الخسران الشديد لغير المؤمنين، وعلى إثبات نجاة وفوز الذين آمنوا وعملوا الصالحات، والداعين منهم إلى الحق، وعلى فضيلة الصبر على تزكية النفس ودعوة الحق»[٢].

مقصدها:

الحث على التمسك بالإيمان وخصاله التي يتحقق الفوز بها.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤٧٩/٨).
(٢) التحرير والتنوير (٥٢٧/٣٠ ـ ٥٢٨) بتصرف يسير.

سورة العصر: تأملات ووقفات

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾

قوله: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾، قسم، واختلف المفسرون في المراد بذلك، فقيل: الدهر، وقيل: المراد وقت العشي، من الزوال إلى الغروب، وقيل: المراد صلاة العصر(١).

وهذا يدل على أهمية هذه الصلاة المباركة، وقد ثبت عَن عَبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**الَّذِي تَفُوتُهُ صَلاَةُ العَصرِ، كَأَنَّما وُتِرَ أَهلَهُ وَمالَهُ**»(٢). أي: كأنما فقد أهله وماله.

ويدل على أهمية العناية بالوقت، وكم من الأوقات تضيع منا ونحن لا نشعر! ونحن مسؤولون عنها في آخرتنا، فعن أَبِي بَرزَةَ الأَسلَمِيِّ رضي الله عنه، قال: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لاَ تَزُولُ قَدَما عَبدٍ يَومَ القِيامَةِ حَتَّى يُسأَلَ عَن عُمُرِهِ فِيما أَفناهُ، وَعَن عِلمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَن مالِهِ مِن أَينَ اكتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنفَقَهُ، وَعَن جِسمِهِ فِيمَ أَبلاَهُ**»(٣). فعلى العاقل استثمار هذه النعمة، فالفراغ، والصحة التي تعين على استغلاله، نعمتان عظيمتان، فعَنِ ابنِ عَبّاسٍ رضي الله عنهما، قالَ: قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**نِعمَتانِ مَغبُونٌ فِيهِما كَثِيرٌ مِنَ النّاسِ:**

---

(١) يراجع: زاد المسير (٤/٤٨٧).
(٢) البخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦).
(٣) الترمذي (٢٤١٧)، وهو في السلسلة الصحيحة (٩٤٦).

الصِّحَّةُ والفَراغُ»(١).

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ ﴾، المراد: جنس الإنسان. والخسر: الخسارة والهلاك. قال شيخنا ابن عثيمين ﵀: «﴿ لَفِى خُسْرٍ ﴾ أبلغ من قولك: (لخاسر)؛ وذلك أن (في) للظرفية، فكأن الإنسان منغمس في الخسر، والخسران محيط به من كل جانب»(٢).

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، والقاعدة أن المستثنى يكون أقل من المستثنى منه، وهذا ما تؤكده آيات في كتاب الله تعالى، منها: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ]. فالمؤمنون قلة، وأكثر الناس ممن كفر بالله، قال ربنا: ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأعراف]، ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف].

وبدأ بالإيمان لأن العمل بدونه لا يكون مقبولًا، فهو الأساس الذي يبنى عليه. قال ربنا: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور]، وقال: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٥٤].

وفي تعريف الإيمان تذكر نونات خمس: اعتقاد بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالأركان، يزيد بطاعة الرحمن، وينقص بطاعة الشيطان.

وعطف العمل عليه لا يعني خروجه منه، بل العمل من الإيمان، ولا يقال: شرط؛ لأن الشرط خارج عن ماهية الشيء، بل نقول ما قاله أسلافنا: العمل من الإيمان، وعطفه عليه من باب عطف الخاص على العام.

---

(١) البخاري (٦٤١٢).

(٢) تفسير جزء عم، ص(٣٠٨).

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾، أي أوصى بعضهم بعضًا بالحق، وهو ما جاء به الشرع وأمر به.

وذكر العمل الصالح قبل التواصي بالخير؛ لأن هذا هو المطلوب من المؤمن، أن يعمل قبل أن يأمر، قال ربنا: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)﴾ [البقرة]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)﴾ [الصف]. وقال شعيب ﷺ لقومه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

وبعد العمل فلا بُدَّ من العناية بالتواصي بالحق؛ أمرًا بالمعروف، ونهيًا عن المُنكر، ونصحًا للناس؛ طلبًا للنجاة في الآخرة.

وإعمال هاتين الشعيرتين من أمارات الإيمان، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

والقيام بهما سنة نبينا ﷺ، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والخيرية إنما تنال بالقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤)﴾ [النساء].

والإصلاح فلاح في الدارين، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُو (١٠٤)﴾ [آل عمران].

وهـذا العمـل مـن أسـباب دخـول الجنـة، قـال تعـالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة].

وثبت عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**الإسلام أن تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج، والأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر، وتسليمك على أهلك، فمن انتقص شيئًا منهن فهو سهم من الإسلام يدعه، ومن تركهن فقد ولى الإسلام ظهره**»[١].

ومصلحة الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر تربو على مفسدة الجلوس في الطرقات، ولذا أذن النبي ﷺ للصحابة في ذلك بشرط القيام بهما، ففي الصحيحين، عن أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**إياكم والجلوس على الطرقات**»، فقالوا: ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها. قال: «**فإذا أتيتم إلى المجالس فأعطوا الطريق حقها**». قالوا: وما حق الطريق؟ قال: «**غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن المُنكر**»[٢].

وثبت في صحيح مسلم[٣]، عن تميم بن أوس الداري ﷺ، أنه قال: قال النبي ﷺ: «**الدين النصيحة**»، قال: قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم**».

---

(١) الحاكم (٥٣)، وهو في السلسلة الصحيحة برقم (٣٣٣).
(٢) البخاري (٢٤٦٥)، ومسلم (٢١٢١).
(٣) مسلم (٥٥).

فمما أرشدت هذه السورة إليه: الحرص على دعوة الناس وهدايتهم، ونشر العلم، وتأمل فيما قاله ربنا سبحانه لنبينا ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الشعراء]. أي: لعلك ـ أيها الرسول ـ من شدة حرصك على هدايتهم مُهلِكٌ نفسك؛ لأنهم لم يصدِّقوا بك ولم يعملوا بهديك، فلا تفعل ذلك، والمقصود لا بُدَّ من الحرص على التواصي بالحق، فبذلك يثبت المؤمن، ويرشد الجاهل، ويكف المخالف.

ثم قال: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾، وأُخِّرت هذه؛ لأن التواصي بالحق والأمر بالمعروف يحتاج إلى صبر، ولهذا ذكرها بعدها، فمن أمر ونهى وأوصى فلا بُدَّ أن يناله شيء من أذى فكان مناسبًا أن يؤمر بالصبر عليه، كما قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان].

وللصبر ثمار عديدة، منها:

تحقيق الإيمان، قال ربنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. وكل ما أمر الله به بعد النداء للمؤمنين يدل على أن له أثرًا كبيرًا في تحققه، وزيادته.

ومن ثمراته: تحقيق الإخبات، والإخبات الخضوع، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾ [الحج].

ومنها: تحقيق البر الصدق والتقوى، قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ [البقرة].

ومنها: تحقيق الهداية، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

ومنها: نيل رحمة الله، قال ربنا: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة].

ومنها: الأجر الجزيل، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر].

والصبر تنال به معية الله، قال ربنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣، الأنفال: ٤٦].

وتنال به محبة الله، قال عز اسمه: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران].



بين يدي سورة الهمزة

وهي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

سورة «الهمزة»، و«﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾»، وسورة «﴿الْحُطَمَةِ﴾».

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها ثَلاث وَثَلاثُونَ كلمة، وحروفها مئة وَثَلاثَة وَثَلاثُونَ حرفًا، وَهِي تسع آيات فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[٢].

موضوعاتها:

«وعيد جماعة من المشركين جعلوا همز المسلمين ولمزهم ضربًا من ضروب أذاهم؛ طمعًا في أن يلجئهم الملل من أصناف الأذى، إلى الانصراف عن الإسلام والرجوع إلى الشرك»[٣].

مقصدها:

تثبيت المؤمنين بتهديد أعدائهم بالنار.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٥٣٥).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٨٨).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/٥٣٥).

سورة الهمزة: تأملات ووقفات

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾، والهمز: الطعن في الشخص أمامه، واللمز: غيبته[1]، وقيل: الهمز بالإشارة، واللمز بالعبارة، وتقدم أنَّ ﴿وَيْلٌ﴾: كلمة توعُّد. قال ابن كثير ﷺ: «والويل: الهلاك والدمار، وهي كلمة مشهورة في اللغة»[2]. ووردت هذه الكلمة في القرآن أربع عشرة مرة، وافتتحت بها سورتان: هذه، والمطففين. فتوعدت الآية من يغتاب الناس بالنار، وقد ورد كثير من النصوص التي تحذر من الغيبة، فالغيبة ضرب الله لأصحابها أسوأ الأمثلة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ۝١٢﴾ [الحجرات].

أي: «فكما أنكم تكرهون أكلَ لحمه ـ وخصوصًا إذا كان ميتًا فاقد الروح ـ فكذلك فلتكرهوا غيبته، وأكل لحمه حيًا»[3]. ومعلومٌ أن مما أباحه الله تعالى أكل

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٤٨١).
(٢) تفسير ابن كثير (١/٣١١).
(٣) تفسير السعدي، ص(٨٠١).

الميتة للمضطر، والعقل يتصور حدوث ذلك، ولكن لا يمكن أبدًا أن يقدم إنسان على أكل أخيه ولو مات بالجوع، فكما ينفر المرء من ذلك ويبغضه وتأباه نفسه؛ فعليه أن ينفر من الغيبة ويبغضها.

وقد وقع رجل في عرض أخيه بمجلس رسول الله ﷺ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَخَلَّل**»(١). قالَ: وَما أَتَخَلَّلُ يا رَسُولَ الله، أَكَلتُ لَحمًا؟! قالَ: «**إِنَّكَ أَكَلتَ لَحمَ أَخِيكَ**»(٢).

والغيبة صفة الفاسقين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات]. «قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومقاتل بن حيّان: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يطعُن بعضكم على بعض»(٣). ومعنى الآية: أنَّ من فعل ذلك فقد استحق اسم الفسق وانتقل إلى دائرته بعد أن كان مؤمنًا.

والدليل على أنَّ الغيبة معصية لا يمكن صدورها عمن كان قلبُه عامرًا بالإيمان قول رسول الله ﷺ: «**يا مَعشَرَ مَن آمَنَ بِلِسانِهِ وَلَم يَدخُلِ الإيمانُ قَلبَهُ، لا تَغتابُوا المُسلِمِينَ، وَلا تَتَّبِعُوا عَوراتِهِم؛ فإنَّه مَن يَتَّبِع عَوراتِهِم يَتَّبِعِ الله عَورَتَه، وَمَن يَتَّبِعِ الله عَورَتَهُ يَفضَحهُ فِي بَيتِهِ**»(٤).

ولا أكره ولا أنتن من رائحة الذين يغتابون المؤمنين، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ، فارتفعت ريح منتنة، فقال رسول الله ﷺ: «**أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين**»(٥).

والغيبة عظيمة ولو كانت بكلمة يسيرة، قالت عائشة رضي الله عنها: قلت للنبيِّ ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا؟ ـ قال بعض الرواة: تعني قصيرة ـ فقال لها: «**لقد قلتِ**

---

(١) التخلل: إخراج بقايا الطعام من بين الأسنان.
(٢) الطبراني في الكبير (١٠٢/١٠)، وصححه الألباني في غاية المرام (٤٢٨).
(٣) تفسير ابن كثير (٣٧٦/٧).
(٤) أحمد (١٩٨٠١)، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.
(٥) صحيح الأدب المفرد (٥٦٦).

كلمةً لو مُزِجت بماء البحر لمزجته»[١].

والمعنى: أنَّ الله تعالى لو جعل هذه الكلمة مادة محسوسة، وجعل لها لونًا، وأُلقي بها في بحر لتغيَّر لونُه بها!

والمغتاب مستحق للهجر، فزينب ﵂ قالت يومًا للنبي ﷺ: أنا أُعطي تلك اليهودية؟ - تريد صفية ﵂، بسبب ما يكون بين الضرائر - قالت عائشة ﵂: «فغضب رسول الله ﷺ، فهجرها ذا الحجة، والمحرم، وبعض صفر»[٢].

والغيبة من أسباب عذاب القبر، ودليل هذا حديث أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لَمّا عُرِجَ بِي مَرَرتُ بِقَومٍ لَهم أَظفارٌ مِن نُحاسٍ، يَخمُشُونَ وُجُوهَهُم وَصُدُورَهُم، فَقُلتُ: مَن هَؤُلاءِ يا جِبرِيلُ ؟ قالَ: هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَأكُلُونَ لُحُومَ النّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعراضِهِم»**[٣].

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾، أي: لا همَّ له سوى جمعه وحسابه، «قال محمد بن كعب: ألهاه ماله بالنهار، هذا إلى هذا، فإذا كان الليل، نام كأنه جيفة»[٤]، وفي هذه الآية إشارة إلى أن من أسباب همز الناس ولمزهم التكثُّر بالمال، وأنه دافع إلى الطغيان على عباد الله وتنقصهم.

﴿يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ۝٣﴾، وهذا من فرط الجهل يظن أن ماله سيخلده في الدنيا ذكرًا وشرفًا.

﴿كَلَّا﴾؛ أي: ليس الأمر كذلك، بل سيموت هذا الذي صدَّه ماله عن الله، ولن يحمد ويرفع له ذكر، بل العكس، وسوف يخلد يوم القيامة لكن في النار يقاسي حرها.

---

(١) أبو داود (٤٨٧٥)، وصححه الألباني في غاية المرام (٤٢٧).
(٢) أبو داود (٤٦٠٢)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب للألباني (٢٨٣٥).
(٣) أحمد (١٣٣٤٠)، وقال محقق المسند العلامة شعيب الأنؤوط: إسناده صحيح.
(٤) تفسير ابن كثير (٤٨١/٨).

﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ٤﴾، أي: ليطرحن فيها، وسميت النار حطمة لأنها تحطم ما يلقى فيها.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ٦﴾، لما شغله عن الله حطام الدنيا، جعل حطامًا وجمع إلى حطام النار، وأي نار! نار موقدة؛ والموقدة: شديدة الاشتعال، كثيرة الوقود، عظيمة الحرارة.

﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ٧﴾ ومعلوم أن كل جريمة وقعت سبقتها جريمة فؤادية؛ عزم وإرادة وقصد، ثم تخطيط لها. واطلاعها على الأفئدة إما أن يكون معنى ذلك أنها تصل إلى قلوبهم فتحرقها، أو يكون المعنى: يبلغها ألمها[1].

﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ٩﴾، مطبقة فدخولهم فيها لا خروج منه، قد سُدَّت بعمد طوال، أو أنهم يعذبون في هذه الأعمدة. وإذا علموا أنهم آيسون من الخروج ازداوا ألمًا وحسرةً.

---

(١) زاد المسير (٤/٤٨٩).



بين يدي سورة الفيل

وهي مكية اتفاقًا(١).

أسماؤها:

سورة «﴿أَلَمْ تَرَ﴾»، و«﴿ٱلْفِيلِ﴾»(١).

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«وكَلِمُها ثَلاث وَعِشرُونَ كلمة ككلم المسد والفلق، وحروفها سِتَّة وَتسعُونَ حرفًا، وَهِي خمس آيات فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»(٢).

موضوعاتها:

«التذكير بأن الكعبة حرم الله، وأن الله حماه ممن أرادوا به سوءًا، وأظهر غضبه عليهم فعذبهم؛ لأنهم ظلموا بطمعهم في هدم مسجد إبراهيم وهو عندهم في كتابهم، وذلك ما سماه الله كيدًا. ولم يتكرر في القرآن ذكر إهلاك أصحاب الفيل خلافًا لقصص غيرهم من الأمم لوجهين:

أحدهما: أن إهلاك أصحاب الفيل لم يكن لأجل تكذيب رسول من الله.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٥٤٣).

(٢) البيان في عدِّ آي القرآن، ص(٢٨٩).

وثانيهما: لئلا يتخذ منه المشركون غرورًا بمكانة لهم عند الله»[١].

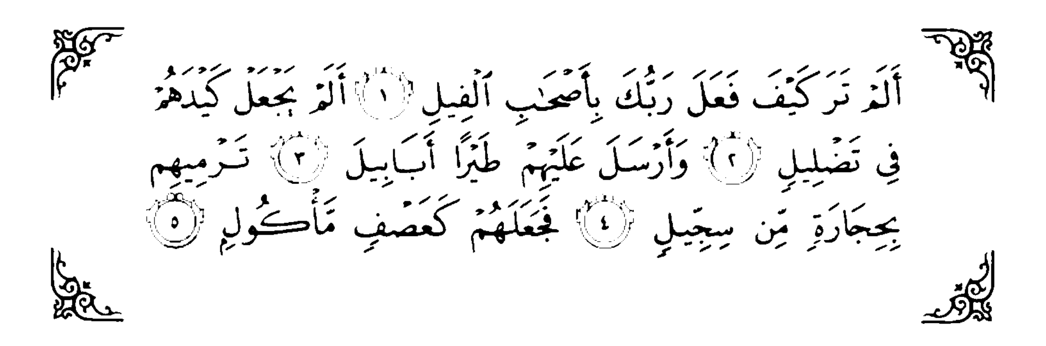
مقصدها:

«تذكرة لقريش بأن فاعل ذلك هو رب ذلك البيت، وأن لا حظ فيه للأصنام التي نصبوها حوله، وتنبيه قريش أو تذكيرهم بما ظهر من كرامة النبي ﷺ عند الله إذ أهلك أصحاب الفيل في عام ولادته. ومن وراء ذلك تثبيت النبي ﷺ بأن الله يدفع عنه كيد المشركين، فإن الذي دفع كيد من يكيد لبيته لأحق بأن يدفع كيد من يكيد لرسوله ﷺ ودينه، ويشعر بهذا قوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾. ومن وراء ذلك كله التذكير بأن الله غالب على أمره، وأن لا تغر المشركين قوتهم ووفرة عددهم، ولا يوهن النبي ﷺ تألب قبائلهم عليه، فقد أهلك الله من هو أشد منهم قوة وأكثر جمعًا»[٢].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٥٤٤)، بتصرف يسير.
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/٥٤٤).

سورة الفيل: تأملات ووقفات



ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل (١) ألم يجعل كيدهم في تضليل (٢) وأرسل عليهم طيرا أبابيل (٣) ترميهم بحجارة من سجيل (٤) فجعلهم كعصف مأكول (٥)

وردت قصة هلاك أبرهة في كثير من الكتب، منها: البداية والنهاية لابن كثير رحمه الله[1]، وحاصلها إهانة العرب لقُلَّيسه الذي بناه، فنقم وأراد الانتقام بترويع الناس وهدم البيت العتيق الذي جعله الله مثابة للناس وأمنًا، فكان من أمره ما قصه الله تعالى في هذه السورة.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾، ألم تعلم بما حلَّ بأبرهة وقومه لما أرادوا هدم الكعبة؟

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾، جعل سعيهم هباء في هواء، لا فائدة فيه، ولا شيء وراءه!

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾، والأبابيل: الجماعات المتتابعات، التي يتبع بعضها بعضًا.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾، والسجيل: الشديد الصلب.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾، أي: صاروا كبقايا الزرع المأكول[2].

---

(١) (٢/١٧٠ ـ ١٧٣).

(٢) ينظر لهذه المعاني: تفسير ابن كثير (٨/٤٨٧).

وهـذا الذي وقـع يـدل على حرمـة البيت الحـرام، وقد قـال عَبـدُ اللهِ بـنُ عُمَرَ ﷺ: رَأَيـتُ رَسُـولَ اللهِ ﷺ يَطُـوفُ بِالكَعبَـةِ، وَيَقُولُ: «مـا أَطيَبَكِ وَأَطيَـبَ رِيحَكِ! ما أَعظَمَـكِ وَأَعظَـمَ حُرمَتَـكِ! والَّذِي نَفـسُ مُحَمَّـدٍ بِيَـدِهِ، لَحُرمَـةُ المُؤمِنِ أَعظَـمُ عِندَ اللهِ حُرمَـةً مِنـكِ؛ مالِهِ، وَدَمِـهِ، وَأَن نَظُـنَّ بِـهِ إِلَّا خَيرًا»[1].

ويدلُّ كما سبق معنا: على قدرة الله على حفظ نبيِّه ﷺ، فالسورة تخاطبه: إنَّ الذي حمى بيته من عدوِّه قادر على أن يمنعك منهم، فحرمة المؤمن أعظم من حرمة الكعبة، فكيف برسول الله ﷺ؟ ولهذا قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾، فالذي أوقع بهم هذا العذاب هو ربك أنت، أفيعقل أن يتخلى عنك وقد أرسلك بدينه؟!

ودلت القصة على أن الله محيط بأعدائه، وأن العاقبة للمتقين.

وتولى ربنا أمر حماية بيته، ولم يعهد بذلك إلى قريش، لئلا تكون لهم يد في ذلك وهم مشركون.

وفيما وقع دليل على أن أصنام قريش لا خير فيها، فقد أحاط بالكعبة ثلاثمئة وستون صنمًا، فماذا فعلت بهذا العدو الذي أراد هدم البيت؟! ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء].

وفيهـا: أن عاقبـة الظلـم وخيمة، والظالـم لا بُدَّ أن تنـاله عقوبة الله. قـال ربنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود]، وقـال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج]. وقـال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج].

---

(١) ابن ماجه (٣٩٣٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٤٢٠).

وهذا الذي وقع كان في العام الذي ولد فيه النبي ﷺ، فهذا من الإرهاصات التي سبقت خروجه ﷺ. قال ابن عباس ﵄: «ولد النبي ﷺ عام الفيل»[١]. وذكر الحافظ ابن عساكر، عن ابن المنذر أنه قال: «لا يشك أحد من علمائنا: أن رسول الله ﷺ ولد عام الفيل، وبعث على رأس أربعين سنة من الفيل»[٢]. وهذا يدل على أن الأمر العظيم ينبغي أن يهيأ له قبل وقوعه.

ولما بلغ أبرهة مكة واستقر بها، قال له بعض جنوده: «أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عين مكة، وهو الذي يُطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال، فأحسن إليه. فأذن له أبرهة، وكان عبد المطلب أوسم الناس، وأعظمهم وأجملهم، فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جانبه، ثم قال لترجمانه قل له: حاجتك؟ فقال له ذلك الترجمان فقال: حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي. فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قل له لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني! أتكلمني في مائتي بعير أصبتُها لك، وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لأهدمه لا تكلمني فيه؟ فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربًّا سيمنعه. فقال: ما كان ليمتنع مني. قال: أنت وذاك. فرد على عبد المطلب إبله»[٣]. ولما خرج منه أمر أهل مكة بأن يصعدوا على الجبال، ثم قام عبد المطلب، فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده[٤]. وينقل أنه قال بفناء البيت:

يا ربِّ إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك

---

(١) البيهقي في دلائل النبوية (١/٧٥ ـ ٦٧)، وهو في السلسلة الصحيحة (٣١٥٢).
(٢) تاريخ دمشق (١/٤٠١).
(٣) البداية والنهاية (٢/٢١٤).
(٤) انظر: البداية والنهاية (٢/٢١٥).

فانظر إلى ثقة هذا في الله وهو مشرك! والموحد أولى بهذه الثقة منهم.

ومما أرشدت السورة إليه: الكلمة الطيبة. فقد قال ابن زيد، في قوله: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ «ورق الزرع وورق البقل، إذا أكلته البهائم فراثته، فصار روثًا»(١). وعلى هذا فالتعبير عنه بالعصف المأكول دليل على عدم ذكر ما يستقذر، بل يكني ولا يذكر القبيح.

وفي القرآن الكريم الأمر بالقول المعروف، والقول السديد، والقول الميسور، والقول الحسن، والقول الكريم، والقول اللين، والقول الطيب.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾ [النساء]، وقال: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه]، ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحج].

وأما القول البليغ الزاجر الرادع المانع المرهب فهو للمنافقين وعتاة المجرمين، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [النساء]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [التوبة].

والسورة دليل على أنه لا يعلم جند الله أحد سواه، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١].

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/٦٤٥).



بين يدي سورة قريش

وهي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

سورة «﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾»، وسورة «﴿قُرَيۡشٍ﴾»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها سبع عشرَة كلمة، وحروفها ثَلَاثَة وَسَبعُونَ حرفًا، وَهِي أَربع آيات فِي الكُوفِي والبصري والشامي وَخمس فِي المَدَنِيين والمكي، اختلافها آيَة: ﴿مِّن جُوعٖ﴾، عدها المدنيان والمكي وَلم يعدها البَاقُونَ»[٢].

ما ورد فيها:

عن أم هانئ ، قالت: قال رسول الله : «**فضل الله قريشًا بسبع خصال: فضلهم بأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبده إلا قرشي، وفضلهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون، وفضلهم بأنه نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيهم غيرهم: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾، وفضلهم بأن فيهم النبوة، والخلافة، والحجابة، والسقاية**»[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٥٥٣).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٩٠).
(٣) البخاري في التاريخ الكبير (١/٣٤١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٤٤).

موضوعاتها:

«أمر قريش بتوحيد الله تعالى، وتذكيرهم بنعمة أن الله مكن لهم السير في الأرض للتجارة برحلتي الشتاء والصيف لا يخشون عاديا يعدو عليهم، وبأنه أمَّنهم من المجاعات، وأمنهم من المخاوف؛ لما وقر في نفوس العرب من حرمتهم لأنهم سكان الحرم وعمار الكعبة»[١].

مقصدها:

التأكيد على أن الإقرار بربوبية الله المنعم المتفضل يقود إلى الإيمان بالله تعالى.

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٥٥٤) بتصرف.

سورة قريش: تأملات ووقفات

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾

«﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١﴾ أي: لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين. وقيل: المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم؛ لعظمتهم عند الناس، لكونهم سكان حرم الله، فمن عَرَفهم احترمهم، وكان من سار معهم أمن بهم، هذا حالهم في أسفارهم ورحلتهم في شتائهم وصيفهم. وأما في حال إقامتهم في البلد، فكما قال الله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ﴾ [العنكبوت:٦٧]»[1]. فالمعنى: من الواجب على أهل مكة أن يخلصوا العبادة لله تعالى لأنه سبحانه هو الذي جمعهم بعد تفرق، وألف بينهم، وهيأ لهم رحلتين فيهما ما فيهما من النفع والأمن.

﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣﴾، أي: فليفردوا ربهم بالعبادة شكرًا على نعمه عليهم. فالمشركون من قريش وغيرهم كانوا يعبدون الله، لكن عبادتهم تلك في حكم اللغو باطلة لِما أُشيبت به من الشرك، وإلّا فالقوم كانوا يدعونه،

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٨/٤٩٢).

قال ربنا: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت]، وقال: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [لقمان]، وكانوا يصومون عاشوراء، ويعتمرون، ويحجون، ويطعمون الطعام، ويصلون الأرحام، وكل هذه عبادات، فليس الشأن أن تعبد الله، وإنما أن تفرده بالعبادة وحده لا شريك له.

وذكَّرهم فيها بربوبيته للبيت الذي يعظمونه؛ لأنه أحق بتعظيمهم له، ومن تعظيمه: أن يفرد بالعبادة.

وامتنان الله عليهم بنعمة اجتماعهم يدل على أن هذه النعمة من أعظم ما يكرم به عباده، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنفال].

والجماعة رحمة، فعن النُّعمانِ بنِ بَشِيرٍ ﷺ، قالَ: قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الجَماعَةُ رَحمَةٌ، والفُرقَةُ عَذابٌ**»[1].

وبها تكون الغلبة والظهور على الأعداء، ﴿ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ولله در القائل:

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرًا وإذا افترقن تكسرت آحادًا

والجماعة سمة بارزة يتميز بها المجتمع الإسلامي، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة].

---

(١) أحمد (١٨٤٤٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (٦٦٧).

ونهت نصوص الشرع عن التفرق، قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الروم]. أي: ولا تكونوا من المشركين وأهل الأهواء والبدع الذين بدّلوا دينهم، وغيّروه، فأخذوا بعضه، وتركوا بعضه؛ تبعًا لأهوائهم، فصاروا فرقًا وأحزابًا، يتشيعون لرؤسائهم وأحزابهم وآرائهم. وقال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران]. وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام]. وقال: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣].

وتأمل! جاء في سنن ابن ماجه أنَّ النبي ﷺ بعث جيشًا من المسلمين إلى المشركين، فحاصر مسلم كافرًا، فقال الكافر: إني مسلم. فطعنه فقتله، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هلكت، قال «**وما الذي صنعت؟**»، فأخبره بالذي صنع، فقال رسول الله ﷺ: «**فهلا شققت عن بطنه فعلمت ما في قلبه؟**».

قال: يا رسول الله لو شققت بطنه لكنت أعلم ما في قلبه.

قال :«**فلا أنت قبلت ما تكلم به، ولا أنت تعلم ما في قلبه**»!

فسكت عنه رسول الله ﷺ، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى مات، قال عمران: فدفناه، فأصبح على ظهر الأرض. فقالوا: لعل عدوًا نبشه! فدفناه. ثم أمرنا غلماننا يحرسونه، فأصبح على ظهر الأرض! فقلنا لعل الغلمان نَعَسُوا! فدفناه ثم حرسناه بأنفسنا فأصبح على ظهر الأرض! فألقيناه في بعض تلك الشعاب فأخبر النبي ﷺ فقال : «**إن الأرض لتقبل من هو شر منه، ولكن الله أحب أن يريكم تعظيم حرمة لا إله إلا الله**»[1].

---

(١) صحيح ابن ماجه (٣٩٣٠).

ومع ذلك كله فقد أذن النبي ﷺ بقتل من أراد أن يفرق جمعنا، لأن حرمة اجتماع المسلمين أعظم من حرمة المسلم.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾، ولم يقل أشبعهم، فالشبع ليس محمودًا، قال النبي ﷺ: «**ما ملأ آدمي وعاءً شرًا من بطن، بِحَسبِ ابنِ آدمَ أُكلاتٌ يُقِمنَ صُلبَهُ، فَإن كانَ لاَ مَحالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**»[1].

قال المباركفوري رحمه الله: «جعل البطن أولًا وعاءً كالأوعية التي تُتخذ ظروفًا لحوائج البيت؛ توهينًا لشأنه، ثم جعله شرَّ الأوعية ... والبطن خُلق لأن يتقوم به الصلب بالطعام، وامتلاؤه يفضي إلى الفساد في الدين والدنيا»[2].

وجعل النبي ﷺ قلة الأكل صفة للمؤمن، قال ابن عمر رضي الله عنهما: سمعت رسول الله يقول: «**المؤمن يأكل في مِعىً واحدٍ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء**»[3].

قال النووي رحمه الله: «قال العلماء: ومقصود الحديث التقليل من الدنيا، والحث على الزهد فيها والقناعة، مع أن قلة الأكل من محاسن أخلاق الرجال، وكثرة الأكل بضدِّه»[4].

وقال القرطبي رحمه الله: «وقد كانت العرب تمتدح بقلة الأكل، وتذم بكثرته»[5].

ثم قال: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾، وقد سبق حديث عن نعمة الأمن وأهميتها في الحديث عن سورة التين، عند قول رب العالمين: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾.

---

(١) الترمذي (٢٣٨٠)، وهو في الصحيحة (٢٢٦٥).
(٢) تحفة الأحوذي (٧/٤٣ ـ ٤٤).
(٣) البخاري (٥٣٩٣)، ومسلم (٢٠٦٠).
(٤) شرح صحيح مسلم (١٤/٢٤ ـ ٢٥).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (٧/١٩٣).

وأعظم أسباب حصول الأمن ما ذكر الله في هذه السورة من الأمر بتوحيده، فإن الله يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام]، وقد بيَّن ربنا أن الإشراك به سبب للابتلاء بالخوف والجوع، قال عز اسمه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ١١٢﴾ [النحل]. قال ابن كثير ﷺ: «﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ أي: أَلبَسَها وَأَذاقَها الجُوعَ بَعدَ أن كانَ يُجبى إِلَيهِم ثَمَراتُ كُلِّ شَيءٍ، وَيَأتِيها رِزقُها رَغَدًا مِن كُلِّ مَكانٍ، وَذَلِكَ لَمّا استَعصَوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَبَوا إلا خِلافَهُ، فَدَعا عَلَيهِم بِسَبعٍ كَسَبعِ يُوسُفَ، فَأَصابَتهُم سَنَةٌ أَذهَبَت كُلَّ شَيءٍ لَهُم، فَأَكَلُوا العِلهِزَ، وَهُوَ: وَبَرُ البَعِيرِ، يُجعَلُ بِدَمِهِ إذا نَحَرُوهُ»(١).

(١) تفسير ابن كثير (٦٠٨/٤).



بين يدي سورة الماعون

وهي مكية في قول أكثر العلماء[١].

أسماؤها:

لها ستة أسماء: «﴿ٱلْمَاعُونَ﴾»، و«﴿أَرَءَيْتَ﴾»، و«﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى﴾»، و«الدين»، و«التكذيب»، و«اليتيم»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها خمس وَعِشرُونَ كلمة ككلم أم القُرآن، وحروفها مئة وَخَمسَة وَعِشرُونَ حرفًا، وَهِي سبع آيات فِي الكُوفِي والبصري وست فِي عدد الباقِينَ، واختلافها آيَة: ﴿يُرَآءُونَ﴾، عدها الكُوفِي والبصري وَلم يعدها الباقُونَ»[٢].

موضوعاتها:

«التعجيب من حال من كذبوا بالبعث، وتفظيع أعمالهم، من الاعتداء على الضعيف واحتقاره، والإمساك عن إطعام المسكين، والإعراض عن قواعد الإسلام من الصلاة والزكاة»[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٥٦٣).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٩١).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/٥٦٤).

مقصدها:

بيان أن التكذيب بيوم البعث يفضي إلى كل عمل سيئ، وخلق مرذول.

سورة الماعون: تأملات ووقفات

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾، الاستفهام للتعجيب، ويوم الدين هو يوم الجزاء والبعث والحساب. والبدء بهذا السؤال مما يلفت الانتباه، وتقدم أنه يستفاد من ذلك أن من أراد التحدث في مهمات الأمور فيحسن به أن يلفت انتباه مستمعيه بمثل هذه الأساليب.

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾، واليتيم: من فقد أباه ولم يبلغ الحلم، وذلك يشار به للبعيد، والبعد هنا معنوي، فهم بعيدون عن سبيل الله، وعن الله تعالى، ولذا أشير إليهم به.

ودلَّت الآيات على أن عدم الإيمان باليوم الآخر يحمل على كل خلق سيئ، ولذلك لما توعَّد الله المطففين قال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤﴾ [المطففين]؟

ويدعُ اليتيم: يقهره[1].

وقد أمر الله تعالى ونبيه ﷺ بالإحسان إلى الأيتام، فقرن الله سبحانه حقه

(١) تفسير ابن كثير (٤٩٣/٨).

بحقهم آمرًا هذه الأُمَّة والأمم السابقة بالإحسان إليهم، قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ [النساء: ٣٦]، وقال: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣].

وندب ربنا إلى مراعاة مشاعر اليتيم؛ لينشأ موفور الكرامة، عزيز النفس، قوي الشخصية، فقال ﷻ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٢٠﴾ [البقرة].

قال ابن سعدي رحمه الله: «لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾ [النساء]، شقَّ ذلك على المسلمين، وعزلوا طعامهم عن طعام اليتامى؛ خوفًا على أنفسهم من تناولها ولو في هذه الحالة التي جرت العادة بالمشاركة فيها، وسألوا النبي ﷺ عن ذلك، فأخبرهم تعالى أن المقصود إصلاح أموال اليتامى، بحفظها وصيانتها، والاتجار فيها، وأن خلطتهم إياهم في طعام أو غيره جائز على وجه لا يضر باليتامى؛ لأنهم إخوانكم، ومن شأن الأخ مخالطة أخيه، والمرجع في ذلك إلى النية والعمل، فمن علم الله من نيته أنه مصلح لليتيم، وليس له طمع في ماله، فلو دخل عليه شيء من غير قصد لم يكن عليه بأس، ومن علم الله من نيته، أنَّ قصدَه بالمخالطة التوصل إلى أكلها وتناولها، فذلك الذي حرج وأثم»[1].

ولا يخفى ما في انعزاله بطعامه من أثر سيئ على نفسه، فلم يجعل الله من حرج بمخالطته، وهذا من الإحسان إليه.

---

(١) تفسير السعدي، ص (٩٩).

وأمر الله تعالى بإعطاء اليتيم من مال الإرث إذا حضر قسمته؛ تطييبًا لخاطره، ومراعاةً لحاجته، فقال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨﴾ [النساء]. أي: أعطوهم ما تيسَّر من هذا المال الذي جاءكم بغير كدٍّ ولا تعبٍ ما لا يضرُّكم وهو نافعُهم.

وأمر الله سبحانه بالنفقة عليهم فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ۝٢١٥﴾ [البقرة]. والسؤال في الآية عن مسألتين: المنفق، والمنفق عليه. أما المنفق فأعلم الله أنَّه يقبله سواء قلَّ أو كثُر. وأما المنفق عليهم فذكر من جملتهم الأيتام، الذين هم من أولى الناس بالإحسان.

وجعل الله تعالى لهم في الفيء والمغنم حقًّا معلومًا فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤١]، وقال: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

وهذا العمل من صفات الأبرار، قال العزيز الغفار: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقد أعلمنا ربنا بمآل الأبرار، فقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾ [المطففين].

والإحسان إلى اليتامى يتحقق به الأمن في يوم الفزع الأكبر، قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الدهر].

وكفالة اليتيم من موجبات دخول الجنة، فعن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**» وأشار بالسبّابة والوسطى وفرَّجَ بينهما[١].

قال النووي ﷺ: «كافلُ اليَتيم: القائِمُ بِأُموره»[٢].

وقال ابن بطال ﷺ: «حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة، ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك»[٣].

وكما أمر ربنا بالإحسان إلى اليتيم، فقد نهى نهيًا شديدًا وزجر زجرًا أكيدًا عن أذيته والإساءة إليه، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾ [الضحى]، وقال هنا في هذه السورة: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾.

وقال نبينا ﷺ: «**إني أُحرِّج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة**»[٤].

وأفضل أنواع الكفالة أن يكون ببيتك، شأنه شأن ولدك، وما تقوم به كثير من الجمعيات العاملة في هذا الميدان عمل مبارك، لكن لا بُدَّ من التنبه إلى أمر، وهو أن هذه المبالغ الزهيدة التي يعلنون أن الكفالة تتحقق بها هي جزء من الكفالة، وسهم فيها، لكنها ليست بكفالة تامة.

---

(١) البخاري (٥٣٠٤)، ومسلم (٢٩٨٣).
(٢) رياض الصالحين، ص(٢٦٢).
(٣) فتح الباري (١٤٢/١٧).
(٤) ابن ماجه (٣٦٧٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠١٥).

ومن التنبيهات التي ينبغي أن يلتفت إليها في هذا: أن الكفالة مادية وتربوية، وهذه الثانية آكد، فعلى الجمعيات المعنية بذلك أن تكثف لهم الأنشطة التربوية، فتقيم لهم مسابقات حفظ القرآن ومعاني كلماته، ونحو ذلك.

ثم قال تعالى في وصف المكذب بالدين: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾، لا يحث نفسه ولا غيره بإطعام المسكين. كما قال ربنا: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ [الفجر]. بل واقعهم قديمًا التزهيد في ذلك: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ [يس]!

ولما ذم الذين لا يبالون باليتيم، ولا يحضون على إطعام المساكين، وهؤلاء فرطوا في حقوق عباد الله تعالى، انتقل لصنف آخر جدير بالذم، ممن فرط في حق الله تعالى فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾، قال ابن كثير رحمه الله: «قَالَ عَطَاءُ بنُ دِينَارٍ رحمه الله: «الحَمدُ لِلهِ الَّذِي قَالَ: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ وَلَم يَقُل: فِي صَلاتِهِم ساهُونَ، والسهو إمّا عَن وَقتِها الأَوّلِ فَيُؤَخِّرونَها إِلَى آخِرِهِ دائِمًا أَو غالِبًا. وَإِمّا عَن أَدائِها بِأَركانِها وَشُرُوطِها عَلَى الوَجهِ المَأمورِ بِهِ. وَإِمّا عَنِ الخُشُوعِ فِيها والتدبُّر لمعانيها، فاللفظ يشمل هذا كله، ولكن مَنِ اتَّصَفَ بِشَيءٍ مِن ذَلِكَ فله قِسطٌ مِن هَذِهِ الآيَةِ. وَمَنِ اتَّصَفَ بِجَمِيعِ ذَلِكَ، فَقَد تَمَّ نَصِيبُهُ مِنها، وَكَمُلَ لَهُ النِّفاقُ العَمَلِيُّ. كَما ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَينِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**تِلكَ صَلاةُ المُنافِقِ، تِلكَ صَلاةُ المُنافِقِ، تِلكَ صَلاةُ المُنافِقِ، يَجلِسُ يَرقُبُ الشَّمسَ، حَتَّى إذا كانَت بَينَ قَرنَيِ الشَّيطانِ قامَ فَنَقَرَ أَربَعًا لا يَذكُرُ اللهُ فِيها إِلّا قَلِيلًا**»»(١).

---

(١) تفسير ابن كثير (٤٩٣/٨)، والحديث المذكور في مسلم (٦٢٢).

ولو قال الله تعالى: الذين هم في صلاتهم ساهون، لما نجا من الوعيد أحدٌ! فمن منّا لا يسهو فيها!

وقد أُمرنا بالمحافظة على هذه الصلوات، قال ربنا: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨﴾ [البقرة]، وهذه الصلاة إن حافظ العبد عليها جعلت بينه وبين الحرام سدًّا منيعًا، ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ۝٤٥﴾ [العنكبوت]. وهذا معيار عظيم للتعرف على كمال صلاتنا، فكلما وقعت في حرام فاستدِل بذلك على تقصيرٍ في الصلاة، فإنها إن أديت على الوجه المطلوب لم تأنس النفس بمعصية أبدًا.

ثم قال تعالى فاضحًا بعض المظاهر التي تجد فيها من يكذب بالدين ويطعم! ومن ينافق ويصلي! فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾، فويل لهم وإن كانوا يصلون رياء! والمرائي لا يبتغي بعمله وجه الله تعالى، ولا حظ له في ثواب الطاعة، وليت الأمر يقتصر على بطلان الثواب! بل يكون رياؤه سببًا لدخوله النار، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إنَّ أَوَّلَ النَاسِ يُقضَى يومَ القِيامَةِ عَلَيهِ رَجُلٌ استُشهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فعرَفَها، قالَ: فَما عَمِلتَ فِيها؟ قالَ: قاتَلتُ فِيكَ حَتَّى استُشهِدتُ، قالَ: كَذَبتَ، وَلَكِنَّكَ قاتَلتَ لِأَن يُقالَ: جَرِيءٌ، فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجهِهِ حَتَّى أُلقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ القُرآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فعرَفَها، قالَ: فَما عَمِلتَ فِيها؟ قالَ: تَعَلَّمتُ العِلمَ، وَعَلَّمتُهُ وَقَرَأتُ فِيكَ القُرآنَ، قالَ: كَذَبتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمتَ العِلمَ لِيُقالَ: عالِمٌ، وَقَرَأتَ القُرآنَ لِيُقالَ: هُوَ قارِئٌ، فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجهِهِ حَتَّى أُلقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيهِ، وَأَعطاهُ مِن أَصنافِ المالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فعرَفَها، قالَ: فَما

عَمِلتَ فِيها؟ قالَ: ما تَركتُ مِن سَبِيلٍ تُحِبُّ أَن يُنفَقَ فِيها إِلّا أَنفَقتُ فِيها لَكَ، قالَ: كَذَبتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلتَ لِيُقالَ: هُوَ جَوادٌ، فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجهِهِ، ثُمَّ أُلقِيَ فِي النّارِ»[(١)].

وقوله: ﴿ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ﴾، إظهار لقبيح حالهم، فلاهم «أَحسَنُوا عِبادَةَ رَبِّهِم، وَلا أَحسَنُوا إِلَى خَلقِهِ حَتَّى وَلا بِإِعارَةِ ما يُنتَفَعُ بِهِ وَيُستَعانُ بِهِ، مَعَ بَقاءِ عَينِهِ وَرُجُوعِهِ إِلَيهِم. فَهَؤُلاءِ لِمَنعِ الزَّكاةِ وَأَنواعِ القُربات أُولَى وَأُولَى»[(٢)].

نسأل الله العافية والسلامة والهداية إلى الاستقامة.

---

(١) مسلم (١٩٠٥).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٤٩٥).

سُورَةُ الكَوْثَرِ

بين يدي سورة الكوثر

وهي مكية في قول الجمهور[١]. واستدل من قال بأنها مدنية بهذا الحديث: عَن أَنَسٍ ﵁، قالَ: بَينا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يومٍ بَينَ أَظهُرِنا إذ أَغفَى إغفاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَقُلنا: ما أَضحَكَكَ يا رَسُولَ اللهِ؟ قالَ: «**أُنزِلَت عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ**» فَقَرَأَ: بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾، ثُمَّ قالَ: «**أَتَدرُونَ ما الكَوثَرُ؟**» فَقُلنا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قالَ: «**فَإِنَّهُ نَهرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي ﷻ، عَلَيهِ خَيرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوضٌ تَرِدُ عَلَيهِ أُمَّتِي يَومَ القِيامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُختَلَجُ العَبدُ مِنهُم، فَأَقُولُ: رَبِّ، إِنَّهُ مِن أُمَّتِي فَيَقُولُ: ما تَدرِي ما أَحدَثَت بَعدَكَ**»[٢].

وهى أقصر سورة في القرآن.

أسماؤها:

لها ثلاثة أسماء: «﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾»، و«﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾»، و«النحر»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها عشر كَلِمات، وحروفها اثنان وَأَربَعُونَ حرفًا، وَهِي ثَلَاث آيات فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٥٧١).
(٢) مسلم (٤٠٠).
(٣) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٩٢).

موضوعاتها:

«اشتملت على بشارة النبي ﷺ بأنه أُعطي الخير الكثير في الدنيا والآخرة. وأمره بأن يشكر الله على ذلك بالإقبال على العبادة. وأن ذلك هو الكمال الحق لا ما يتطاول به المشركون على المسلمين بالثروة والنعمة وهم مغضوب عليهم من الله تعالى»[١].

مقصدها:

تطمين النبي ﷺ بخيبة سعي مبغضيه وانقطاع ذكرهم، وما يقتضيه ذلك من واجب الشكر.

---

(١) التحرير والتنوير (٥٧٢١/٣٠).

سورة الكوثر: تأملات ووقفات




﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾



﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾، فسره النبي ﷺ، حيث قال: «**إِنَّهُ نَهرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي ﷻ، عَلَيهِ خَيرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوضٌ تَرِدُ عَلَيهِ أُمَّتِي يَومَ القِيامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُختَلَجُ العَبدُ مِنهُم، فَأَقُولُ: رَبِّ، إِنَّهُ مِن أُمَّتِي فَيَقُولُ: ما تَدرِي ما أَحدَثَت بَعدَكَ**»[1].

وقال أَنَسُ بنُ مالِكٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «**بَينَما أَنا أَسِيرُ فِي الجَنَّةِ، إِذا أَنا بِنَهَرٍ، حافَتاهُ قِبابُ الدُّرِّ المُجَوَّفِ، قُلتُ: ما هَذا يا جِبرِيلُ؟ قالَ: هَذا الكَوثَرُ، الَّذِي أَعطاكَ رَبُّكَ**»[2]، وللمفسرين أقوال أخرى كثير منها يعود إلى هذا المعنى.

والعطية من الله تعالى لنبينا ﷺ خير خلقه لا بُدَّ أن تكون شيئًا يليق بالله الواسع الكريم، وبالمكرم الذي هو خير عباده الله أجمعين.

ومن صفات نهر الكوثر الذي في الجنة:

ما رواه البخاري في صحيحه عن أنس ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**بينا أنا أسير في الجنة، إذا أنا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك. قال: فضرب الملك بيده، فإذا طينه أو طيبه مسك أذفر**»، وقد سبق تخريجه قبل قليل.

---

(١) مسلم (٤٠٠).
(٢) البخاري (٦٥٨١).

وعن أنس ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**أُعطيتُ الكوثر، فإذا هو نهر يجري على ظهر الأرض، حافتاه قباب اللؤلؤ، ليس مسقوفًا، فضربت بيدي إلى تربته، فإذا تربته مسك أذفر، وحصباؤه اللؤلؤ**»(١).

وثبت عن ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**الكوثر نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت**»(٢).

وسئل النَّبِي ﷺ عَن الكَوثَرِ فقالَ: «**ذاك نهر أعطانيه الله -يعني في الجنة- أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طير أعناقها كأعناق الجزر**». أي: الإبل. فقال عمر ﷺ: **إنَّ تِلكَ لَطَيرٌ ناعِمَةٌ!** فقال رسول الله ﷺ: «**أَكَلَتُها أَنعَمُ مِنها يا عُمَر**»(٣).

والكوثر يصب منه ميزابان في الحوض المورود، والحوض هو: مجمع الماء، ففي الحديث: «**الحوض يشخب فيه ميزابان من الجنة**»(٤). ويشخب: يصب. قال ابن حجر ﷺ: «وظاهر الحديث أن الحوض بجانب الجنة لينصب فيه الماء من النهر الذي داخلها»(٥).

ولكلِّ نبي حوض، والدليل: قول رَسُول اللهِ ﷺ: «**إِنَّ لكل نَبِيٍّ حَوضًا، وَإِنَّهم يَتَباهَونَ أَيُّهم أَكثَرُ وارِدَةً، وَإِنِّي أَرجُو أَن أَكُونَ أَكثَرَهُم**»(٦).

ومن صفات حوض الكوثر:

ما جاء عن عبد الله بن عمرو ﷺ أنه قال: قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**حَوضِي مَسِيرَةُ شَهرٍ، وَزَواياهُ سَواءٌ، ماؤُهُ أَبيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطيَبُ مِنَ المِسكِ، وَكِيزانُهُ كَنُجُومِ السَّماءِ،**

---

(١) أحمد (١٢٠٨٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٥١٣).
(٢) الترمذي (٣٢٨٤)، وصححه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي (١٣٥/٣).
(٣) أحمد (١٢٨٢٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٧٤٠).
(٤) مسلم (٤٢٥٥).
(٥) فتح الباري (٤٦٦/١١).
(٦) الترمذي (٢٣٦٧)، وهو في السلسلة الصحيحة (١٥٨٩).

مَن شَرِبَ مِنها فَلا يَظمَأُ أَبدًا»(١).

وعن أَنَس ﷺ، قالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: «تُرَى فِيهِ أَبارِيقُ الذَّهَبِ والفِضَّةِ كَعَدَدِ نُجُومِ السماء»، وفي رواية: «أَكثَرُ مِن عَدَدِ نُجُومِ السَّماءِ»(٢).

وعَن ثوبان ﷺ، أن النبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَن شَرابِهِ؛ فَقالَ: «أَشَدُّ بَياضًا مِن اللَّبَنِ، وَأَحلَى مِن العَسَلِ، يَغُتُّ فِيهِ مِيزابانِ، يَمُدّانِهِ مِن الجَنَّةِ، أَحَدُهُما مِن ذَهَبٍ، والآخَرُ مِن وَرِق»(٣). ويغتُّ: يصبُّ، الوَرِق الفِضَّة.

وفي عرصات القيامة من يُدفعُ عن الحوض ولا يمكَّن منه، فمن هم؟

عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَى المَقبُرَةَ فَقالَ: «السَّلامُ عَلَيكُم دارَ قَومٍ مُؤمِنِينَ، وَإِنّا إِن شاءَ اللهُ بِكُم لاحِقُونَ، وَدِدتُ أَنّا قَد رَأَينا إِخوانَنا». قالُوا: أَوَلَسنا إِخوانَكَ يا رَسُولَ اللهِ؟ قال: «أَنتُم أَصحابِي وَإِخوانُنا الَّذِينَ لَم يَأتُوا بَعدُ». فَقالُوا: كَيفَ تَعرِفُ مَن لَم يَأتِ بَعدُ مِن أُمَّتِكَ يا رَسُولَ اللهِ؟ فَقالَ: «أَرَأَيتَ لَو أَنَّ رَجُلا لَهُ خَيلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ، بَينَ ظَهرَي خَيلٍ دُهمٍ بُهمٍ، أَلا يَعرِفُ خَيلَهُ؟»، قالُوا: بَلَى يا رَسُولَ اللهِ. قالَ: «فَإِنَّهُم يَأتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِن الوُضُوءِ، وَأَنا فَرَطُهُم عَلَى الحَوضِ، أَلا لَيُذادَنَّ رِجالٌ عَن حَوضِي كَما يُذادُ البَعِيرُ الضّالُّ، أُنادِيهِم: أَلا هَلُمَّ! فَيُقالُ: إِنَّهُم قَد بَدَّلُوا بَعدَكَ، فَأَقُولُ سُحقًا سُحقًا»(٤).

والغرَّة: بياض في وجه الفرس، والتحجيل: بياض في قوائمه، والدهم البهم: سوداء، وسواده خالص لا يخالطه غيره.

قال القرطبي ﷺ: «قال علماؤنا رحمهم الله أجمعين: فكل من ارتدَّ عن دين الله، أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله ولم يأذن به، فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين عنه،

---

(١) البخاري (٦٠٩٣) ومسلم (٤٢٤٤).
(٢) مسلم (٤٢٦١).
(٣) مسلم (٤٢٥٦).
(٤) مسلم (٣٦٧).

وأشدهم طردًا من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وتطميس الحق وقتل أهله وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع»[١].

ثم قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾، أي: اشكر ربك بالعمل الصالح، وفي هذه إجابة لمن ينعم الله عليه بنعم كثيرة، فيمتلئ قلبه رضىً عن الله، ويقفز سؤال إلى ذهنه: كيف أشكر ربي؟ فيقال له: بالعمل الصالح، ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ].

والصحيح: أن الصلاة هنا عامة، لا يراد بها صلاة بعينها، والنحر كذلك، فيشمل النحر في العيد وغيره؛ إذ لا دليل على التخصيص.

وقد تضمنت الآيات أن أعظم ما يشكر به العبد ربه من جنس العبادات البدنية الصلاة، ومن جنس العبادات المالية النحر والإطعام.

ومما دلت عليه السورة أيضًا: إخلاص العمل لله، فتقديم الجار والمجرور وتوسيطه بين الأمرين مفيد للحصر، ولهذا قال العلماء: المعنى: «أَخلِص لَهُ صَلاتَكَ وَذَبِيحَتَكَ؛ فَإِنَّ المُشرِكِينَ كانُوا يَعبُدُونَ الأَصنامَ وَيَذبَحُونَ لَهَا»[٢]. كما قال ربنا: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾ [الأنعام].

وأخذ العلماء من هذه أن النحر يوم الأضحى ـ وهو أحد أفراد النحر الداخلة في عموم الأمر به هنا ـ يكون بعد الصلاة، وقد قدم الصلاة على النحر وهذا مما دلت السنة عليه، فعن البَراءِ بنِ عازِبٍ ﷺ، قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ

(١) التذكرة، ص(٣٠٦).
(٢) تفسير ابن كثير (٣٨١/٣).

ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ ما نَبدَأُ بِهِ فِي يَومِنا هَذا نُصَلِّي، ثُمَّ نَرجِعُ فَنَنحَرُ، فَمَن فَعَلَ ذَلِكَ، فَقَد أَصابَ سُنَّتَنا، وَمَن ذَبَحَ، فَإِنَّما هُوَ لَحمٌ قَدَّمَهُ لِأَهلِهِ لَيسَ مِنَ النُّسُكِ فِي شَيءٍ»[١].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾، قال ابن كثير رحمه الله: «إِنَّ مُبغِضَكَ - يا مُحَمَّدُ - وَمُبغِضَ ما جِئتَ بِهِ مِنَ الهُدَى والحَقِّ والبُرهانِ السَّاطِعِ والنُّورِ المُبِينِ، هُوَ الأَبتَرُ الأَقَلُّ الأَذَلُّ المُنقَطِعُ ذِكرُه»[٢]. وهذه فيها تسلية وعزاء للنبي ﷺ، فقد أُظهر شنآنه وتكلم بسبِّه أقوامٌ. وهنا أنبه إلى أن سب النبي ﷺ، يشمل كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية: «الكلام الذي يقصد به الانتقاص والاستخفاف، وهو ما يفهم منه السب في عقول الناس على اختلاف اعتقاداتهم؛ كاللعن، والتقبيح، ونحوه»[٣]. وسب النبي ﷺ كفر مخرج من الملَّة بالإجماع، يجب قتل مقارفه[٤].

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة فيها سلوان لنبينا ﷺ بشأن ما وجِّه إليه من سب وإساءة، فمن ذلك:

قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝١١٢﴾ [الأنعام]. أي: وكما ابتليناك أيُّها الرسول بأعدائك من المشركين ابتلينا جميع الأنبياء عليهم السلام بأعداء

---

(١) البخاري (٩٦٥)، ومسلم (١٩٦١).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٥٠٤).
(٣) الصارم المسلول، ص (٥٦٣).
(٤) انظر الأوسط لابن المنذر (٢/٦٨٢)، والإجماع له ص (١٥٣)، والشفا للقاضي عياض (٢/٢١٥)، والمجموع للنووي (١٩/٤٢٧)، والصارم المسلول ص (٣)، وفتاوى السبكي (٢/٥٧٣)، وغيرها.

مِن مردة قومهم وأعداء من مردة الجن، يُلقي بعضهم إلى بعض القول الذي زيَّنوه بالباطل؛ ليغترَّ به سامعه، فيضل عن سبيل الله، ولو أراد ربك ﷻ لحال بينهم وبين تلك العداوة، ولكنه الابتلاء من الله، فدعهم وما يختلقون مِن كذب وزور.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان].

قال ابن كثير رحمه الله: «﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾، أي: لمن اتبع رسوله، وآمن بكتابه، وصدقه، واتبعه، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة»(١).

وقال له: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فصلت].

قال السعدي رحمه الله: «﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر] بك وبما جئت به، وهذا وعد من الله لرسوله، أن لا يضره المستهزئون، وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة، وقد فعل تعالى؛ فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله ﷺ جاء به إلا أهلكه الله وقتله شر قتلة»(٢). وقوله في هذه السورة: ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، بأسلوب القصر متضمن معنى كفايته، فسابُّه ﷺ أو شانئه مجازًى في الدنيا من الله أو بأيدي عباد الله، كما حصل من الجيل الأول انتصارًا لرسول الله ﷺ.

فما كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يتهاونون مع من سب النبي ﷺ وأساء إليه، فلقد كان ﷺ أحبَّ إلى أحدهم من كلِّ شيء.

فهذا خُبيب بن عدي الأنصاري رضي الله عنه، لما بعثه النبي ﷺ ومعه اثنان من أصحابه عيونًا بمكة واعترضتهم بنو لحيان من هذيل كان من أمر خبيب

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٣١٨).
(٢) تفسير السعدي، ص (٩٥).

أنـه قـال بعـد أن أخرجـوه لقتلـه: «اللّٰهُمَّ إني لا أجـد رسـولًا إلى رسـولك فبلغه مني السـلام»، فـنزل جبريـل يحمـل سـلامه إلى الرسـول ﷺ، ثـم صلبـوه، فقـال: «اللّٰهُمَّ أحصهـم عـددًا، واقتلهـم بـددًا، ولا تُبـق منهـم أحـدًا». فقالـوا له ـ وهـو مصلـوب نـادوه وناشـدوه ـ: أتحبُ أنَّ محمـدًا مكانـك؟ فقـال: «لا والله العظيـم مـا أحبُّ أن يَفدِيَـني بشـوكة يُشـاكها في قدمـه»[١]. أي حـب هـذا لرسـول الله ﷺ؟!

وهذا عبد الرحمن بن عوف ﷺ يقول: «بَينا أَنا واقِفٌ فِي الصَّفِّ يَومَ بَدرٍ نَظَرتُ عَن يَمِينِي وَشِمالِي فَإذا أَنا بَينَ غُلامَينِ مِن الأَنصارِ حَدِيثَةٍ أَسنانُهُما، تَمَنَّيتُ لَو كُنتُ بَينَ أَضلَعَ مِنهُما، فَغَمَزَنِي أَحدُهُما فَقالَ: يا عَمِّ هَل تَعرِفُ أَبا جَهلٍ؟ قُلتُ: نَعَم، وَما حاجَتُكَ إِلَيهِ يا ابنَ أَخِي؟ قالَ: أُخبِرتُ[٢] أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ الله ﷺ، والَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَئِن رَأَيتُهُ لا يُفارِقُ سَوادِي سَوادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الأَعجَلُ مِنّا. قالَ: فَتَعَجَّبتُ لِذَلِكَ، فَغَمَزَنِي الآخَرُ فَقالَ مِثلَها قالَ، فَلَم أَنشَب أَن نَظَرتُ إِلَى أَبِي جَهلٍ يَزُولُ فِي النّاسِ فَقُلتُ: أَلا تَريانِ؟ هَذا صاحِبُكُما الَّذِي تَسأَلانِ عَنهُ، قالَ: فابتَدَراهُ فَضَرَباهُ بِسَيفَيهِما حَتَّى قَتَلاهُ، ثُمَّ انصَرَفا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَخبَراهُ، فَقالَ: «**أَيُّكُما قَتَلَهُ؟**»، فَقالَ كُلُّ واحِدٍ مِنهُما: أَنا قَتَلتُ، فَقالَ: «**هَل مَسَحتُما سَيفَيكُما؟**»، قالا: لا، فَنَظَرَ فِي السَّيفَينِ فَقالَ: «**كِلاكُما قَتَلَهُ**»، وَقَضَى بِسَلَبِهِ لِمُعاذِ بنِ عَمرِو بنِ الجَمُوحِ، والرَّجُلانِ مُعاذُ بنُ عَمرِو بنِ الجَمُوحِ، وَمُعاذُ بنُ عَفراءَ»[٣].

وعَن عَلِيٍّ ﷺ: «أَنَّ يَهُودِيَّةً كانَت تَشتُمُ النَّبِيَّ ﷺ وَتَقَعُ فِيهِ، فَخَنَقَها رَجُلٌ حَتَّى ماتَت، فَأَبطَلَ رَسُولُ الله ﷺ دَمَها». وفي رواية: أَنَّ رَجُلًا أَعمَى كانَت لَهُ أُمُّ وَلَدٍ تَشتُمُ النَّبِيَّ ﷺ، وَتَقَعُ فِيهِ، فَينهاها فَلا تَنتَهِي، وَيَزجُرُها فَلا تَنزَجِرُ، فَلَمّا كانَت ذاتَ لَيلَةٍ

---

(١) الطبراني في الكبير (٥٢٨٤).

(٢) أخبرت، لم يسمع بنفسه! فكيف لو سمع الإساءة إليه بنفسه؟

(٣) البخاري (٣١٤١)، ومسلم (١٧٥٢).

جَعلَت تَقَعُ فِي النَّبِيِّ ﷺ وَتَشتُمُه، فَأَخذَ المِغوَلَ[١] فَوَضَعَهُ فِي بَطنِها واتَّكَأَ عَلَيها فَقَتَلَها. فَلَمَّا أَصبَحَ ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ فَجَمَعَ النَّاسَ فَقالَ: «**أَنشُدُ الله رَجُلًا فَعَلَ ما فَعَلَ لِي عَلَيهِ حَقٌّ إِلَّا قامَ**». فَقامَ الأَعمَى فَقالَ: يا رَسُولَ الله أَنا صاحِبُها، كانَت تَشتُمُكَ وَتَقَعُ فِيكَ فَأَنهاها فَلا تَنتَهِي، وَأَزجُرُها فَلا تَنزَجِرُ، وَلِي مِنها ابنانِ مِثلُ اللُّؤلُؤَتَينِ، وَكانَت بِي رَفِيقَةً، فَلَمَّا كانَ البارِحَةَ جَعلَت تَشتُمُكَ وَتَقَعُ فِيكَ، فَأَخَذتُ المِغوَلَ فَوَضَعتُهُ فِي بَطنِها واتَّكَأتُ عَلَيها حَتَّى قَتَلتُها. فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلا اشهَدُوا أَنَّ دَمَها هَدَرٌ**»[٢]. فمن سبه قُتل ولو تاب.

فإن قيل: إن النبي ﷺ عفا عن عكرمة، وابن أبي السرح، وابن عمه، وابن عمته، ألا يدل هذا على أن العفو أفضل إذا تاب الساب من بعد سبِّه وأنه لا يقتل؟

فالجواب: للنبي ﷺ أن يسقط حقه، وأن يعفو عمن شاء، لكن من يملك بعد نبي ﷺ أن يتجاوز عن حقه نيابة عنه؟ لو كان هذا في آحاد الناس ما ساغ! فالنبي ﷺ يعفو عمن شاء، ولكن ليس لأحد أن يعفو بعد رسول الله ﷺ عن حق رسول الله ﷺ.

فإن قيل: أليست التوبة تهدم ما قبلها؟

فالجواب: بلى، ومن سبَّ النبيَّ ﷺ تنفعه توبته ديانةً، ولا تنفعه قضاءً، كتوبة القاتل، تنفعه عند الله ويقتص منه في الدنيا لحق المقتول وأوليائه، فحق رسول الله ﷺ أولى بالرعاية وأجدر.

وسبُّ النبي ﷺ يتعلق به حقان، حق لله، وحق له، وحق الله يسقط بالتوبة، وأما حق النبي ﷺ فإنه يحتم علينا قتل الساب.

---

(١) سيف قصير.

(٢) أبو داود (٤٣٦٢)، وهو في الإرواء (١٢٥٠)، قال الألباني: «وإسناده صحيح على شرط مسلم»، وانظر صحيح وضعيف سنن النسائي له (٤٠٧٠).

سُورَةُ الكَافِرُونَ

بين يدي سورة الكافرون

وهي مكية اتفاقًا[1].

أسماؤها:

«سورة ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾»، و﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، وتسمى هي وسورة ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، بالمقشقشتين؛ لأنهما تقشقشان من الشرك، أي تبرئان منه. وتسمى أيضًا «سورة الإخلاص»، فيكون هذا الاسم مشتركًا بينها وبين سورة ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وقد ذكر في سورة براءة أن سورة براءة تسمى بالمقشقشة لأنها تقشقش، أي تبرئ من النفاق، فيكون هذا مشتركًا بين السور الثلاث فيحتاج إلى التمييز. وتسمى بـ «سورة العبادة»، و«سورة الدين»[1].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها سِتٌّ وَعِشرُونَ كلمة، وحروفها أَربَعَة وَتسعُونَ حرفًا، وَهِي سِتُّ آيات فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[2].

---

(١) التحرير والتنوير (٥٧٩/٣٠).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٩٣).

فضلها وما ورد فيها:

عن ابن عمر ﭬ، قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، **تعدل ربع القرآن**»[1].

وعَن فَروَةَ بنِ نوفَلٍ، عَن أَبيهِ ﭬ، أَنَّ النَّبيَّ ﷺ، قالَ له: «**اقرأ** ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ **ثُمَّ نَم، عَلَى خاتِمَتِها، فَإِنَّها بَراءَةٌ مِنَ الشِّركِ**»[2].

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ ﭬ، «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ فِي رَكعَتَي الفَجرِ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، وَ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»[3]. وقال ﷺ: «**نعمت السورتان يقرأ بهما في ركعتين قبل الفجر:** ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾»[4].

وعَن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ ﭬ، أَنَّهُ قالَ: «ما أُحصِي ما سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقرَأُ فِي الرَّكعَتَينِ بَعدَ المَغرِبِ وَفِي الرَّكعَتَينِ قَبلَ صَلاَةِ الفَجرِ بِـ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، وَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»[5].

وفي صحيح مسلم، أَنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا فرغ من طوافه بالبيت «يَقرَأُ فِي الرَّكعَتَينِ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، وَ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»[6].

وعَن عَبدِ العَزِيزِ بنِ جُرَيجٍ، قالَ: سَأَلنا عائِشَةَ ﭫ، بِأَيِّ شَيءٍ كانَ يُوتِرُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قالَت: «كانَ يَقرَأُ فِي الأُولَى: بِـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وَفِي الثانِيَةِ بِـ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، وَفِي الثالِثَةِ بِـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمُعَوِّذَتَينِ»[7].

---

(١) الحاكم في المستدرك (٢٠٧٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٨٦).
(٢) أبو داود (٥٠٥٥)، وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٧٨٦).
(٣) مسلم (٧٢٦).
(٤) ابن خزيمة في صحيحه (١٢١/١)، وهو في السلسلة الصحيحة للألباني (٦٤٦).
(٥) الترمذي (٤٣١)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٨٥١).
(٦) مسلم (١٢١٨). وقد نبَّه الحُفاظ إلى أن هذه اللفظة مدرجة في حديث جابر ﭬ من رواية جعفر بن محمد عن أبيه. يُنظَر: الفصل للوصل المدرج للخطيب البغدادي (٦٧١/٢).
(٧) الترمذي (٤٦٣)، وصححه الألباني في المشكاة (١٢٦٩).

وعَـن أَبِي أُمامَـةَ ﷺ: «أَنَّ النَّـبِيَّ ﷺ كانَ يُصَلِّيهِمـا بَعْـدَ الوِتـرِ وَهُوَ جالِـسٌ يَقرَأُ فِيهِمـا: إِذا زُلزِلَـتِ الأَ رضُ، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾»[1]. أي: يصـلي الركعتـين.

وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: لدغتِ النبيَّ ﷺ عقربٌ وهو يصلي، فلما فرغ قال: «**لعن الله العقرب؛ لا تدعُ مُصليًا ولا غيرَه**». ثم دعا بماء وملح، وجعل يمسح عليها ويقرأ بـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[2]».

وإنمـا يجمع بين سـورتي الإخلاص كثيرًا لأنهما اشـتملتا على توحيـد ربنا، فـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مشـتملة على التوحيـد العلمي، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مشـتملة على التوحيد العملي.

موضوعها:

البراءة من الشرك وأهله، وهي أدخل في التوحيد العملي، وسورة الإخلاص أخص بالتوحيد العلمي.

مقصدها:

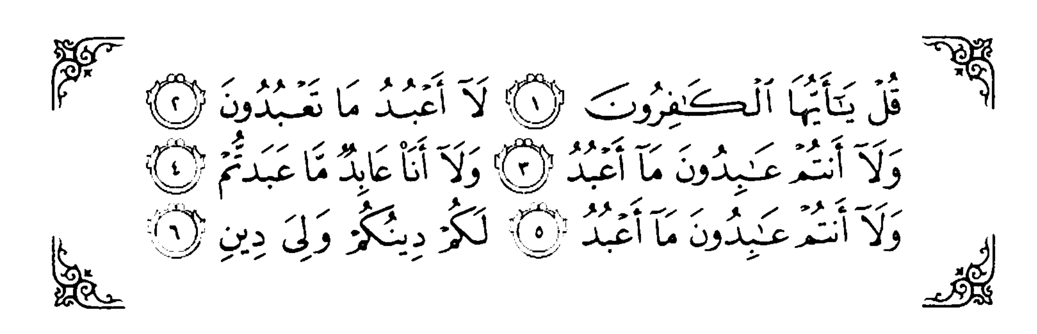
تيئيس الكفار من أن يوافقهم النبي ﷺ في شيء من دينهم، وبيان أنه لا سبيل إلى ذلك بوجه ألبتة.

---

(١) أحمد (٢٢٢٤٦)، وحسنه الألباني في أصل صفة الصلاة (٢/٥٤٤).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير، ص(١١٧)، وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٥٤٨).

سورة الكافرون: تأملات ووقفات



﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، الآمر هو الله تعالى، والمأمور هو النبي ﷺ، فلا معنى بعد ذلك لسفاهة من يزعم أن إطلاق اسم الكافر على الكافر يجب أن يتجنب ويحاذر تلطفًا ورفقًا، وبدلًا من ذلك يُعبر عنه بالآخر ونحوه من الألفاظ التي لا تميزه عن المسلم، وهذا ضرب من الضعف أو الهزيمة النفسية.

ومن أسباب وصفهم بالكفر لا بالجهل: أن المقصود هو البراءة من الكفر وهو دينهم، وبيان حكمهم وهو شنيع مستبشع عند المؤمن، والمسلم إذا استبشع هذا الوصف تحاشاه وتركه.

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾، لا أعبد ما تعبدون من دون الله، من الآلهة.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾، وأنتم لا تفعلون ذلك، لأن عبادتكم لله لاغية لا عبرة بها مع شركهم.

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾، أي: لا أفعله مستقبلًا. وهذا أفضل من أن يقال: التكرار للتأكيد؛ فحمل الكلام على التأسيس أولى من حمله على التأكيد، وفيه تيئيس من المساومة في المستقبل.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥﴾، وهذا تأكيد للأول تحقيقًا لكون ما يتقربون به إلى الله حال شركهم لم ينفعهم ولا ينفعهم، وقيل هو تأسيس لنفي إيمانهم في المستقبل، فإن من نزلت في شأنهم ماتوا على الإشراك بالله، ولم يؤمنوا، وتحقق فيهم وعد الله، والأول أقرب، ويقربه ما علم من إسلام بعضهم.

﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾، تأكيد للمفاصلة، وأنه لا التقاء بيننا وبينكم أبدًا.

وهذا يدل على أنه لا دين حق سوى دين الإسلام. فمن الخطأ أن يقال: الاعتراف بالأديان؛ يعنون شرعيتها، أو احترام الأديان، فإن كل دين سوى دين الإسلام باطل، فكيف تجعل للباطل حرمة! قال ربنا: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران ١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عمران]. ولا بد أن نفرق بين الاحترام الذي هو أن تجعل لدينهم الباطل حرمة، فلا يُنتقد ولا يُبيَّن ما فيه من الخلل ويعلن ما فيه من الباطل، وبين عدم الاعتداء أو السب إذا ترتبت عليه مفسدة أكبر، قال ربنا: ﴿تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الأنعام ١٠٨]، وترك السب المجرد لا يعني الاحترام.

فالواجب مع الباطل أن يبطل ويحذر منه، وتتفرع عن هذه الفائدة فائدة أخرى: وهي أنه لا يجوز أن نهنئهم بشيء من شعائر دينهم. قال ابن القيم رحمه الله: «وَأَمَّا التَّهنِئَةُ بِشَعائِرِ الكُفرِ المُختَصَّةِ بِهِ فَحَرامٌ بِالِاتِّفاقِ مِثلَ أَن يُهَنِّئَهُم بِأَعيادِهِم وَصَومِهِم، فَيَقُولَ: عِيدٌ مُبارَكٌ عَلَيكَ، أَو تَهنأُ بِهَذا العِيدِ، وَنَحوَهُ، فَهَذا إِن سَلِمَ قائِلُهُ مِنَ الكُفرِ فَهُوَ مِنَ المُحَرَّماتِ، وَهُوَ بِمَنزِلَةِ أَن يُهَنِّئَهُ بِسُجُودِهِ لِلصَّلِيبِ، بَل ذَلِكَ أَعظَمُ إِثمًا عِندَ اللهِ وَأَشَدُّ مَقتًا مِنَ التَّهنِئَةِ بِشُربِ الخَمرِ وَقَتلِ النَّفسِ وارتِكابِ الفَرجِ الحَرامِ وَنَحوِهِ. وَكَثِيرٌ مِمَّن لا قَدرَ لِلدِّينِ عِندَهُ يَقَعُ فِي ذَلِكَ، وَلا يَدرِي قُبحَ ما فَعَلَ، فَمَن هَنَّأَ عَبدًا بِمَعصِيَةٍ أَو بِدعَةٍ أَو كُفرٍ فَقَد تَعَرَّضَ لِمَقتِ اللهِ وَسَخَطِه»[١].

---

(١) أحكام أهل الذمة (٤٤١/١).

وأعظم ما يستفاد من هذه السورة المباركة: تقرير عقيدة البراء من المشركين، ومما يُبيِّن أهميتها:

(١) أنَّ الإيمان لا يتحقق إلا بها:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١) ﴾ [المائدة: ٨١].

والحديث عن اليهود الذين اتخذوا المشركين أولياء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وهذه جملة شرطية إذا وُجِد الشرط وُجِد المشروط... ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء، فمن اتخذهم أولياء ما فعل الإيمان الواجب»[1].

(٢) تحقيقها أوثق عُرى الإيمان[2]:

سأل النبيُّ ﷺ أبا ذر رضي الله عنه: «**أتدري أيُّ عُرى الإيمان أوثق؟**»، قال: الله ورسوله أعلم. قال: «**الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله عز وجل**»[3].

(٣) يجد المسلم إذا حققها حلاوة الإيمان:

فعَن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رضي الله عنه، عَن النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «**ثَلاثٌ مَن كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمانِ: أَن يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيهِ مِمّا سِواهُما، وَأَن يُحِبَّ المَرءَ لا يُحِبُّهُ إِلّا لِلّهِ وَأَن يَكرَهَ أَن يَعُودَ فِي الكُفرِ كَما يَكرَهُ أَن يُقذَفَ فِي النّارِ**»[4].

فالحب والبغض من المعاني التي تجري على كل أحد، لكنَّ الموفَّق من أخضعها للشَّرع؛ فلا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، وما يُلقّاها إلا ذو حظٍّ عظيم.

---

(١) كتاب الإيمان، ص (١٤).

(٢) أكثرها وثاقة، أي: قوة وثباتًا.

(٣) الطبراني (٣/١٢٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٩٨).

(٤) البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٤) ومما يوضح هذه الأهمية حديث جرير بن عبد الله البجلي ﷺ، قال: قلت يا رسول الله اشترط علي. فقال: «**تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتصلي الصلاة المكتوبة، وتؤدِّي الزكاة المفروضة، وتنصح للمسلم، وتبرأُ من الكافر**»[١].

(٥) وقد أعلمنا القرآن الكريم أن التبرؤ من الكافرين دأب الأنبياء عليهم الصلاة والتسليم، ونحن مأمورون بالسير على طريقهم، فهذا أبو الأنبياء، خليل الرحمن، إبراهيم ﷺ يقول الله تعالى عنه: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء]. وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف].

ومع شدة بره بأبيه الذي يلمسه كل من قرأ سورة مريم أظهر التبرؤ منه لما وضح له أنه من أعداء رب العالمين، ومات على ملة المشركين؛ ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة].

وهذا هود ﷺ قال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود]. وقد جمع بين إظهار هذه العقيدة وبين القوة والحزم في ذلك، وقد ذُكر لنا سرُّ قوته هذه في قوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾، فصدق التوكل على الله سبب حفظه ورعايته: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

ونبينا ﷺ أعلن للمشركين براءته من دينهم وطريقتهم بعبارات صريحة لا لَبسَ يكتنفها ولا غموض يلحقها، فنزلت عليه هذه السورة المباركة؛ الكافرون، وأعلمهم بها.

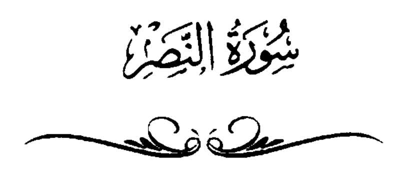
(١) أحمد (١٩٢٣٣)، وصححه شعيب الأرنؤوط ﷺ.

(٦) عنايته ﷺ بغرس هذه العقيدة في نفوس أصحابه:

ومما يدل على عنايته ﷺ بإرساخ هذه العقيدة في نفوس أصحابه أنهم ضربوا في تطبيقها أروع الأمثلة في غزوة بدر، وغزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة، فهذا دليل على أن إرساء عقيدة الموالاة والمعاداة في نفوسهم كان من أولويات دعوته. قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة].

ولما قبل النبي ﷺ الفداء من المشركين يوم بدر كان رأي عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يُمكن كل أحد من قريبه فيضرب عنقه؛ ليعلم الكفار أنه لا محبة عند المؤمنين لهم، ونزل القرآن الكريم مؤيدًا لقوله، ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال]. والكتاب الذي سبق: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد:].

والمقصود: لا بُدَّ أن نتدبر هذه السورة، وننظر في حالنا منها، وقد شرع الله قراءتها في مواطن كثيرة تمر بالمسلم في كل يوم وليلة، فلا يجوز أن يكون العبد مع ذلك غافلًا عما فيها، ومخالفًا له، والله المستعان.



بين يدي سورة النصر

وهي مدنية إجماعًا(١).

أسماؤها:

تسمى بسورة: «﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾»، وسورة «النصر»، وسورة «التوديع»(٢).

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها تسع عشرَة كلمة، وحروفها سَبعَة وَسَبعُونَ حرفًا كحروف المسد، وَهِي ثَلاث آيات فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»(٣).

فضلها وما ورد فيها:

عَنِ ابنِ عَبّاسٍ ﷺ، قالَ: «كانَ عُمَرُ يُدخِلُنِي مَعَ أَشياخ بَدرٍ، فَقالَ بَعضُهُم: لِمَ تُدخِلُ هَذا الفَتَى مَعَنا وَلَنا أَبناءُ مِثلُهُ؟ فَقالَ: «إِنَّهُ مِمَّن قَد عَلِمتُم» قالَ: فَدَعاهُم ذاتَ يَومٍ وَدَعانِي مَعَهُم قالَ: وَما رُئِيتُهُ دَعانِي يَومَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُم مِنِّي، فَقالَ: ما تَقُولُونَ فِي إذا جاءَ نَصرُ اللهِ والفَتحُ، وَرَأَيتَ النّاسَ يَدخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ

---

(١) زاد المسير (٤/٥٠١).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/٥٨٧).

(٣) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٩٤).

أَفواجًا حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، فَقالَ بَعضُهُم: أُمِرنا أَن نَحمَدَ اللهَ وَنَستَغفِرَهُ إذا نُصِرنا وَفُتِحَ عَلَينا، وَقالَ بَعضُهُم: لاَ نَدرِي، أَو لَم يَقُل بَعضُهُم شَيئًا، فَقالَ لِي: يا ابنَ عَبّاسٍ، أَكَذاكَ تَقُولُ؟ قُلتُ: لاَ، قالَ: فَما تَقُولُ؟ قُلتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعلَمَهُ اللهُ لَهُ: إذا جاءَ نَصرُ اللهِ والفَتحُ فَتحُ مَكَّةَ، فَذاكَ عَلاَمَةُ أَجَلِكَ: فَسَبِّح بِحَمدِ رَبِّكَ واستَغفِرهُ إِنَّهُ كانَ تَوّابًا. قالَ عُمَرُ: ما أَعلَمُ مِنها إِلّا ما تَعلَمُ»[١].

وعَن عائِشَةَ ﷺ، قالَت: ما صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ صَلاَةً بَعدَ أَن نَزَلَت عَلَيهِ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر] إِلّا يَقُولُ فِيها: «**سُبحانَكَ رَبَّنا وَبِحَمدِكَ اللهُمَّ اغفِر لِي**». وفي رواية لها: «كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكثِرُ أَن يَقُولَ قَبلَ أَن يَمُوتَ: «**سُبحانَكَ وَبِحَمدِكَ، أَستَغفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيكَ**». قالَت: قُلتُ يا رَسُولَ اللهِ، ما هَذِهِ الكَلِماتُ الَّتِي أَراكَ أَحدَثتَها تَقُولُها؟ قالَ: «**جُعِلَت لِي عَلامَةٌ فِي أُمَّتِي إِذا رَأَيتُها قُلتُها**، ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾»[٢].

وعَن عُبَيدِ اللهِ بنِ عَبدِ اللهِ بنِ عُتبَةَ، قالَ: «قالَ لِي ابنُ عَبّاسٍ: تَعلَمُ آخِرَ سُورَةٍ نَزَلَت مِنَ القُرآنِ، نَزَلَت جَمِيعًا؟ قُلتُ: نَعَم، ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، قالَ: صَدَقتَ»[٣].

موضوعاتها:

«الوعد بفتح مكة، والبشارة بدخول خلائق كثيرة في الإسلام، والأمر بكثرة ذكر الله تعالى وحمده وتسبيحه واستغفاره إذا كان ذلك»[٤].

---

(١) البخاري (٤٢٩٤).
(٢) البخاري (٤٩٦٧)، ومسلم (٤٨٤).
(٣) مسلم (٣٠٢٤).
(٤) التحرير والتنوير (٣٠/٥٨٩).

مقصدها:

البشارة بانتشار دين الإسلام بعد فتح مكة، والإيماء إلى أنه حين يقع ذلك فقد اقترب انتقال رسول الله ﷺ إلى الآخرة [1].

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٥٨٩).

سورة النصر: تأملات ووقفات

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾

«في هذه السورة الكريمة، بشارة وأمر لرسوله عند حصولها، وإشارة وتنبيه على ما يترتب على ذلك. فالبشارة هي البشارة بنصر الله لرسوله، وفتحه مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجًا... وأما الأمر بعد حصول النصر والفتح، فأمر رسوله أن يشكر ربه على ذلك، ويسبح بحمده ويستغفره، وأما الإشارة، فإن في ذلك إشارتين: إشارة لأن يستمر النصر لهذا الدين... وأما الإشارة الثانية، فهي الإشارة إلى أن أجل رسول الله ﷺ قد قرُب ودنا»[1]، والبشارة في الحقيقة ليست بدخول الناس في الدين، ولكن باكتمال أمره، وظهور سلطانه، وبزوغ شمسه بزوغًا لا يمكن بعده حبسه أو كبته، أما دخول الناس في دين الله أفواجًا فهذا قد رآه ﷺ قبل نزول السورة فهي متأخرة، ودخول الناس في الدين أفواجًا قبلها ولا تكون البشارة على أمر مضى بل بما هو آت.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن سورة الكافرون وسورة النصر بينهما نحو من عشرين سنة، فما هي مناسبة أن تكون سورة النصر بعدها؟ الجواب: أن سورة الكافرون سورة الثبات على المبادئ مهما كانت الشدائد، فهذا ما يحقق النصر للأُمَّة، ولهذا أتبعت بسورة النصر. وهذا معنى لطيف يستأنس به، أشار إليه بعضهم.

---

(١) تفسير السعدي، ص(٩٣٦).

وأسند النصر إلى الله لأنه المنعم به، ولا يملك ذلك غيره سبحانه، قال ربنا: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران].

ومن أنواع النصر: الثبات على المبادئ، فربنا قال في كتابه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر]، وفي أنبياء الله من قتل، ولكن بقي دينُه، فمن ثبت وقتل في سبيل الله فلا شك أن الله قد نصره بذلك[1].

وقوله: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾، بشارة لنبينا ﷺ بتمام أمر هذا الدين وامتداده في مشارق الأرض ومغاربها، وقد ثبت في الصحيحين، عَنِ ابنِ عباس رضي الله عنهما قالَ: النَّبِيُّ ﷺ: «**عُرِضَت عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ والنَّبِيّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهطُ، والنَّبِيُّ لَيسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى رُفِعَ لِي سَوادٌ عَظِيمٌ، قُلتُ: ما هَذا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: بَل هَذا مُوسَى وَقَومُهُ، قِيلَ: انظُر إِلَى الأُفُقِ، فَإِذا سَوادٌ يَملأُ الأُفُقَ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انظُر ها هُنا وَها هُنا فِي آفاقِ السَّماءِ، فَإِذا سَوادٌ قَد مَلَأَ الأُفُقَ، قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَيَدخُلُ الجَنَّةَ مِن هَؤُلاَءِ سَبعُونَ أَلفًا بِغَيرِ حِسابٍ**»، ثُمَّ دَخَلَ وَلَم يُبَيِّن لَهُم، فَأَفاضَ القَومُ، وَقالُوا: نَحنُ الَّذِينَ آمَنّا بِاللهِ واتَّبَعنا رَسُولَهُ، فَنَحنُ هُم، أَو أَولاَدُنا الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسلاَمِ، فَإِنّا وُلِدنا فِي الجاهِلِيَّةِ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَخَرَجَ، فَقالَ: «**هُمُ الَّذِينَ لاَ يَستَرقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَلاَ يَكتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ**» فَقالَ عُكّاشَةُ بنُ مِحصَنٍ: أَمِنهُم أَنا يا رَسُولَ اللهِ؟ قالَ: «**نَعَم**» فَقامَ آخَرُ فَقالَ: أَمِنهُم أَنا؟ قالَ: «**سَبَقَكَ بِها عُكّاشَةُ**»[2]. وهذه رؤية علمية.

والرؤية في الآية تفسر بالرؤية البصرية، فقد رأى النبي ﷺ ذلك في عام الوفود، في السنة التاسعة من هجرته المباركة[3]، ولهذا لم يتمكن من الحج إلا في العام العاشر؛ لاستقبال الوفود، وليتطهر البيت من المشركين قبل حجه.

---

(١) للاستزادة انظر (حقيقة الانتصار) للمؤلف.
(٢) البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠).
(٣) تنظر: سيرة ابن هشام (٥٦٠/٢).

وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾، أي: أكثر من ذكر الله، ومن تسبيحه وتنزيهه، ومن تحميده، واستغفاره. وهذا يدل على أن شكر الله تعالى يكون بالعمل الصالح وبذكره.

ودلَّت الآية على تقديم الثناء على الله تعالى قبل سؤاله، فالاستغفار دعاء، وقبل الدعاء أمر بالتسبيح بحمده، فالثناء قبل الدعاء، وهذا أدب من آداب سؤال الله ﷻ. وقد ثبت في حديث فَضالَةَ بنِ عُبَيدٍ ﷺ، قال: سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا يَدعُو فِي صَلاتِهِ لَم يُمَجِّدِ اللهَ تَعالَى، وَلَم يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عَجِلَ هَذا**»، ثُمَّ دَعاهُ فَقالَ لَهُ: ـ أَو لِغَيرِهِ ـ «**إِذا صَلَّى أَحَدُكُم، فَليَبدَأ بِتَمجِيدِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَزَّ، والثَّناءِ عَلَيهِ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَدعُو بَعدُ بِما شاءَ**»[١].

وفي فاتحة الكتاب ما يشير إلى هذا الأدب؛ فإن السؤال فيها ورد بعد ثناء بديع على ربنا، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾، حمد وثناء، ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝﴾، ثناء وثناء، ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝﴾، تمجيد وثناء، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا﴾، دعاء بعد حمدٍ وتمجيدٍ وثناء.

والمأمور بالاستغفار من بشره العزيز الغفار بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، فكيف بنا؟

وفيها أنه ينبغي للذاكر ألا يهمل شيئًا من ذكر الله، فهذا أولى من الاقتصار على نوع بعينه، ففي نصوص الوحي أمر بالتسبيح، والتحميد، والاستغفار، والتهليل، وغير ذلك من الذكر، فأقبل على أنواعه كلها؛ فإنه أبرك لعملك، وأسلم لقلبك.

وفيها: إعلام النبي ﷺ بدنو أجله، والآجال غيب لا يعلمه إلا الله، لكن الآية قد يؤخذ منها أنَّ الطبيب إذا استدل بحال مريضه على قرب موته فإن في التعريض

---

(١) أبو داود (١٤٨١)، وصححه الألباني في أصل الصفة (٣/٩٩٠).

له بذلك خيرًا، فبمعرفته ذلك يؤدي الحق لأهله، ويوصي بما يجب أن يفعله أهله به بعد موته، ويجتهد في الطاعة في آخر عمره، ولا بُدَّ أن يكون ذلك بأسلوب مناسب، ويختلف هذا من مريض إلى آخر، علمًا بأن الأمر كله بيد الله، وفي التنزيل: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ ﴾[البقرة: ١٨٠]، أي علاماته وقرائنه.

والسورة تجذر معاني التفاؤل في نفوس المؤمنين بأن العاقبة لهذا الدين، قال ربنا: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾[التوبة]، وقال: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) ﴾[الفتح]، وقال: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) ﴾[الصف].

وجل الآيات التي وعد الله فيها بإظهار دينه تحفها آيات الجهاد في سبيله، وهذا يدل على أنَّ الجهاد أعظم وسائل إظهار هذا الدين.

فالآية الأولى قال الله قبلها: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) ﴾[التوبة]، وقال بعدها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) ﴾[التوبة].

والآية الثانية جاء قبلها: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾[الفتح ١٨]، وكانت المبايعة على الموت في سبيل الله، وجاء بعدها: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾[الفتح: ٢٩]، أي: في معامع القتال ومواقع النزال.

والآية الثالثة قال ربنا قبلها: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤) ﴾[الصف]، وبعدها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) ﴾[الصف].

ولكنه الجهاد الشرعيُّ الصحيح البعيد عن مسالك الغلو والتنطع والتعدي وتكفير المسلمين، كما حدث في هذا العصر ومن قبله، كالذي صنعه الخوارج وأشباههم.

وفي السورة: أن الأعمال بالخواتيم، والحرص على أن يختم الإنسان عمره بعمل صالح تَقَرُّ به في الآخرة عينه، ولأن الآجال لا يعلمها إلا الله، فلا سبيل لنيل ذلك إلا بتثبيت الأقدام في طرق الخير وسبل المعروف، وفي حديث جابر بن عبد الله ﷺ قالَ: سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «**يُبعَثُ كُلُّ عَبدٍ عَلَى ما ماتَ عَلَيهِ**»[1]. وقد قال ربنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران]، ويتحقق ذلك بالثبات على الدِّين حتى الممات، كما قال سبحانه: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر]، ثبتنا الله على الإسلام.

(١) مسلم (٢٨٧٨).



بين يدي سورة المسد

وهي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

«سورة ﴿ تَبَّتْ ﴾»، و«سورة المسد»، و«سورة أبي لهب»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها ثَلاث وَعِشرُونَ كلمة ككلم الفِيل والفلق، وحروفها سَبعَة وَسَبعُونَ حرفًا كحروف النَّصر، وَهِي خمس آيات فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[٢].

سبب نزولها:

عَنِ ابنِ عَبّاسٍ ، قالَ: «لَمّا نَزَلَت: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفا، فَجَعَلَ يُنادِي: **«يا بَنِي فِهرٍ، يا بَنِي عَدِيٍّ»** - لِبُطُونِ قُرَيشٍ - حَتَّى اجتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذا لَم يَستَطِع أَن يَخرُجَ أَرسَلَ رَسُولًا لِيَنظُرَ ما هُوَ، فَجاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيشٌ، فَقالَ: **«أَرَأَيتَكُم لَو أَخبَرتُكُم أَنَّ خَيلًا بِالوادِي تُرِيدُ أَن تُغِيرَ عَلَيكُم، أَكُنتُم مُصَدِّقِيَّ؟»**، قالُوا: نَعَم، ما جَرَّبنا عَلَيكَ إِلّا صِدقًا، قالَ: **«فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُم بَينَ يَدَي عَذابٍ شَدِيدٍ»**. فَقالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سائِرَ اليَومِ، أَلِهَذا جَمَعتَنا؟

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٥٩٩).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٩٥).

فَنَزَلَت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾»[١].

ما ورد فيها:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ جاءت امرأة أبي لهب إلى النبي ﷺ ومعه أبو بكر فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله إنها امرأة بذيئة وأخاف أن تؤذيك فلو قمت قال: «**إنها لن تراني**»، فجاءت فقالت: يا أبا بكر إن صاحبك هجاني قال: لا، وما يقول الشعر. قالت: أنت عندي مصدق، وانصرفت فقلت: يا رسول الله لم ترك؟! «**لا، لم يزل ملك يسترني عنها بجناحه**»[٢].

موضوعاتها:

زجر أبي لهب على قوله: تبًّا لك ألهذا جمعتنا؟ ووعيده على ذلك، ووعيد امرأته على انتصارها لزوجها، وبغضها النبي ﷺ.

مقصدها:

بيان أن النار مآل المُكذِّبين لنبينا ﷺ، المبغضين لدينه قربوا أو بعدوا، فلا محاباة في الأحكام أو الولاء والبراء.

---

(١) البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).
(٢) صحيح ابن حبان (٦٤٧٧).

سورة المسد: تأملات ووقفات

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾، أي: «خَسِرَت، وَخابَت، وَضَلَّ عَمَلُهُ وَسَعيُهُ، ﴿وَتَبَّ﴾ أَي: وَقَد تَبَّ تَحَقَّقُ خَسارَتِهِ وَهَلاكِهِ»[1]. وقد قال ربنا عن فرعون: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ۝٣٧﴾ [غافر]، أي: خسارة وبوار.

ومن عادة العرب الذين نزل القرآن بلسانهم التعبير بالجزء عن الكل، فالمراد: خسر أبو لهب، كما قال ربنا: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠﴾ [الحج]. واسمه عبد العزى، وقد ذكر بكنيته دون اسمه؛ لأنه عرف بها، ولئلا يعبَّد في القرآن أحد لغير الله، ولأن كنيته هي الأنسب لختام الآيات التي تلتها.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾، ومن كسبه ولده، ففي حديث عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِن أَطيَبِ ما أَكَلَ الرَّجُلُ مِن كَسبِهِ، وَوَلَدُهُ مِن كَسبِهِ**»[2]. قال ربنا: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧].

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾، وجيء بالسين هنا التي تدل على القرب للدلالة على وقوع هذا الأمر، وأنه كائن لا محالة.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٥١٥).
(٢) أبو داود (٣٥٢٨)، وصححه الألباني في أحكام الجنائز، ص(١٧١).

قـال ابن كثير ﵀: «قـالَ العُلَماءُ: وَفي هَذِهِ السُّـورَةِ مُعجِزَةٌ ظاهِـرَةٌ وَدَليلٌ واضِحٌ عَلَى النُّبُـوَّةِ، فَإنَّـهُ مُنذُ نَـزَلَ قَولُهُ تعـالَى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾، فَأَخـبَرَ عَنهُما بِالشَّـقاءِ وَعَـدَمِ الإيمانِ، لَـم يُقَيَّـض لَهُما أَن يُؤمِنـا، وَلا واحِدَ مِنهُمـا لا ظاهِرًا وَلا باطِنًا، لا مُـسِرًّا وَلا مُعلِنًا، فَـكانَ هَذا مِن أَقـوَى الأَدِلَّةِ الباهِـرَةِ عَلَى النُّبُـوَّةِ الظّاهِرَةِ»[١].

وقوله: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾، فيه مثال للأزواج الأشقياء المتظاهرين على الإثم والعدوان، وامرأته هي أم جميل، واسمها أروى بنت حرب، وهي أخت أبي سفيان ﵁، ومعنى حمالة الحطب أنها «تَحمِلُ الحَطَبَ فَتُلقِي عَلَى زَوجِها، لِيَزدادَ عَلَى ما هُوَ فِيهِ، وَهِيَ مُهَيَّأَة لِذَلِكَ مُستَعِدَّةٌ لَه ... وَعَن مُجاهِدٍ، وَعِكرِمَةَ، والحَسَنِ، وَقَتادَةَ، والثَّورِيِّ، والسُّدِّيِّ: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ كانَت تَمشِي بِالنَّمِيمَةِ، واختارَهُ ابنُ جَرِيرٍ. وَقالَ العَوفِيُّ عَنِ ابنِ عَبّاسٍ، وَعَطِيَّةَ الجَدَلِيِّ، والضَّحّاكِ، وابنِ زَيدٍ: كانَت تَضَعُ الشَّوكَ فِي طَرِيقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، واختارَهُ ابنُ جَرِيرٍ. قالَ ابنُ جَرِيرٍ: وَقِيلَ: كانَت تُعَيِّرُ النَّبِيَّ ﷺ بِالفَقرِ، وَكانَت تَحتَطِبُ، فَعُيِّرَت بِذَلِكَ. كَذا حَكاهُ، وَلَم يَعزُهُ إِلَى أَحَدٍ. والصَّحِيحُ الأَوَّلُ، واللهُ أَعلَمُ»[٢]، قلت: والاحتطاب ليس عيبًا يعيَّر به فاعله، بل دلَّ النبي ﷺ عليه وأرشد إليه بدلًا من سؤال الناس، قال ﷺ: «**والَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَأَن يَأخُذَ أَحَدُكُم حَبلَهُ فَيَحتَطِبَ عَلَى ظَهرِهِ خَيرٌ لَهُ مِن أَن يَأتِيَ رَجُلًا فَيَسأَلَهُ أَعطاهُ أَو مَنَعَهُ**»[٣].

وقـوله: ﴿جِيدِهَا﴾؛ أي: عنقهـا، والمسـد: كل مـا فُتل وضفِّر مـن الليف وغيره، وهـذا الحبـل تعذب به في النـار[٤]، على نحو لا يعلمـه إلا الله تعالى.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٥١٧).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٥١٥).
(٣) صحيح البخاري (١٤٧٠).
(٤) ينظر: زاد المسير (٤/٥٠٣).

وأعمام النبي ﷺ ماتوا قبل بعثته، وقد أدرك منهم أربعةً، أبا طالب وأبا لهب، ولم يؤمنا به، وحمزة والعباس، ﷺ.

وقد كان أبو لهب يمشي خلف النبي ﷺ في أسواق الحجاز وغيرها، ويحذر الناس منه، وكان وقع ذلك شديدًا عليه، ولم يرد عليه النبي ﷺ بكلمة، فقد قال نبينا ﷺ: «**عَمّ الرَّجُلِ صِنوُ أَبِيهِ**»[١]، لكن تولى الله تعالى الدفاع عنه، وكفى بهذه السورة ردًا ودفاعًا عن النبي ﷺ، من قبل ربِّه ومولاه ﷻ.

وفي القرآن الكريم ذكر لبعض الكفار بوصفهم وعملهم، ولبعضهم بأسمائهم؛ كهامان، وقارون، وأبي لهب، وهذه وإن كان كنية فإنها تجرى مجرى الاسم، وهذا يدل على أن المصلحة إذا اقتضت التحذير من معين باسمه فلا حرج، وإلّا فالأولى إغفال ذلك، لما قد يترتب عليه من المفاسد، وأذى الأحياء، ولذلك فليس في القرآن ذكر كافرٍ حي معاصر إلّا أبا لهب، ولا يوجد في القرآن تصريح باسم منافق واحد.

وفي السورة سجع كما في كثير من آي القرآن، ومراعاة الفواصل مطردة في القرآن الكريم، وذلك يجعل للكلام وقعًا شريطة ألا يقع متكلفًا، وكتاب ربنا منزه عن التكلف. وعلى هذا يفهم حديث الصحيحين: «**إِنَّما هَذا مِن إِخوانِ الكُهّانِ**»، مِن أَجلِ سَجعِهِ الَّذِي سَجَعَ[٢]. وسجع الكهان متكلف ثقيل بغيض ولا يعدهم العرب في الفصحاء.

والسورة دالة على أنه لا ينتفع أحد بنسبه، ولو كان عم رسول الله ﷺ، وفي الحديث: «**ومَن بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَم يُسرِع بِهِ نَسَبُهُ**»[٣].

ودلت السورة على أن الهداية بيد الله تعالى، والله ولي التوفيق.

---

(١) مسلم (٩٨٣).
(٢) البخاري (٥٧٥٨)، ومسلم (١٦٨١).
(٣) مسلم (٢٦٩٩).

سُورَةُ الإِخْلَاصِ

بين يدي سورة الإخلاص

وهي من السور المختلف في كونها مدنية أو مكية[١].

أسماؤها:

«سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»، و«سورة الإخلاص»، و«التوحيد»، و«الأساس». ويطلق اسم «الإخلاص» عليها وعلى الكافرون، واسم «المقشقشة»، عليها وعلى الكافرون والتوبة[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُهـا خمس عشرَة كلمة، وحروفها سَبعَة وَأَربَعُون حرفًا، وَهِي خمس آيات فِي المَكِّيّ والشامي، وَأَربع فِي عدد الباقِينَ، واختلافها آية: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، عدها المَكِّيّ والشامي وَلم يعدها الباقُونَ»[٢].

فضلها وما ورد فيها:

● **حب سورة الإخلاص سبب لمحبة الله للعبد:**

فقد ثبت عَن عائِشَةَ ﵂، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقرَأُ لِأَصحابِهِ فِي صَلاتِهِم فَيَختِمُ بِـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَلَمَّا رَجَعُوا ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ

(١) التحرير والتنوير (٦١١/٣٠).
(٢) البيان في عدّ آي القرآن، ص(٢٩٦).

اللهِ ﷺ، فقالَ: «سَلُوهُ لأيِّ شيء يَصنَعُ ذَلِكَ؟»، فَسَأَلُوهُ، فقالَ: لِأَنَّها صِفَةُ الرَّحمَنِ؛ فَأَنا أُحِبُّ أَن أَقرَأَ بِها. فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَخبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ»[1].

وهنا تنبيهان ذكرهما بعض أهل العلم:

الأول: حب الله تعالى له ليس بسبب قراءته لها في كل ركعة وختمه الركعات بها، وإنما لحبِّه لها.

الثاني: هذا الإقرار دليل على المشروعية لمن شابهت حالُه حالَه لا الاستحباب، ولذلك لم يقرأ بها النبي ﷺ، ولا أكثر الصحابة، لكن لا ينكر على من فعل ذلك لمقتض من نحو ما قام بذلك الصحابي، إلّا إذا سبب ذلك تشويشًا أو فتنة عند العوام فينهى عن ذلك درءًا للمفسدة.

● **وسورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن الكريم:**

فعن أبي الدرداء ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**أيعجِز أحدُكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن**». قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ **تعدل ثلث القرآن**»[2].

وعَن قَتادَةَ بنِ النعمان ﷺ، أَنَّ رَجُلًا قامَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَقرَأُ مِن السَّحَرِ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، لا يَزِيدُ عَلَيها، فَلَمّا أَصبَحنا أَتَى الرَّجُلُ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقالُّها، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**والَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ إِنَّها لَتَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ**»[3].

ولمسلم[4]: «**إن الله** ﷻ **جَزَّأَ القرآن بثلاثة أجزاء، فجعل** ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ **جزءًا من أجزاء القرآن**».

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**احشُدُوا؛ فَإِنِّي سَأَقرَأُ عَلَيكُم ثُلُثَ**

---

(١) البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).
(٢) البخاري (٥٠١٥).
(٣) البخاري (٥٠١٣).
(٤) (٨١١).

القُرآنِ». فَحَشَدَ مَن حَشَدَ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ فَقَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثُمَّ دَخَلَ، فَقالَ بَعضُنا لِبَعضٍ: إِنِّي أُرَى هَذا خَبَرٌ جاءَهُ مِن السَّماءِ، فَذاكَ الَّذِي أَدخَلَهُ. ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ فَقالَ: «**إِنِّي قُلتُ لَكُم: سَأَقرَأُ عَلَيكُم ثُلُثَ القُرآنِ، أَلا إِنَّها تَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ**»(١).

فما معنى أنها تعدل ثلث القرآن؟ قال النووي ﷺ: «قال القاضي: قال المازري: قيل: معناه أن القرآن على ثلاثة أنحاء: قصص، وأحكام، وصفات لله تعالى، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، متضمنة للصفات. فهي ثلث، وجزء من ثلاثة أجزاء. وقيل: معناه أن ثواب قراءتها يضاعف بقدر ثواب قراءة ثلث القرآن بغير تضعيف»(٢).

هذا قولان حكاهما النووي ﷺ.

والصحيح أنها تعدل ثلث القرآن الكريم في الأجر؛ لحديث ابن عمر ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، **تعدل ربع القرآن**»(٣). فإذا جعلنا القرآن ثلاثة أجزاء؛ خبرًا عن الله، وخبرًا عن عباد الله، وخبرًا عن أحكام الله؛ لنفهم معنى أن الإخلاص تعدل ثلث القرآن، فكيف سنقسمه إلى أربعة أجزاء لنفهم أن الكافرون تعدل ربعه؟!

ولا بُدَّ من الإشارة إلى أنها تعدل ثلث القرآن في الجزاء لا في الإجزاء، وهذا كما قال النبي ﷺ: «**مَن قالَ: لاَ إِلَهَ إِلّا اللهُ، وَحدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلكُ وَلَهُ الحَمدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، فِي يَومٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كانَت لَهُ عَدلَ عَشرِ رِقابٍ، وَكُتِبَت لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَت عَنهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكانَت لَهُ حِرزًا مِنَ الشَّيطانِ يَومَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمسِيَ، وَلَم يَأتِ أَحَدٌ بِأَفضَلَ مِمّا جاءَ بِهِ، إِلّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكثَرَ مِن ذَلِكَ**»(٤). فهل يجزئ ذلك عن إعتاق

---

(١) مسلم (٨١٢).
(٢) شرح مسلم (٦/٩٥).
(٣) الحاكم في المستدرك (٢٠٧٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٨٦).
(٤) البخاري (٣٢٩٣)، ومسلم (٢٦٩١).

عشر رقاب ممن وجب عليه ذلك وقال هذا الذكر مرة واحدة؟ لا يجزئ. أما في الجزاء فيعدل ذلك.

● **قراءتها سبب لدخول الجنة:**

فعَن أَبِي هُرَيرَةَ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ رَجُلا يَقرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَقالَ: «**وَجَبَت**». قالُوا: يا رَسُولَ اللهِ ما وَجَبَت؟ قالَ: «**وَجَبَت لَهُ الجَنَّةُ**»[1].

● **ومن قرأها عشر مرات بني له قصر في الجنة:**

قال رسول الله ﷺ: «**مَن قَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حَتَّى يَختِمَها عَشرَ مَرّاتٍ بَنَى اللهُ لَهُ قَصرًا فِي الجَنَّةِ**». فقال عمر: إذًا أستكثر يا نبي الله؟ فَقالَ رسول الله ﷺ: «**الله أكثر وأطيب**»[2].

● **ومن فضائلها:**

أنها مع المعوذتين سبب في حفظ العبد، وكان ﷺ يقرأ بها مع المعوذتين وينفث إذا اشتكى، وإذا أوى إلى فراشه عند النوم[3]. وكان ﷺ يقرأ بها في الوتر[4]، وفي ركعة سنة الفجر الأخيرة[5]، وفي ركعتي الطواف[6]، وفي مواطن أخرى، ويأتي بعض ذلك.

فائدة:

دلَّ ما سبق من نصوصٍ على أنَّ القرآن يتفاضل، وإنما يتفاضل باعتبار موضوعاته، فإنَّ المتكلم به واحد، وهو الله سبحانه.

فالفاتحة أعظم سورة في القرآن، وآية الكرسي أعظم آية في القرآن، وقد صحَّ بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ. وخير كتاب عُني بهذا الباب كتاب (فضائلُ القرآن

(١) أحمد (٨٠١١)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط في تخريجه.
(٢) أحمد (١٥٦١٠)، وهو في السلسلة الصحيحة (٥٨٩).
(٣) ينظر صحيح البخاري (٥٠١٧)، (٥٧٤٨).
(٤) ينظر حديث ابن عباس في سنن الترمذي (٤٦٢)، وحديث أبي عند أحمد (١٢٣/٥) وغيره، وجاء من حديث آخرين.
(٥) ينظر صحيح مسلم (٧٢٦).
(٦) ينظر صحيح مسلم (١٢١٨).

ومعالمه وآدابه)، لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، وليس كل سورة من سور القرآن ورد لها فضل يخصها في السنة، بل كثير مما ذكر في كتب فضائل القرآن عن فضائل بعض السور إما ضعيف أو موضوع.

موضوعاتها:

«إثبات وحدانية الله تعالى. وأنه لا يقصد في الحوائج غيره وتنزيهه عن سمات المحدثات. وإبطال أن يكون له ابن.

وإبطال أن يكون المولود إلهًا مثل عيسى عليه السلام»[1].

مقصدها:

تنزيه الربِّ ﷻ.

(١) التحرير والتنوير (٦١٢/٣٠).

سورة الإخلاص: تأملات ووقفات

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، الواحد في ألوهيته، وربوبيته، وأسمائه، وصفاته.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾، السيِّد الكامل الذي يُصمَدُ إليه في الحوائج[1] أي يُقصَد.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾، وفي هذا رد على اليهود الذين قالوا: إن عزيرًا ابن الله، وعلى النصارى القائلين بأن المسيح ابن الله، وعلى المشركين القائلين بأن الملائكة بنات الله! ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف].

﴿وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾، قال ربنا: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد]. والمخلوق يولد، ثم يولد له، وقدم ربنا نفي كونه أبًا ردًّا على من زعم ذلك، وليس في الناس من قال بالثانية في حقه سبحانه. ولكنه ذُكر لأنه إذا لم يُنف فقد يتبادر إلى بعض الأذهان سؤال بشأنه، وهذا من جملة بلاغة القرآن ونظمه العجيب.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾، أي: ليس لله مثيل يكافئه في شيء من صفاته، ولا في أسمائه. قال ربنا: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم]، وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى].

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (٤/٥٠٦).

وهذه السورة المباركة تتأكد قراءتها في مواطن، وهي:

(١) عند النوم:

فعن عائشة ﵂: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ إذا أَوَى إِلَى فِراشِهِ كُلَّ لَيلَةٍ جَمَعَ كَفَّيهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِما، فَقَرَأَ فِيهِما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمسَحُ بِهِما ما استَطاعَ مِن جَسَدِهِ، يَبدَأُ بِهِما عَلَى رَأسِهِ وَوَجهِهِ وَما أَقبَلَ مِن جَسَدِهِ، يَفعَلُ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ»[1].

(٢) في الوتر:

لحديث عبد الرحمن بن أبزى ﵁، عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ كانَ يُوتِرُ بِـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، وَ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، وَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَإذا فَرَغَ قالَ: «**سُبحانَ المَلِكِ القُدُّوسِ**» ثَلاثًا، وَيَمُدُّ فِي الثَّالِثَةِ[2].

والإخلاص والفلق والناس: المعوِّذات، وأما الأخيرتان فهما المعوِّذتان.

(٣) في الصباح والمساء:

ففي المسند عَن عُقبَةَ بنِ عامِرٍ ﵁ قالَ: لَقِيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقالَ لِي: «**يا عُقبَةُ بنَ عامِرٍ أَلا أُعَلِّمُكَ سُوَرًا ما أُنزِلَت فِي التَّوراةِ وَلا فِي الزَّبُورِ ولا فِي الإِنجِيلِ وَلا فِي الفُرقانِ مِثلُهُنَّ؟ لا يَأتِيَنَّ عَلَيكَ لَيلَةٌ إلا قَرَأتَهُنَّ فِيها:** ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، **وَ** ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، **وَ** ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾». قالَ عُقبَةُ: «فَما أَتَت عَلَيَّ لَيلَةٌ إِلا قَرَأتُهُنَّ فِيها، وَحُقَّ لِي أَن لا أَدَعَهُنَّ وَقَد أَمَرَنِي بِهِنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ»[3].

وعن عَبدِ اللهِ بنِ خُبَيبٍ ﵁ قال: خَرَجنا فِي لَيلَةِ مَطَرٍ وَظُلمَةٍ شَدِيدَةٍ نَطلُبُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ لَنا، فَأَدرَكناهُ، فَقالَ: «**أَصَلَّيتُم؟**»، فَلَم أَقُل شَيئًا. فَقالَ: «**قُل**». فَلَم أَقُل شَيئًا. ثُمَّ قالَ: «**قُل**». فَلَم أَقُل شَيئًا. ثُمَّ قالَ: «**قُل**». فَقُلتُ: يا رَسُولَ اللهِ ما أَقُولُ؟

---

(١) البخاري (٥٠١٧).

(٢) النسائي (١٧٠١)، وصححه الألباني في أصل صفة الصلاة (٢/٥٣٩).

(٣) أحمد (١٧٤٥٢)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط.

قالَ: «قُل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمُعَوِّذَتَينِ حِينَ تُمسِي وَحِينَ تُصبحُ ثَلاثَ مَرّاتٍ تَكفِيكَ مِن كُلِّ شَيءٍ»(١).

(٤) في ركعتي الفجر:

فعَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ فِي رَكعَتَيِ الفَجرِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وَ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»(٢). وقال ﷺ: «**نعمت السورتان يقرأ بهما في ركعتين قبل الفجر** ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾»(٣).

(٥) في الركعتين بعد المغرب:

فعَن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ ﷺ، أَنَّهُ قالَ: «ما أُحصِي ما سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقرَأُ فِي الرَّكعَتَينِ بَعدَ المَغرِبِ وَفِي الرَّكعَتَينِ قَبلَ صَلاَةِ الفَجرِ بِـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»(٤).

(٦) في ركعتي الطواف:

ففي صحيح مسلم، أَنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا فرغ من طوافه بالبيت «يَقرَأُ فِي الرَّكعَتَينِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وَ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»(٥).

● **وهنا سؤال: لماذا كان النبي ﷺ يقرن بين الكافرون والإخلاص في هذه الصلوات؟**

والجواب: «لأنهما قد اشتملتا على أنواع التوحيد الثلاثة، فسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ اشتملت على توحيد الربوبية والأسماء والصفات، فأثبتت أن الله تعالى إله واحد، ونفت عنه الولد والوالد والنظير، وهو مع هذا فـ ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي اجتمعت له صفات الكمال كلها. وسورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، تضمنت توحيد العبادة، وأن العبد لا يعبد إلا الله، ولا يشرك به في عبادته أحدًا، فلذلك كان الرسول ﷺ يفتتح

---

(١) أبو داود (٥٠٨٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.
(٢) مسلم (٧٢٦).
(٣) ابن خزيمة في صحيحه (١٢١/١)، وهو في السلسلة الصحيحة للألباني (٦٤٦).
(٤) الترمذي (٤٣١)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٨٥١).
(٥) سبق تخريجه في سورة الكافرون.

بهما النهار في سنة الفجر، ويختم بهما في سنة المغرب، وفي السنن أنه كان يوتر بهما، فيكونان خاتمة عمل الليل كما كانا خاتمة عمل النهار»[١].

(٧) في الرقية:

ففي الصحيحين عَن أمنا عائِشَةَ ﵂: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كانَ إذا اشتَكَى يَقرَأُ عَلَى نَفسِهِ بِالمُعَوِّذاتِ وَيَنفِثُ، فَلَمَّا اشتَدَّ وَجَعُهُ كُنتُ أَنا أَقرَأُ عَلَيهِ وَأَمسَحُ عَلَيهِ بِيَمِينِهِ رَجاءَ بَرَكَتِها»[٢].

(٨) بعد الصلوات المكتوبات:

قال عقبة بن عامر ﵁: «أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَن أَقرَأَ بِالمُعَوِّذاتِ دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ»[٣].
وتكرارها ثلاث مرات بعد صلاتي الفجر والمغرب محل خلاف، للخلاف في صحة الدليل.

وكثير من الأحاديث وضعت على لسان رسول الله ﷺ في فضل هذه السورة المباركة لم يقلها! منها:

حديث: «مَن قَرَأَ كُلَّ يَومٍ مِائَتَي مَرَّةٍ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، مُحِيَ عَنهُ ذُنُوبُ خَمسِينَ سَنَةً إِلَّا أَن يَكُونَ عَلَيهِ دَينٌ».

ومنها حديث: «من قرأ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرة بورك عليه، فإن قرأها مرتين بورك عليه وعلى أهله، فإن قرأها ثلاثًا بورك عليه وعلى أهله وعلى جيرانه، وإن قرأها اثنتي عشرة مرة بنى الله له بها اثني عشر قصرًا في الجنة. وتقول الحفظة: انطلقوا بنا ننظر إلى قصور أخينا، فإن قرأها مئة مرة كفر عنه ذنوب خمس وعشرين سنة؛ ما خلا الدماء والأموال، فإن قرأها مائتي مرة كفر عنه ذنوب خمسين سنة؛ ما خلا الدماء والأموال، وإن قرأها ثلاث مئة

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم (١/١٤٥ ـ ١٤٦).
(٢) البخاري (٥٠١٦)، ومسلم (٢١٩٢).
(٣) صحيح أبي داود (١٣٦٣).

مـرة كتـب له أجـر أربـع مئة شـهيد، كل قـد عقر جـواده وأهريـق دمـه، وإن قرأها ألـف مـرة لـم يمت حـتى يـرى مكانه مـن الجنـة أو يـرى له» وهـذا موضوع.

وفي الباب أحاديث أخرى فيها بعض الاختلاف في الأعداد، ففي بعضها قراءة سورة الإخلاص خمسين مرة، وفي أحاديث أخرى مئة مرة، وليس لها أسانيد ثابتة.

ومنها: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ألف مرة فقد اشترى نفسه من النار».

كل هذا لم يثبت عن النبي ﷺ. والله أعلم.



بين يدي سورة الفلق

وهي مكية على الصحيح(١).

أسماؤها:

سورة «﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾»، وسورة «﴿ٱلۡفَلَقِ﴾»، وسميت بـ «المُعَوِّذة الأولى». وتسمى مع الناس بالمُعَوِّذتين، والمُعوِّذات: الإخلاص، والفلق، والناس(١).

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها ثَلاث وَعِشْرُونَ كلمة ككلم الفِيل والمسد، وحروفها تِسعَة وَسَبعُونَ كحروف النّاس، وَهِي خمس آيات فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»(٢).

ما ورد فيها:

يراجع ما كتب تحت سورة الإخلاص، ففيه الأحاديث التي بيَّنت فضل المعوذات، والمواطن التي تتأكد قراءتها فيها.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٦٢٤).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٩٧).

موضوعاتها:

«تعليم النبي ﷺ كلمات للتعوذ بالله من شر ما يتقى شره من المخلوقات الشريرة، والأوقات التي يكثر فيها حدوث الشر، والأحوال التي يستر أفعال الشر من ورائها لئلا يرى فاعلوها بتبعاتها، فعلم الله نبيَّهُ هذه المعوذة ليتعوذ بها، وقد ثبت أن النبيء ﷺ كان يتعوذ بهذه السورة وأختها ويأمر أصحابه بالتعوذ بهما، فكان التعوذ بهما من سنة المسلمين»[1].

مقصدها:

التحرز بها من شَرِّ السَّحر والحسد، ومن شرِّ كلِّ ذي شرٍّ من طوارق الليل أو النهار.

(١) التحرير والتنوير (٦٢٥/٣٠).

سورة الفلق: تأملات ووقفات

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، الفلق: الصبح، قال ربنا: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، والفجر يفلق ظلام الليل أي يشقه ويمزق أستاره إذا انتشر.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾، ما موصولة فهي استعاذة من شر المخلوقات. وقد ثبت عن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ إذا أَوَى إِلَى فِراشِهِ: **«اللهُمَّ رَبَّ السَّمواتِ، وَرَبَّ الأَرضِ، وَرَبَّ كُلِّ شَيءٍ، فالِقَ الحَبِّ والنَّوَى، مُنَزِّلَ التَّوراةِ، والإنجِيلِ، والقُرآنِ، أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ، أَنتَ آخِذٌ بِناصِيَتِهِ، أَنتَ الأَوَّلُ فَلَيسَ قَبلَكَ شَيءٌ، وَأَنتَ الآخِرُ فَلَيسَ بَعدَكَ شَيءٌ، وَأَنتَ الظّاهِرُ فَلَيسَ فَوقَكَ شَيءٌ، وَأَنتَ الباطِنُ فَلَيسَ دُونَكَ شَيءٌ، اقضِ عَنِّي الدَّينَ، وَأَغنِنِي مِنَ الفَقرِ»**(١).

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾، وهذه فسرها نبي الله ﷺ، كما في الحديث عن عائِشَةَ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَظَرَ إِلَى القَمَرِ، فَقالَ: **«يا عائِشَةُ، استَعِيذِي بِاللهِ مِن شَرِّ هَذا، فَإِنَّ هَذا هُوَ الغاسِقُ إِذا وَقَبَ»**(٢)، وقد فُسّر ذلك بوقت بزوغ القمر وظهوره، وهو يقوى سلطانه إذا دخل الليل واشتدت ظلمته، وفُسّر بوقت كسوفه والغاسق إذا اسود ودخل في ساهوره أي الظل الصنوبري الذي يعتريه.

---

(١) أبو داود (٥٠٥١)، وصححه الألباني في صحيح الكلم الطيب (٤١).
(٢) الترمذي (٣٣٦٦)، وهو في السلسلة الصحيحة (٣٧٢).

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ ﴾، أي: النفوس النفاثات، والنفث: تفل به ريق يسير، تفعل ذلك لتصنع السحر، وقد تكون النفس النافثة لرجل، وقد تكون لامرأة.

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾، والحسد كراهة أن ينعم الله على أخيك. فإن تمنى زوال النعمة فهي ظلمات بعضها فوق بعض.

والغبطة تمني الخير، قال نبينا ﷺ: «**لاَ حَسَدَ إِلّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ مالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتاهُ اللهُ الحِكمَةَ فَهُوَ يَقضِي بِها وَيُعَلِّمُها**»[١]. والحسد هنا بمعنى الغبطة، ولا حرج فيها، لكن ليحذر المسلم أن يقع الحسد المذموم في قلبه متصورًا أنه غبطة!

والحسد سبب شر عظيم، وأول قتل وقع كان بسبب الحسد، قال ربنا: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المائدة].

والحسد هو الذي أخرج إبليس من الجنة، وحمله على معصية أمر ربنا، قال الله: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [ص].

ومن هدايات الآيات أن للسحر حقيقة وتأثيرًا، ولولا ذلك لما أمرنا الله ﷻ بالتعوذ منه.

---

(١) البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٥).

سُورَةُ النَّاسِ

بين يدي سورة الناس

وهي مكية على الصحيح[١].

أسماؤها:

«سورة ﴿ٱلنَّاسِ﴾»، و«﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»، و«المُعوِّذة الثانية»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها عشرُون كلمة، وحروفها تِسعَة وَسَبعُونَ حرفًا كحروف الفلق، وَهِي سبع آيات فِي المَكِّيّ والشامي وست فِي عدد الباقِينَ، واختلافها آيَة: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ ،عدها المَكِّيُّ والشامي وَلم يعدها الباقُونَ»[٢].

فضلها وما ورد فيها:

سبق ذكر ذلك في تأملات سورة الإخلاص.

موضوعاتها:

«إرشاد النبي ﷺ لأن يتعوذ بالله ربه من شر الوسواس الذي يحاول إفساد عمل النبي ﷺ وإفساد إرشاده الناس، ويلقي في نفوس الناس الإعراض عن دعوته. وفي

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٦٣١).

(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٩٨).

هذا الأمر إيماء إلى أن الله تعالى معيذه من ذلك فعاصمه في نفسه من تسلط وسوسة الوسواس عليه، ومتمم دعوته حتى تعم في الناس. ويتبع ذلك تعليم المسلمين التعوذ بذلك، فيكون لهم من هذا التعوذ ما هو حظهم من قابلية التعرض إلى الوسواس، ومع السلامة منه بمقدار مراتبهم في الزلفى»[١].

مقصدها:

التحرز بها من شر الشيطان، والتخلص من وسواسه الذي ابتلي به كثير من الناس.

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٦٣٢).

سورة الناس: تأملات ووقفات

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١﴾، أعوذ: أي أتحصن وألتجئ وأعتصم وأستجير بك يا الله، وفي التعوذ بهذه الصيغة توسل بالربوبية المقتضية للحفظ والكلاءة والرعاية.

﴿مَلِكِ النَّاسِ ۝٢﴾، أي سيد الناس ومالكهم وحاكمهم، ومن تمام الاستعاذة أن تتصرف تصرف المملوك فتصدر عن حكم الملك المالك ﷻ.

﴿إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣﴾ أي معبودهم بحق وحده ﷻ.

﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤﴾، قال ابن عباس ﵄: «الشَّيطانُ جاثِمٌ عَلَى قَلبِ ابنِ آدَمَ، فَإذا سَها وَغَفَلَ وَسوَسَ، فَإذا ذَكَرَ اللهَ خَنَس»[1]. وهذا يدل على عظيم أثر الذكر في الوقاية من الشيطان، وفي الصحيحين، أن رسول الله ﷺ قال: «**لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، جنِّبنا الشيطان، وجنِّب الشيطان ما رزقتنا؛ فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضرَّه الشيطان أبدًا**»[2].

﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾، أي في صدور بني آدم وفي صدور الجن، فدلت على دخول الجن في كلمة ﴿النَّاسِ﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٥٤٠).

(٢) البخاري (٣٢٧١)، ومسلم (١٤٣٤).

قال ابن كثير ﵀: «هَل هُوَ تفصِيلُ لِقولِهِ: ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ ثُمَّ بَيَّنَهُم فقالَ: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾... وَقِيلَ قَولُهُ: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، تَفسِيرٌ لِلَّذِي يُوسوِس فِي صُدُورِ النّاسِ، مِن شَياطِينِ الإِنسِ والجِنِّ، كَما قالَ تَعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام]»[1]، وهذا الأخير يدل على أن الموسوس بالشر من الإنس كذلك يخنس ويخسأ إذا ذكرت الله تعالى وهو معنى حق.

والوسوسة تبدأ بالأمر الحقير؛ ليجر بعده إلى العظيم والخطير، ولذا نُهينا عن اتباع خطوات الشيطان، قال ربنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱدْخُلُوا فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور].

ومن الملاحظ في هذه السورة أن الله تعالى أرشد العباد إلى الاستعاذة بثلاث صفات مضمنة في أسمائه: الرب، والملك، والإله، من الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس، وهذه الصفات هي الربوبية المقتضية للخلق والتدبير والرعاية، والملك المقتضي للقدرة والقوة والسلطان، والإلهية المقتضية إفراده تعالى بالعبادة، فتضمنت التوسل إليه بصفاته المناسبة للمنعة والإعاذة، وبتوحيده المؤهل لرحمة العبد وإعاذته.

ومن الملاحظ أيضًا أنه تعالى لما شرع الاستعاذة من شر عموم الخلق في سورة الفلق جاء السؤال باسم واحد: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، ولما شرع الاستعاذة من الشياطين في سورة الناس جاءت الاستعاذة بثلاثة أسماء، لأنه لا سبيل إلى دفع شر شياطين

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٥٤٠).

الجن إلّا بالالتجاء إلى الله والاعتصام به تعالى، أما غيرهم من الخلائق فتمكن مداراته. وأيضًا لما كان المستعاذ منه في سورة الفلق شرًّا خارجيًا، استعاذ بالرب تعالى، ولما كان الوسواس داخليًّا ممن يجري من ابن آدم مجرى الدم، في سورة الناس، استعاذ بالرب الملك الإله ﷻ؛ لأن العدو الداخلي أشد خطرًا من العدو الخارجي، وكلاهما عدو خطير، لذا شرعت الاستعاذة منهما في اليوم والليلة مرات.

هذا وفي السورة من التنويه بخطر الوسوسة ما لا يخفى، أصلح الله الصدور، وحفظ القلوب، ووفق لمرضاته، والحمد لله رب العالمين.

فهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

تمَّ بحمد الله